

بقلم

الدكتور محمد حسين هيكل بك

الاهداء

الى الشباب

رجاء الغد ، وأمل المستقبل

اهدى هذا الكتاب

هيكل

للمؤلف

زينب	طبعت سنة ١٩١٤
جان جاك روسو جزءان	فى سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٤
فى أوقات الفراغ	سنة ١٩٢٥
عشرة أيام فى السودان	سنة ١٩٢٧
تراجم	سنة ١٩٢٩
ولدى	سنة ١٩٣١
دين مصر العام بالفرنسية	سنة ١٩١٢

تقديم

هذا الكتاب جديد قديم . هو قديم لأن بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يتغير منه الا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين . الأولى وحدة الفكرة التى تنتظم فصوله جميعاً . والثانية أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه مايجعله يتفق ووحدة الفكرة ،وبعضها الف من أكثر من جزء من عدة فصول نشرت،وهذه الاجزاء جميعاً تتسق من حيث الفكرة وتؤدى الى الغاية التى وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب اذن جديد قديم . وأحسب طابع الجدة فيه أغلب لأن الفكرة التى دعت إلى نشره لم تكن بارزة فى أى من الفصول التى سبقت الى نشرها بروزها فيه .

وقد اخترت له (ثورة الأدب) عنواناً بعد أن جال بخاطرى قبيل طبعه أن أجعل عنوانه (نحو الأدب القومى)، لأن فصوله الأولى جميعاً لا تتحدث عن الأدب القومى وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التى شهدها نصف القرن الاخير فى شؤون الكتابة والأدب وتصف المجهود المتصل الذى قام به أصحاب المذاهب المختلفة فى إقامة الادب العربى الجديد . والواقع أن هذا الأدب العربى يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العرابية فى مصر ، ومنذ بدأ هذا

الشعور القومى يحرك النفوس ويدعوها الى التوجـه نحو النهوض بمجموع الامة الى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الـكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ، ومن النطاق المحصور نطاق التعليم ؛ لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ولتصورلهم من نواحى الحياة ما يريد الـكاتب تصويره . وقد كان هذا العمل وما يزال شاقا. فأية لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان؟ ليست هى اللغة الدارجة التى يتكلم الناس بها لأن لـكل إقليم من الأقاليم لغة كلام تختلف عن لغة الأقليم الذى يجاوره، وتكاد تنقطع الصلة بينها وبين الأقليم الذى يبعد بعض الشىء عنه . واختـلاف لغات الأقاليم التى تتكلم العربية يجعل محالا وضع قواعد تنتظم هذه اللغات المختلفة . ولغات الأقاليم لم يدون لها أدب له من الاحترام مايجعـل بعثه موضع فخار ومجد . فلا بد اذن من أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الـكتابة ولغة الاتصال بالجمهور . لـكن هذا الجمهور لا يفهمك اذا خاطبته باللغة التى كان يتخاطب بها العرب الأولون. ولـكن اللغة العربية هى كذلك لغة القرآن الـكريم. فكيف ترتفع بالجمهور إلى حسن ادراك لغة القرآن ، وكيف تقرب اللغة العربية الى إدراك الجمهور؟... من الاجابات المختلفة على هذين السؤالين نشأت ثورة الأدب خلال السنوات الخمسين التى انقضت حتى يومنا الحاضر. وفى خلال هذه السنوات الخمسين أخرجت الثورة صوراً من الأدب مختلفة فى النثر والشعر يدرسها بعض المستشرقين اليوم، وهى جديرة بالعناية والدرس من كل مشتغل بالادب معنى بتـاريخ الـكتابة العربية فى العصر الاخير

وكما أن الثورة العرابية لم تنته الى اليوم لأنها لم تحقق غاياتها، كذلك لم تنته ثورة الادب بعد الى غاية . وكما أدت الثورة العرابية الى الاحتلال البريطانى لهذه البلاد احتلالا اتجه بالثورة السياسية الى ناحية جديدة ، كذلك اتجه هـذا الاحتلال بثورة الادب الى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الاولى من الثورة: صورة لغة الكلام ولغة الكتابة ؛ ولم تبق بعدها محلا لبحث أو جدل ، ولم يبق قط قائل باتخاذ لهجات الكلام أساساً للادب ، وحل محل ذلك ماسمى القديم والجديد فى الادب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة وتنقل المحاربون فيها فى ميادين مختلفة

كانت هـذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة وتتناول الالفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة كما كانت تمس فى رفق صور الأدب وما يصح أن تكون عليه . والى يومئذ كانت الغلبة لأنصار تقليد الادب القديم وكان السجع والاغراب فى اختيار الالفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكان الادب الغربى يومئذ جديراً بأن يسمى الادب الكبير فى النثر والشعر . فقد كان الادب القصصى قد بلغ قمة مجده وكان كبار الشعراء قد أقاموا فى لون العصر مايقف الى جانب الالياذة والانيادة فى الادب اليونانى ؛ والى جانب شعر فرجيل من أدب الرومان . وكان كثيرون من شباننا الذين ذهبوا يتمون دراساتهم فى أوربا يومئذ سواء منهم من أوفدتهم الجامعة ومن أوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراساتهم العالية قد فتنوا أكبر فتنة بهذا الادب الغربى الكبير . فلما آن لهم

أن يعودوا وكانت الحرب الكبرى قد أعانت أو قد انتهت كان هذا الادب الغربى الكبير فى أوربا قد آن له أن يستريح بسبب انصراف النفوس فى الغرب عنه . ويرجع هذا الانصراف الى أن النفوس شعرت بعد الحرب بفراغ هائل فيها كما شعرت فى نفس الوقت باستهتار بالحياة أدى بها الى التهالك عليها. وما تريد بالانسانية خارجة من أفظع مجزرة شهدها التاريخ بعد أن ظلت خلالها أربع سنوات تباعا ترى الالوف ومئات الالوف والملايين يحصدهم الموت حصداً وهم فى ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! أية قيمة للحكمة فى نظرها ولهذا القصد فى الحياة ننهل منها على مهل اذا كنا نجهل كل الجهل ماسنصير اليه فى غدنا. وهل سنظل فى فتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونعيمه أو أنا سنصبح لاشىء كما أصبح ملايين غيرنا ؟ اذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء. ولنترام بكلنا فى أحضان المسرات ننال منها فى أقصر وقت أكبر حظ مادمنا غير مؤقنين بأنا سنأخذ حظنا منها كاملا اذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ماتطيقه قوانا الانسانية . . وكان من أثر هذه الحال النفسية على الادب أن اضطر كثير من الكتاب لارضائها وامتاعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ولكنها مختلفة متفرقة لانها تقصد الى إرضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الادب هو الذى تهافتت الجماهير عليه لاقدراً منها إياه ولا إعجابا منها به، ولكن لانه يسد مطامعها ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها اضرار بها ولكنها تهافتت عليها لانها تسد حاجتها الى نسيان آلامها وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، ولكنها على كل حال سعادة ربما لم

يتح لها أن تنال غيرها قبل هذا الغد الذى يخبىء لها مالا تدرى — المرض أو العاهة أو الموت أو البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم فى أوربا قبيل الحرب أو اثناءها أو فى أعقابها ممتلئة صدورهم إعجابا بالأدب الكبير الذى قرأوا والذى شهدوا على المسارح ؛ موجهة عقولهم توجيهاً جديداً على الطرائق العلمية الحديثة . وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم تر مصر مثلهما من زمن غير قليل إلا من أفراد قلائل موهوبين كان لهم أثرهم فى توجيه التفكير المصرى وفى مقدمتهم المرحومين الشيخ محمد عبده وقاسم أمين كما كان بينهم بعض أساتذتنا ممن لا يزال أثرهم فى هذه الناحية متصلا . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا الى الميدان ونشاطهم أن البعوث الى أوربا لاتمام الدراسات العليا كانت قد انقطعت زمناً غير قصير ولم تعد سيرتها الأولى إلا فى سنة ١٩٠٧ بفضل الجامعة المصرية فضلا تأثرتها فيه وزارة المعارف فى السنة التالية . أما ماقبل ذلك فقل من كان يسافر الى أوربا للقيام بدراسات عليا متصلة ، والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات فى فرنسا وانكلترا كان أكثرهم ممن لم يلق نجاحا فى مصر فلم يستطع متابعة دراساته فى مدارسها . فلما عادت البعوث سيرتها واوفدت الجامعة من أوفدت واقتدت بها وزارة المعارف انتقلت العدوى الى بعض الافراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم وعادوا بعد اتمامهم إياه فنقلوا ميدان القديم والجديد فى الأدب ووجهوه وجهة أخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فرغ ، وغير أساليب الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب

طابعاً جديداً نقلها من مجرد المحاكاة الى بروز الذاتية . هذا الميدان الجديد الذى انتقلت المعركة اليه هو صور الأدب وما يجب أن تكون. لقد انقضى عصر المقامات والترسل فى نظر هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هى صور الأدب القومى الكبير . هى القصة والاقصوصة وهى الشعر الوجدانى والشعر التمثيلى . وقد أعان ثورة الادب هذه أنها اقترنت بالثورة السياسية التى شبت فى أثر الحرب الكبرى إذ بدأت فى ٩ مارس سنة ١٩١٩ . ألم يكن المصريون يطلبون فى ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطلبون حياة سياسية وصوراً من الحرية السياسية على مثال ما فى الغرب سواء ؟! فلتكن مظاهر الفن والادب مصبوبة عندهم فى قوالب غربية لتكون آية للناس جميعا على تقدمهم وعلى أنهم يسابقون الغرب الى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الادب هذه ليغيب عن الأذهان جلال خطرها ولا هى كانت أقل لفتاً لنظر الغرب من الحركات السياسية التى دمغها الطابع القومى والتى امتدت الى بلاد الشرق جميعاً . ومهما تكن الحوادث قد غمرت زعماء ثورة الادب فى ميادين السياسة فان جهودهم ظلت تراقب وتحلل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تحلل وتراقب . ذلك بأن الادب واتجاهه فى أية أمة من الامم هو العنوان الصحيح لحضارتها وهو القوة التى لا تستطيع قوة أخرى كبحها والقضاء عليها بالسهولة التى تقضى بها القوات المسلحة على الثورات السياسية . وانما يقضى على ثورة الادب باندساس عوامل تفسد توجيهها . ويخيل الى أن مجهودا كبيرا قد أنفق فى هذا

السبيل كما أنفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الاصلاح الدينى التى بدأ المرحوم الشيخ محمد عبده والتى كانت جديرة بأن تؤتى أعظم الثمرات . ومهما يكن من أمر هـذه الجهود فان ثورة التجديد فى الادب قد ظفرت بالقديم وقد جرت الى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتحها . لـكن ما أنفق من الجهود التى هيأت الفوز فتح عيون أصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : أيان نذهب وماذا اليه من جديدنا نقصد ؟

وقد كان طبيعياً أن يقفوا هذه الوقفة وأن يطرحوا هذا السؤال. فالحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الادب والفن . ونحن فى مصر وفى الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم أخضعتنا الظروف لحـكم الحضارة الغربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الادب الوجهة التى ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما فى عصورهما من صور الفن والأدب ، ثم جعلت أوربا تستقل بحضارتها رويداً رويداً لتقيمها على الاساس العلمى الذى وضعه ديكارت فى القرن السابع عشر ، ثم جعل هذا الاساس يتطور من بعد ذلك الى دين الطبيعة والى فلسفة التجريد فى القرن الثامن عشر ثم الى العـلم الوضعى والفلسفة الواقعية والى دين الانسانية فى القرن التاسع عشر ، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان من ناحية ، ومن غير أن تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحيـة أخرى . صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محاربة وهدم فى أحيان كثيرة . لـكن الحضارة الغربية لم تقطع ، ولا تستطيع أن تقطع ، صلتها

بهذين العاملين اللذين أنشآها . والادب الغربى المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة . وتستطيع أن تقرأ فى الادب الانكليزى او الفرنسى أو الالمانى أو أياً ما شئت من آداب الامم الأوربية وأنت أبداً واجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحاً . فماذا عسانا نحن نصنع والى أى أدب والى أية فلسفة فى الماضى القريب والماضى البعيد يجب أن ننسب اذا أردنا به أن يكون مظهراً لحضارة ما ؟ وقف المجددون هذه الوقفة وواجهتهم هذه المسألة فلم يتردد أكثرهم فى الاجابة بأن ماضيهم هو الاب الطبيعى لحضارتهم ولأدبهم .أما القلائل الذين قالوا بالاخذ بالحضارة الغربية فى كل مظاهرها وصورها على نحو مافعل الاتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلاصدى ضعيفاً زاده ضعفاً ماقدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الادب الكبير. من هنا بدأت الصلة بين أنصار القديم وأنصار الجديد فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة . وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون فى ثمرات الجهود التى يبذلها أنصار الحديث فى بعث الادب الجاهلى وأدب عصور الاسلام المختلفة بعثاً علمياً دقيق التحقيق خطوة موفقة فى سبيل إعادة الحياة الى حضارتنا الدفينة .

ولكن ! . . ماهى هذه الحضارة ؟ ؟ عربية هى أم إسلامية؟! سؤال وجه وكان المستشرقون أشد ما يكونون جذلا بتوجيهه حتى لقد رأينا أخيراً طلابا وطالبات غربيين يفدون الى مصر والى مختلف جهات الشرق العربى يحاولون فيما يقولون تحقيق هذه المسألة ، يتصلون بكل من يتوسمون فيهم انهم رجال الادب الحديث، ويلتمسون اليهم

ان يدلوهم على عقيدتهم العلمية فى الامر. وأشعر بأننى فى حل من القول بان هذه الطلعة الغربية متجهة الى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسية تبرر الاعتقاد بأن المسألة لم تثر للبحث العلمى وحده . وسواء صح اعتقادى هذا أم لم يصح ، وسواء أكان المقصود إثارة الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية ، او كان المقصود به أن لا تقرن الى الاسلام حضارة ما ، أو ان هذا ولا ذاك لم يكن المقصود وإنما البحث التاريخى النزيه هو المقصود ، سواء أكان هذا أو ذاك فانا نعتقد أن أية حضارة يجب لتقوم أن تتصل حتما بعنصر من الايمان . وقد خيل الى العلماء زمناً ما أن العلم سيغذى النفوس بهذا الايمان ليقيم دين الطبيعة على نحو ماحاول روسو أن يقيمه ، أو دين الانسانية على ماوضعه أوجست كومت. لكن ماتم من محاولات فى هذه السبيل لم ينجح فى أن يقدم للجمهور الغربى مايرضى طلعته الى رجاء أو أمل فى الطمأنينة والسعادة. ومن ثم انقلب هذا المجهود الى الناحية المادية والاقتصادية وجعل منها كل رجائه فى الحياة فكان من ثمرة ذلك ماتعانى الانسانية اليوم من شقوة وبؤس زادا فى اغراء الجمهور بالتشبث بهذا الامل وهذا الرجاء . فالنفس بحاجة الى رخاء فى غذائها الفكرى والعاطفى حاجة الجسم الى شىء من النعيم فى حياته المادية . ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وأدباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسى فى أديان الشرق وصور الايمان فيه . والادب كمظهر للحضارة لاغنى له عن تجلية جانب الايمان فى النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة ، ولا غنى له عن أن يحلل هذا الجانب ويصف

أثره فى الحياة . وجانب الايمان فى بلاد الشرق العربى قوى أيا كان الدين الذى يدين هؤلاء الشرقيون به . وقد كان الاسلام وما زال دين أهل هذا الشرق العربى إلا الأقلين منهم ، فلا يمكن أن يؤدى الادب رسالته اذا اهمل هذا الجانب القوى من جانب حياة الشرق العربى ، وإذا لم يحاول أن يصل ماضى هذا الشرق بمستقبله الصلة التى تستقيم والتفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى فى خاتمة هذا الكتاب عن الأدب والحضارة .

لم أغل إذن حين استقر رأيى على أن أتخذ « ثورة الأدب » عنوانا لهذا الكتاب . فالادب فى ثورة متصلة بالعمل منذ النصف القرن الأخير ، ثورة توازى الثورة السياسية المتصلة هى الاخرى فى مسيرها وتعانى من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعانى زميلتها . لكننى لا بد لى من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويراً كاملا . وأحسب دقة تصويرها ما دام اتصالها غير ممكن . وهو بعد ليس من عمل رجل مثلى لم ينقطع له وإنما ألم بما ألم به منه فى أوقات فراغه . وقد تكون الفصول التى اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة فى مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك فى عمل من الاعمال أن يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديراً دقيقاً على نحو ما يفعل الشهيد المراقب

وما دمت قد أشرت الى ما بين ثورة الأدب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازاة فلا مندوحة لى عن القول بأن عوامل السياسة التى حاولت صرف التيار السياسى فى نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة فى شأن الادب والكتابة . ولقد أشرت

فى هذا التقديم الى مابذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الادبية وحاولت من غير نجاح كبير افساد اتجاهها . وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا . ويكفى أن أذكر ما كان من سعى متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضى ، ومن إظهار هذا الماضى فى صورة زرية غير جديرة بالاعتداد بها أو باستلهامها . وقد وصفت فى الفصل الذى يلى هذا التقديم صورة مايصيب الادب فى عصور الطغيان . ولعل هذه الجهود كان يصحبها من التوفيق أكثر مما صحبهالو أن الحضارة الغربية بقى الايمان بها قويا كما كان ولو أن الادب الكبير عاون على بقاء هذه القوة . لكن ما أصاب الادب الغربى فى أعقاب الحرب مما وصفنا مضافة اليه نهضة مصر والشرق نهضة قوية جعل الجهود التى انفقت لاتؤتى ما أريد منها من ثمرات وإن جعلها تحول دون ثورة الادب والاستقرار الى ناحية تطمئن اليها .

وأكبر اعتقادى أن هذه الثورة ستظل متصلة زمناً طويلا . فنحن مانزال من بعد فى بدايتها . وحسن توجيهها بحاجة الى جهود شاقة جبارة والى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطبعوا الأدب بصورة تدعو الى استقراره . وهؤلاء الموهوبون وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم فى الشرق العربى كله إلا عدد قليل . وبناء صرح الادب على الصورة التى تدور فى نفوسنا ونرجو أن تراها اعيننا بحاجة الى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التى تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة هى الأخرى . فرجاء استقرار

ثورة الأدب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو وإن كنا نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن أختم هذا التقديم وأخلي بين القارىء وفصول الكتاب. ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير أن تمله أو تدعوه الى التثاؤب . ولعله اذا استطاع أن يتم قراءتها يرى أني لم أقم بمجهود عقيم حين فكرت في جمعها وتنسيقها ثم نفذت الفكرة وأظهرت الملأ على « ثورة الأدب »

الطغاة وحرية القلم

فى عصور الظلمة التى تمر بالامم آنا بعد آن يعمد الباطشون البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة ، وفى سبيل هذا التقييد يصلون أرباب الاقلام حربا لارحمة ولا هوادة فيها ، فمن إرهاق ، إلى سجن ، إلى نفى وتشريد . وهم فى حربهم هذه يندفعون ضد الكتاب كاشرة أنيابهم محمارة عيونهم مفتحة خياشيمهم ، أشبه الاشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية ، ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم خاطر إلا اذا اطمأنوا إلى أنهم حطموا هاته الاقلام الى غير عودة لان تكتب ، وأذلوا نفوس حملتها إذلالا لاقومة لهم من بعده .

هذه الغرائز المفترسة التى تهيج فى نفوس البغاة لحرب القلم وحملته ، لاتهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالغاً مابلغ أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر بها صاحبها مايجول بخاطره وما يمليه عليه خياله أو يتسق لمنطقه . وكل مايسطره القلم انما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس من شاء فيتلو مافيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها الى حيث شاء . والامر كذلك سواء كانت هذه الورقة جريدة أو مجلة أو كتابا من أى صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه

الورقة حولها من القوة التى يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذى يحشد ويسخر فى سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشانق وما هو أكبر من ذلك من ألوان الارهاب والارهاق ؟ وهل ترى انتصر الظالمون يوما على القلم وأربابه ؟ أم كان للقلم النصر أبداً آخر الامر وباء مطاردوه بالخيبة والخذلان وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكرى وأتعس الاثر ؟

أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم فى ذلك كل العذر . فحرية القلم هى المظهر الاسمى لحرية الانسان فى أسمى صورها ومظاهرها . وحرية القلم انما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لا عامل من عماله . رب تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والانشاء مالا سبيل اليه إلا فى جو من الحرية المطلقة وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقاً ولو وضع هو فى غيابات السجون ، بل تدفع ذكراه لخلق هذه الحرية اذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن مانزال نرى ثمرات الاقلام منذ آلاف السنين الماضية هى التى تهز العالم حتى اليوم هزاً وتنشىء فيه الى اليوم والى الابد ألوانا من الخلق جديدة . ذلك بان القلم هو الاداة لتصوير النفس الانسانية فى التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الانسانية التى تلتمس هذه النواحى المضيئة من حياة الكون هى أبداً نفس قوية لاتقف فى وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها ، نفس تحلق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذى تريد ايضاحه ، أو الحرية التى تريد نشرها ، أو الجمال الذى تعالج

تصويره ، أو الخير الذى تعمل لبثه وإذاعته . فاذا اهتدت الى ما ابتغت تفثت منه على القلم مايسطره على الورق ، وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محجوبا عنهم ضياؤه ، ويرون أن هذا الضياء هو الذى يبعث لهم فى الحياة نورا يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم ، واذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه ، فان لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً .

هذه القوة التى تنبعث من القلم على صحف الورق تنقلها الى الانسان هى أقوى وأبقى ماعلى الحياة من سلطان . هى قوة الايمان القائم بالنفس القوية متى امتلأت ايمانا فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هى هذه القوة الانسانية تصل بين الانسان وقوى الكون العليا وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكمن القوى المادية المضطربة التى يستند اليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى تكون هذه القوة المادية وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل مافى الحديد والنار من بأس وهول الى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ أزل الكون الى أبده . هذه القوة الروحية الكبيرة التى يصدر القلم عنها وتوحى هى اليه هى مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شىء فى الوجود . بل هى التى تشكل تلك القوة المادية التى تناوىء الروح وسلطانها لكى لايحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأى ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعا اذا تجردت مما يحول دون انبعاثها فى العالم ولم يقف عائق فى سبيلها فلم تبطىء فى سيرها !

وكما أن حرية القلم هى وحى هذه القوى العليا فان الطغيان منشؤه أخس غرائز الانسان وأكثرها أنانية وانحطاطا . فتش عن الطغاة فى التاريخ واستمع الى كل مايتشدقون به من الاقاويل والدعاوى وما يزعمونه من حبهم الخير لبنى الانسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ، تجدهم دائما ينتهون الى هذه النتيجة : انما نطغى ببنى الانسان لانهم من غير طغياننا يضلون. هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هى الكمينة أبداً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره . وهى عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التى يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا . والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا . والطاغية يرى المزيد فى انتشار العلم ضراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم أو يضلوا . والطاغية يعلم الناس كيف يفكرون وكيف يتكلمون فان هم خالفوا تعاليمه ضلوا . والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فان لم يصادرها ضلوا . والطاغية يستمد الوحى فى هذا كله من أحقر شهوات الانانية التى يفرضها على الناس ويريد منهم أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فان لم يؤمنوا ولم يصدقوا حقت عليهم كلمة العذاب ولهم سوء الدار .

هذا الضلال الذى يزعم الطاغية أنه يريد انقاذ الانسانية منه وهو انما يرديها فيه لشهواته وأنانيته ، قد تنوء به الانسانية زمناً يجثم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام فيمد للباغى فى أسباب بغيه ، وهو ناشب فى قلب الانسانية أظافره ما كثف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرق هذا الظلام شعاع من نور الحق.

وللطغاة فى تكثيف الظلام الذى ينشرون حولهم أساليب عجب . فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء اضدادها ليسخروا من الناس وليزيدوهم ظلما . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء ، وكل الغاية التى تكلف هاته الطائفة بها إنما هى نشر الترهات وترويج الاباطيل ومحاربة العلم الصحيح بدعوى أنه السحر أو الكفر او ماشاء لهم خيالهم المجرم . ويطلقون على طائفة اسم الكتاب ، وما هم بكتاب وانما هم منافقون متملقون لايعرفون غير المدح يكيلونه جزافا لسادتهم وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة الى الحق والى الحرية . هؤلاء ليسوا كتابا وانما هم كالكلاب تبصبص بذنبها لمن يلقى اليها بطعام أو بعظمة من العظام وتنبح من يطلقها عليه صاحبها لنبحه . وهؤلاء لن يكونوا كتابا ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أى اسم يتصل به ، لان الكاتب تصدر عباراته عن قلبه وعن ايمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة .

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتابا يخلقون ماشاءوا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء اضدادها ، وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام الذى يعيشون ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة . فاذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعا من النور يبدد منه فله الويل وله النكال وله عذاب السعير .

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التى يخلقها الطاغية ليعيش فيها أنك ترى كل ألوان التكريم والاعزاز فى عهده تذهب

الى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء والكتاب ومن اليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن ينالهم إكرام الجماعة فى حياتهم أن تمتد كرامتهم الى مابعد موتهم . أما هؤلاء فآخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم. فى ذلك اليوم ينهال التراب على صحيفتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لذويهم من بعدهم ألا يذكرهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس لهذه الحجة ماينقض حرفا منها .

واذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فان المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون فى عصور الطغيان هم على الانسانية بلاء دائم وشر مستطير ، يفسدون الآداب والاخلاق ويعلمون الناس الكذب والنفاق وينزلون بأدب الكتابة الى أحط درجاته ، وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه وان شاب الاعزاز احتقار ، ثم هم لن ينزل بهم حيف او ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والادب واللغة أى أذى . بل انك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الاكبار من بطانة الطاغية لانهم يعتقدون فى الزلفى اليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق .

على أن الظلم وإن تكاثفت والمظالم وإن اشتدت والطاغية وإن استبد ، كل ذلك كان دائما من أثره أن أثار شرارة الحرية والحق فهتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما تتراكم السحب حتى تحجب الشمس وتبعث على الارض من الظلمة ماتنقبض له النفس ثم اذا المطر يستنفد السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ماتلبث هذه الظلم المتكاثفة فى جو الطغيان أن تبعث الى نفس ملهمة كلمة الحق

ترتفع فى صيحة قوية خالصة ، فاذا الظلم تضطرب قوائمه واذا الطاغية يكفهر وجهه واذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقا على صاحب الصوت وعلى أنفسهم ، ثم اذا الصوت يعلو ويعلو ويرتفع ويرتفع ، واذا القلوب التى وجلت من قبل رعباً وخشية تتفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستبشرة ، ثم اذا هى تتبعه مؤمنة مقدسة ، ثم اذا النور نور الحرية والحق يعم الارجاء ، واذا الظلم والظالمون والطغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحى القيوم .

فى العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم . ليكن نصير الحرية والحق خطيباً أو كاتباً أو محدثا ، وليكن عالما أو أديباً أو داعية دينياً ، فهو يرسل بصيحته الضياء الى النفوس المشتاقة الى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة تنبعث حتى يتنبه الطغاة الى مصدرها ويقدرون خطرها . وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كى يخمد صوته ولا يمتد الى ظلماتهم التى خلقوا ضياؤه . لكنهم لم يستطيعوا فى حقب التاريخ جميعاً أن يخفتوا هذا الصوت وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى فى روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والارهاب التى كان ينشرها حكام ذلك العصر ويعلى فى الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق . وكان الحكم فى روسيا قائماً على الاستبداد المطلق ، مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد الى تولستوى ولا اجترأت على أن تغض منه ، لان ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى

من سلطان كل سلطان ،ولان الظلم الذى يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعانى يزيدها فى النفوس قوة وللظالمين مقتاً واحتقاراً .

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الامثال . وأرباب الاقلام الذين اضطهدوا فى عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الاسباب فى ارتفاع كلمتهم وذيوع صوتهم ومحبتهم وحسن استماع الناس لهم وشديد ايمانهم با رائهم . وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عذبوا فى سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم، فاذا جاءت الى الاذهان أسماء الآخرين يوما جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة . ذلك بأن الذين جاهدوا لخير الانسانية قد نسوا أنفسهم فى الانسانية فأحلتهم الانسانية مكان الكرامة والاعزاز من قلبها . فأما الطغاة والمستبدون فلا يذكرون إلا أنفسهم ولا يفكرون إلا فى أشخاصهم ويريدون بالانسانية جميعاً أن تكون مجيبة إياهم لما تمليه أنانيتهم ، فان هى لم تفعل أكرهت على ذلك إكراها واضطرت الى أن تخضع له ذليلة صاغرة . وقد تصغر الانسانية أحيانا أمام انسان ينزل بها كما ينزل الوباء أو كما يدمرها الزلزال . لكن هذا الوباء والزلزال عارض لا بقاء له ، فأما الانسانية فباقية خالدة .

وهى فى خلودها تتمثل خير تمثيل فى رب القلم . لذلك مقت الطغاة هذا الذى يمثل الانسانية ويدعو لحريتها وخيرها ويفتح أمامها باب الحق والجمال . ولذلك تكرم الانسانية هؤلاء الذين ينسون أنفسهم فى سبيل سعادتها وهدايتها ، وتنصرهم فى حياتهم وبعد

موتهم على الانانيين الذين يحسبون أنفسهم فوق الانسانية وفوق الحياة ، فتزدريهم الانسانية وتلفظهم الحياة .

ولعل الادب فى مختلف صوره خير ماتتجلى فيه مواهب أرباب القلم . حقاً إن الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين الحياة بحاجة الى رب قلم قدير يدفع تفكيره وتدفع ملاحظاته اليها قوة تكفل دوام تقدمها، لدوام حياتها . لكن الادب بمعناه الواسع هو رحيق هذه جميعاً . هو رحيق الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين المعرفة الانسانية . والاديب الجدير حقا باسم الاديب هو الذى يستصفى هذا الرحيق بسمو عبقريته وقوة نبوغه. هو الذى ينبت من حقول العلم والفلسفة وما اليهما زهور الادب والذى يستخلص من مناجم التشريع ويستلهم من سماوات الفلك هذا النور الانسانى الذى سارت وما تزال الانسانية ولن تزال تسير على هداه متوجهة نحو كمال الحق وكمال الخير وكمال الجمال . وهذا التوجه نحو الكمال هو الذى يرج قلوب العتاة والطغاة وهو الذى يجعلهم يحاربون حرية القلم مااستطاعوا . فهم يؤمنون بأنه لا نور ولا زهر ولا نبوغ ولا عبقرية اذا لم تكن هذه الحرية . لكن حربهم لها كانت دائماً حافزاً إياها على القيام برسالتها العليا وإن لقى أصحابها فى سبيل إقرار هذه الرسالة مالقوا من ظلم سائغ وعسف مستطاب . ولذلك كان النصر أبداً لرسالة الادب ، وكان الفوز الاخير دائماً لحرية القلم .

ثقافة الاديب

هل الادب العربي قديمه وحديثه يكفي وحده لتكوين الاديب ؟!
هذا سؤال طرح وكان موضع بحث ومناظرة. ويجب قبل الجواب عليه أن نطرح سؤالا آخر وأن نجيب عليه . فما الادب ومن الاديب ؟ واذا نحن وفقنا الى الاجابة على هذا السؤال واتفق رأينا عليه لم يبق لخلاف ولا مناظرة محل

وعندى أن الادب فن جميل ، غايته تبليغ الناس رسالة ما فى الحياة والوجود من حق وجميل بواسطة الكلام . والاديب هو الذى يؤدى هذه الرسالة . فكل ما ينتجه فن الادب الصحيح فى أية لغة من اللغات لا غاية له غير هذه الغاية ، وكل أديب يكتب فى أى باب من الابواب إنما يريد بلوغها كلها أو بلوغ جانب منها. والادب العربى لا يخرج عن أدب سائر اللغات فى هذا التعريف .

ماهى وسائل عرفان ما فى الحياة من حق وجميل ؟ ما نحسب هذا محلا لاثارة أى خلاف . فوسائل هذا العرفان العلم والفلسفة . العلم هو الوسيلة الاولى والاساسية والمستغنية بذاتها عن غيرها . والفلسفة هى الوسيلة الثانية المعتمدة على العلم لبناء مذاهب إدراك الحياة والوجود وما فيهما من حق وجميل . كذلك كانت الفلسفة وكان العلم فى كل العصور . وكذلك كان العلم وكانت الفلسفة عند العرب ، كما هى عند سائر الامم .

الادب من الفلسفة ومن العلم كالزهرة الجميلة وكالثمرة الناضجة وكالخضرة النضرة من الشجرة الضخمة شجرة الفلسفة ،ومن الجذور التى نبتت عليها هذه الشجرة والتى هى بمثابة العلم من الفلسفة . فلكى تكون حديقة الادب جميلة ، ولكى يكشف الاديب للناس عما فى الحياة من حق وجميل وليؤدى الرسالة العظيمة الملقاة على أدباء العصور جميعاً ، يجب أن يتغذى مااستطاع من ورد الفلسفة ومن ورد العلم . وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردين كان أقدر على أداء الرسالة وكان أديباً حقاً .

ولهذا كان العرب يقولون : ان الادب هو الاخذ من كل شىء بطرف . وكانوا إذ يذكرون العلوم الواجب على الاديب الوقوف عليها لايقتصرون على ذكر علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة والفصاحة ، بل كانوا يضيفون اليها علوما كثيرة من سير العرب وأخبارهم ، أى من التاريخ ، ومن مواقع بلاد العرب أى من الجغرافيا ، وهلم جرا .

فن هذه غايته وذاك مداه يتسع لصور لاتتسع لها الفلسفة ولا يتسع لها العلم بمعناه الضيق . ففى الحياة وفى الوجود من صور الحق وألوان الجمال الشىء الكثير . وقل أن تيسر الاجيال للانسانية الرسول القوى الصادق الذى يستطيع خلال السنوات القصيرة التى يحيى الانسان ، وإن امتد به العمر، أن يبلغ لهذه الانسانية رسالة الحق والجمال كاملة . لذلك كان الادباء الخليقون حقاً بهذا الاسم هم الملهمون الفحول الذين يطبع اسم كل منهم عصراً فى تاريخ الانسانية ويبقى فلذة خالدة برغم موت صاحبها من هذا التراث العظيم الذى تتوارثه

الانسانية جيلا بعد جيل. هؤلاء الادباء انما يبلغون الانسانية رحيق الفلسفة والعلم جميعا على نحو ما تمثلت نفوسهم الفلسفة والعلم . وكلما انحدرت بعد ذلك لتطلع على ما خلف الادباء العظام، فالادباء الكبار، فالادباء، فالمتأدبون، رأيت ضياء الحق والجمال يخبو رويداً رويدا حتى يصل الى الاديب أو المتأدب الزائف الذى لا حياة ولا نور فيما يكتب، إذ ليس فيما يكتب حق ولا جميل، وانما هى ألفاظ مرصوفة لا يقصد بها الى معنى خاص شأنها شأن تلك البذلة التى توضع فى فترينة التاجر على مثال خشبي سوى وجهه بالالوان ـ لا يقصد بهذه البذلة الى الاستعانة على الحياة ولكن يقصد منها الى عرضها بضاعة فى انتظار أن يتناولها من يستطيع أن يستعين بها على الحياة ، وأن يبعث اليها شيئا من هذه الحياة .

كتب فيشته الفيلسوف الالمانى المعروف عن طبيعة الكاتب ورسالته فقال : انه انما بعث ليقف على مايستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة ليرى هذه الحقيقة بنفسه ثم ليرينا إياها « وفى كل جيل جديد تتجلى هذه الحقيقة العليا فى لهجة من لهجات الكلام جديدة ، ورسالة الكاتب هى الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذى يبعث فيه » . ويشتد فيشته حين يقصد الى التمييز بين الكاتب الاصيل، أو الكاتب البطل ، كما يسميه كارليل، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الابطال . « فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمتع ما طاب له المتاع بنعيم الدنيا، لكنه لن يكون لذلك كاتباً وانما هو فاك مزور لا قدر ولا مقام له »

والحقيقة التى يذكرها فيشته، والحق والجمال اللذين نراها غاية

الادب كفن جميل ، ينكشف للناس من صورها فى كل جيل مالم يكن معروفا فى الجيل الذى سبقه ، أو مايختلف عما كان معروفا فى الجيل الذى سبقه . وعلى ذلك كان الخلاف فى صور أدب الاجيال المختلفة فى اللغة الواحدة ، وصور أدب الجيل الواحد فى اللغات المختلفة ، ولذلك لا مفر لمن يريد أن يكون أديباً حقا ، أديباً أصيلا غير زائف ، من أن يقف على آداب لغته هو وقوفا صحيحا ، وأن يحيط ماإستطاع بعلوم عصره وفلسفته وآدابه فى اللغات المختلفة . وكلما كان أكثر إحاطة كان أدنى الى بلوغ مافى الحياة والوجود من حق وجميل ، والى تبليغه للناس فى صورة أقرب للكمال ممن أوتى مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه .

هذه كلها أوليات ماأحسب لخلاف فيها محلا . وهى تنطبق على الادب العربى فى عصوره المختلفة وتدل على أن أدب أية لغة من اللغات قديمه وحديثه لايكفى وحده لثقافة الاديب ، وعلى أن ذلك أصدق فى عصرنا الحاضر الذى قربت فيه المواصلات بين أمم الارض منه فى العصور السابقة ، وانه أصدق بالتطبيق على الادب العربى قديمه وحديثه منه على آداب الامم التى لم يصبها ما أصاب الامم العربية من تحكم فيها واستبداد بها أوقفا سيرالعلم والفلسفة العربيةسيراً كان يجعلنا من علم الامم الاخرى وفلسفتها فى موقف تعاون وتنافس ، لا فى موقف تعلم ومحاكاة .

والآن فلنطبق هذه الاوليات على الادب العربى نفسه فى مختلف عصوره : —

فهل كان الادب العربى فى عصوره الاولى مستقلا عن الآداب

المجاورة له والمتنافسة معه ، وأجلها خطراً أدب الفرس والرومان واليونان ؟

يضيق المقام اذا أردنا أن نستقصى ماأفاد العرب، وبخاصةمنذ ظهور الاسلام، من علوم وآداب كانت للبلاد التى اقتحموهافاعتنق أهلها الاسلام . لكن أحداً لايستطيع أن ينكر أنهم فى عصور ازدهار الحضارة الاسلامية أيام الامويين والعباسيين كانوا مجدين أعظم الجد فى نقل علوم الفرس واليونان والرومان وآدابهم من تلك اللغات الى اللغة العربية ، وان أكبر الكتاب كابن المقفع والجاحظ كانوا متأثرين بهذه الآداب تأثراً ظاهراً ، وكانوا يعرفون هذه اللغات، أو بعضها، معرفة صحيحة . بل إن ابن المقفع نفسه كان فارسياً ككثير من فحول الادب العربى أمثال الهمذانى والزمخشرى . والجاحظ مشكوك فى عربيته وإن تك معرفته للفارسية ليست محل ريبة لما جاء عنها فى كتابه البيان والتبيين . وكثير من كتب الفلسفة اليونانية نقل فى عصر العباسيين الى اللغة العربية وتأثر علماء العرب وأدبائهم وكتابهم بهذه الفلسفة تأثراً واضحاً . ولو أنك رجعت الى المذاهب المختلفة فى التصوف والاعتزال وغيرها لرأيت كثيراً منها يرجع الى مذاهب كانت معروفة من قبل فى الفرس، والى مذاهب كانت معروفة من قبل فى اليونان . وكان من أثر هذا النقل للكتب أن حدثت فى الادب العربى ، شعراً ونثراً ، صور لم تكن معروفة من قبل وأن اتسع أفق هذا الادب العربى سعة لاعهد للمتقدمين بها . بل لقد تناول التطور ، الذى نشأ عن اختلاط العرب بهذه الامم وبأمم شمال أفريقيا وبالاندلس وصقلية ، أساليب النثر والشعر

فاستحدثت الموشحات الاندلسية واستحدث فى النثر شئ كثير وزادت بذلك ثروة اللغة العربية فى ألفاظها وفى علومها وفى فلسفتها وفى أدبها زيادة هي فى تاريخ هذه اللغة فخر نفاخر نحن به حتى اليوم .

حدث بعد هذه النهضة الكبرى أن تغلب الترك على غيرهم من الامم الاسلامية وأن تقلص ظل الحضارة الاسلامية عن الاندلس، وان استقل الفرس ، وأن خمدت هذه الجذوة المقدسة من ضياء الحق والجمال مما كان ينير آفاق العالم الاسلامى فى شئون اللغة العربية. وفى هذه القرون الخمسة الاخيرة وقف اتصال اللغة العربية والعلوم والفلسفة والآداب العربية بغيرها من اللغات ، لأن حياة الامم العربية وخضوعها للترك قضى بوقوف هذا الاتصال . وفى هذه القرون الخمسة الاخيرة كانت نهضة الغرب فى العلم والفلسفة والادب ، وكان أن استحدث الغربيون من ذلك الشئ الكثير وأدخلوا على آدابهم من ألوانه مالم يتطلع أهل هذه الامم العربية الخاضعة للنير التركى الى الاتصال به . فتدهور التفكير العربى وصار الادب العربى القديم هو وحده الاثر الخالد لهذه الحضارة الاسلامية العظيمة التى سار العالم فى ضوئها وعلى هداها عدة قرون. ولولا ما فى اللغة العربية لذاتها من قوة قدسها القرآن الكريم وزادها جلالا وإعجازاً ، ولولا ما اكتسبت الحضارة الاسلامية من ثروة لم تنفد ولا سبيل الى نفادها، إذن لرأيت اللغة العربية وقد أصابها ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والاشورية والهيروغليفية ولأصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم وحياته، لغة ندرسها للعلم بعصر من عصور التاريخ الانسانى وكفى .

لكن قوة اللغة العربية وثروة أدبها التي تكونت منذ الاسلام وعظمة الحضارة الاسلامية قاومت أحداث الدهر ودفعت عن اللغة هذا المصاب حتى دار التاريخ دورته وآن للغة العربية أن تنهض نهضتها من جديد. وكان طبيعياً أن تبدأ النهضة بنشر اللغة واحياء آدابها القديمة وتعليم الناس أصول التعبير بها ليمكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها قوية ، وأن يكون فن الأدب العربى بحيث يحيط بالحياة والوجود وما فيهما من حق وجمال، وحتى تبعث الاقدار الأديب العربى الذى يؤدى لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الادب . ويرجع الفضل فى هذه الخطوة الاولى لشيوخ الازهر بمعونة من أرسلهم المغفور له محمد على باشا الى أوربا للاتصال بموارد العلم فيها، ولرجال مدرسة دار العلوم التى أنشأها على باشا مبارك منذ اكثر من نصف قرن للقيام ببعث اللغة العربية بعثاً جديدا . على أن اللغة ما كادت تبعث وما كاد الكاتبون بها يشعرون بالحاجة الى انتشار فنون آدابها حتى رأوا الى جانب الفنون القديمة فنونا فى الادب جديدة، أحدثها بعث الغرب فى القرون الثلاثة الاخيرة، لم تكن معروفة عند العرب ولا غير العرب من قبل، ورأوا ان هذه الفنون الجديدة من الأدب تستند الى فلسفة جديدة فى تصويرها هى الأخرى ، والى علوم اتسعت دائرتها وعظم نطاقها، وأن لا بد إذن من الاتصال بالعلم والفلسفة فى آخر صورها ليكون الأدب العربى مؤديا الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغات، غاية تبليغ الانسانية مافى الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذى تعيش الانسانية فيه .

وتجلت هذه الرغبة عند المتخرجين من الازهر وعند رجال دار

العلوم بقوة لاتقل عما تجلت به عند غير هؤلاء من المشتغلين بالأدب العربى والمتصلين فى نفس الوقت بآداب اللغات الاخرى. وظهر ذلك فى حرص الاولين ، وهم ذوو الفضل فى الخطوة الأولى من خطى بعث اللغة والآداب العربية القديمة، على الوقوف على اللغات الاوربية وتعلمها ، وفى حرصهم على نقل ألفاظ هذه اللغات الغربية وآدابها الى اللغة العربية فى صورة عربية صحيحة . وأمامى من الامثال على ذلك كثير . فأساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربية كلهم جميعاً من ناشئة الازهر أو دار العلوم أو القضاء الشرعى ، وكلهم جميعاً قد شعروا بالحاجة ، بعد اتقانهم اللغة العربية، الى دراسة لغات أخرى ودراسة آداب أخرى سواء منها ماترجم الى العربية ، وما استطاعوا استيعابه بلغة غيرها . وهؤلاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الاساتذة : أحمد امين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام هم جميعاً من أبناء هذه المدرسة ـ الازهر ـ وهم اليوم جميعاً من الذين شعروا بالحاجة الماسة للاتصال بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها ليكونوا لانفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال .

مثل آخر أضربه هم هؤلاء المشايخ الذين بدأوا يكتبون فى الادب الحديث مكتفين بمطالعاتهم فى الآداب العربية ، ثم اذا بهم لم يجدوا منصرفا عن دفع أنفسهم إياهم لورد آداب اللغات الأخرى. فالمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى بدأ يكتب النظرات والعبرات متأثراً الى حد ما بما ترجم من القصص الغربى وان جاهد ليظل فى كنف

الأدب العربى القديم . لكنه مافتئ أن اندفع الى الاستعانة بالادب الغربى فاستعان بمن يعرف هذا الادب ويدله على مافيه من صور الجمال ، ثم اذا به ينشر على الناس كتبه ماجدولين وفى سبيل التاج وغيرهما . والاستاذ الزيات وغير الاستاذ الزيات من الكتاب الذين نهلوا أول حياتهم ورد الادب العربى القديم خالصاً سائغاً لم يستطيعوا الاستغناء عن الوقوف على ما أحدثه العصر الأخير من صور الادب ولم يجدوا الوسيلة الى ذلك الا عن طريق الادب الغربى وما استصفى من العلم والفلسفة المتحكمين فى عصرنا الحاضر .

وهذا طبيعى بعد الذى كان من تقدم العلم وتطور المذاهب الفلسفية، وبعد الذى كان من إبداع صور الادب الجديدة فى الغرب . ويطول المقام اذا أردنا تتبع هذه التطورات العلمية والفلسفية والادبية فى القرن الاخير، بله فى القرون الثلاثة التى سبقته . ومن هذه الصور مالم يكن له وجود قط فى الآداب العربية، ومنها ما كان له وجود تافه لاغناء لنا اليوم فيه . ونكتفى بالاشارة من صور الادب هذه الى القصص والروايات المسرحية . فهذان النوعان لم يكونا معروفين بصورتهما الحاضرة عند العرب ، مع انهما اليوم يتناولان من بسط حقائق العلوم والمذاهب الفلسفية ما يجعلها فى متناول القراء جميعاً ، ويجعلها كذلك فى صورة فنية بالغة غاية الجمال . فهل يتسنى لنا اذا نحن اكتفينا بالادب العربى القديم، أن نبدع فى هذه الانواع مثلما أبدع الغرب فنقرب بذلك العلم والفلسفة وما يحويان من حق وجمال الى نفوس قراء العربية فنؤدى الرسالة الملقاة على عاتق كل كاتب جدير بهذا الاسم ؟

وليست القصص الطويلة والروايات المسرحية هي وحدها ما أبدع مما لم يكن العرب الاقدمون يقدرونه ، بل لقد أبدعت آداب اقتصادية كالآداب الاشتراكية والشيوعية وكآداب المذهب الحر والمذهب الفردى لاسبيل الى بسط شيء منها لقرائنا إلا اذا وقفنا على ما كتب باللغات الغربية عن المذاهب الاقتصادية من جهة وعلى آدابها من الجهة الاخرى . وأبدعت كذلك آداب علوم النفس والاجتماع وآداب الفنون الجميلة وغيرها مما لا نجد له مكانة فى الآداب العربية القديمة ومما لا بد لنا، اذا أردنا أن نقف الى جانب الامم الاخرى فيه، من الاطلاع على آداب الغرب وفلسفته وعلومه إطلاعا واسع النطاق .

وما نحسب أحداً لا يشعر بالحاجة الى هذا الاطلاع كما شعر أولئك الاساتذة الذين أشرنا اليهم وكما شعر غيرهم .فاذا اطلع انسان استطاع أن يؤدى رسالة الادب على وجه صحيح ، وكان لذلك أديباً أصيلا . أما الذين يقفون عند الاطلاع على الادب العربى فلن يستطيعوا مجاراة هـذا العصر مجاراة تمكنهم من القيام بالرسالة الكبرى الملقاة على عاتق الاديب ، وسيظل أدبهم أدب ألفاظ لا تحمـل فى طياتها سناء المعانى السامية ولا ضياء الحق وبهجة الجمال ، وسيظلون أطفالا فى الادب ، ربما يعجب البعض زخرف قولهم، لـكن هـذا الزخرف لن يعدو جماله أن يكون كجمال الدمية لاحياة فيها وإن أتقن صانعها رسم تقاطيعها .

وهذه الحاجة الى الاطلاع حاجة يشعر بها كل محب للحقيقة ليس معناها الانصراف عن الادب العربى قديمه وحديثه. فنحن بحاجة الى التضلع فى هذا الأدب لأنه هو الاساس الذى نبنى عليه ونريد أن

نبلغ به الكمال. ولاسبيل الى هذا الكمال إلاأن نفعل مايفعله غيرنا
من أهل الامم السابقة اليوم فى الحضارة . فانك ترى قاموس اللغة
الفرنسية أو الانكليزية أو الايطالية أو غير هذه من اللغات يعاد
النظر فيه كل عقد من السنين لتحرى معانى الكلمات ، وهل اتصل
بها جديد من المخترعات أو المكتشفات أوالآداب الحديثة، وللنظر
فى إضافة كلمات جديدة . وكثيرون يعرفون كم دخل فى اللغة وفى
الادب الفرنسيين من الالفاظ والعبارات الانكليزية فى هذا الزمن
الاخير . فكلمة جنتلمان وسبورت وغيرها قد أضيفت أخيراً الى
القاموس الفرنسى كما أضيف فى العصور القديمة الى اللغة العربية
كثير من الكلمات الفارسية كالورد والسلسبيل وغيرها . وما دام
هذا فى طبيعة اللغات وآدابها فلا معدى لنا عن أن نأخذ به ونحذو
حذوه اذا أردنا باللغة ازدياداً فى القوة وبالادب تحقيقا صحيحاً
لرسالة الادب .

قد يقال ان الادب العربى الحديث يكفى لسد هذا النقص الذى
أشرت اليه بما استحدث من صور الادب الغربى التى أبدعت فى
العصور الاخيرة . وكم كنت أود أن يكون هذا صحيحا . فهو لو صح
لكان سبباً لفخر كثيرين من اصدقائى الذين أعزهم. ولكنى واصدقائى
هؤلاء نشعر بأن فى ذلك غروراً لا يليق بالاديب . فما استحدث فى
الادب العربى ليس إلا محاولات لسد بعض الفراغ فى تلك الهوة التى
تفصل عصرنا عن عصور أدب العرب الزاهر . وهى محاولات شعر
أصدقائى وشعرت بنقصها منذ زمان طويل. فانى لأذكر أن مطالعاتى
العربية التى تناولت من كتب الادب العربى القديم الشىء الكثير قد

أقنعتنى منذ عشرين سنة ماضية ، وكنت ماأزال طالبابالحقوق، بأن أدب اللفظ وحده لا يمكن أن يبلغ بالانسان الى أكثر من طفولة الادب فى هذا العصر الذى نعيش فيه، فأكببت يومئذ على دراسات فى الكتب الانكليزية فتحت أمامى آفاقا جديدة غير مامهدت له دراساتى . فلما سافرت الى فرنسا بعد نيل اجازة الليسانس ودرست الفرنسية أكببت على آدابها فى نواحيها المختلفة ، فاذا آفاق جديدة تتفتح واذا بى أطل على صور من الحق والجمال لم اكن أتوهمها من قبل. وكيف يمكن أن يكتب الانسان عن الفنون الجميلة كالحفر والموسيقى والرسم وقد عفت آثار الموسيقى العربية وقد كان العرب ينكرون صناعة التماثيل وينكرون التصوير والرسم! فاذا هو قرأ عن الفنون الجميلة شيئاً من ألوف الكتب التى ألفت فيها استطاع أن يفهم من جمال الحياة مالم يكن له الى إدراكه سبيل من قبل. وكذلك الامر فى غير الفنون الجميلة من العلوم والفلسفة الحديثة جميعا .

والى أن ننقل هذه العلوم وهذه الفلسفة الى اللغة العربية، والى أن تكون لنا مذاهب فى العلم والفلسفة والأدب تقف الى جانب مذاهب الغرب ، الى ذلك اليوم لا يمكن أن تكفى الآداب العربية، قديمها وحديثها لثقافة الأديب . أما فى ذلك اليوم فسيشعر أدباء العربية أنفسهم، بدافع المنافسة وحب السبق فى الوصول الى الحق والجمال، انهم لا يقلون عنا اليوم حاجة الى الاطلاع على كل مايظهر فى عالم العلم والفلسفة والادب من جديد .

وستزداد هذه الحاجة كلما يسرت المواصلات اتصال أمم العالم. فلئن أمكن أن يتوهم الانسان مجرد توهم امكان استقلال حى من الاحياء،

سواء أكان هذا الحى أمة أم فردا، عن غيره من الاحياء فى شؤونه المادية أو العقلية أو النفسية، فان مجرد هذا التوهم اليوم مستحيل لكثرة الاتصال بين أمم العالم بعضها والبعض الآخر، وهو سيزداد كل يوم إمعانا فى الاستحالة . وسيرى الادباء يومئذ أن الشاعر أو الكاتب الذى يريد أن يخطو بالادب العربى الى مراتب الكمال الفنى مضطر لا بد إلى الاطلاع على اكثر مما اطلع عليه أدباء جيلنا الحاضر جميعاً اذا هو كان جديراً حقا باسم الكاتب أو الشاعر حريصاً حقا على أداء رسالة الادب السامية بالكشف للناس من طريق اللغة عما فى الحياة من حق وجمال و بالتمهيد بذلك لبلوغ درجات الكمال .

اللغة والأدب

حضرت يوما مجلساً ضم جماعة من كبراء مصر بينهم فحول من الشعراء وكبار من الكتاب وأساتذة من المشايخ الضليعين فى اللغة. وفيما ينتقل الحديث من موضوع لموضوع سأل أحـد الحاضرين شيخاً لغوياً : أى الشعرين يفضل : الشعر القديم الذى اتخذ عنوانا له « قفا نبك »، أم الشعر الحديث وعنوانه «حف كأسها الحبب» ؟ فكان جواب الشيخ على الفور : إنى لأفضل الشعر الحـديث فهو أعذب مدخلا الى النفس ، فأما الشعر القديم فحاجتنا اليه للغة أكثر من حاجتنا اليه للأدب .

وأثار هذا الحديث جدلا هادئا لم يطل أمده ولا يستوقف منه النظر شيء خاص فى البحث الذى أريد أن أعرض الآن له . وإنما استوقفت نظرى هـذه التفرقة الجميلة الدقيقة بين اللغة والأدب . فنحن بحاجة للوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصـدر الأول للاسلام ، وعلى كل أدب سبق عصرنا، لتبقى حيـاة اللغة متصلة على العصور ولنجد فى هذا الأدب القديم من تاريخ اللغة وأدبها وصور تطورها مالا غنى لنا عنه اذا أردنا أن تظل اللغة حين تنقلها على الأجيال قوية رصينة بعيـدة عن أن يندس اليها عامل من عوامل الاضطراب والضعف . فأما الأدب من حيث هو رحيق الحياة العقلية

والفنية وما تنطوى عليه من مختلف الصور والالوان، فتابع فى تطوره الى العصر الذى يعيش فيه غير مضطر أن يتصل بالقديم النائى عنه بأكثر من صلة الوراثة ومن صلة اللغة . واللغة فى الأدب ليست إلا الكساء الظاهر لهذا الرحيق الذى يعبر الأدب عنه. فأما قوام الأدب ففى الروح الذى يلهم مافيه من معان وصور وعواطف واحساس . لهذا تراك اذا عرفت لغات عدة فقرأت فيها صوراً مختلفة من الأدب لم يكن اللفظ هو الذى يقفك عنده ، بل كان مايدل هـذا اللفظ عليه وما يعـبر عنه . واذا كان اللفظ لذاته ذا قيمة فى الأدب من حيث موسيقاه وما تهز هـذه الموسيقى النفس وما تعد العواطف لاجتلاء المعانى التى ينطوى عليها ، فلن يسمو هذا اللفظ بالغاً مابلغ رنينه ورصانته بمعنى غير سام وإن أمكن أن ينزل اللفظ المبتذل والناشز الرنين بالمعنى السامى أو الصورة الجميلة ، أو يترك على الأقل من سوء الأثر فى النفس مايجعلها تأسى وتأسف أن لا يكسو المعنى الجميـل لفظ جميل .

أنت إذن بحاجة الى اتقان دراسة اللغة وتاريخهـا فى المعاجم وفى كتب الأدب اذا أردت أن تكون لغويا وكفى، كما أنك بحاجة الى هذه الدراسة اذا كنت ممن وهبوا هبـة الأدب . فكلما زادت ثروتك من الالفاظ ومن أساليب استعمالها وما يمكن أن تعبر عنه من مختلف المعانى لذاتها أو مضافة الى ألفاظ غيرها ، ازددت أنت قدرة على اختيار اللفظ الذى يصلح للتعبير عن قصدك تعبيراً دقيقا وموسيقياً معاً . وهذا هو الذى يدعو فى الأمم الغربية المستمدة لغاتها من اللاتينية واليونانيـة الى تدريس هاتين اللغتين للنشء .

فليس جمال هـذه اللغات القديمة الميتة هو الذى يقصد لذاته أولا وبالذات . كلا ! وانما يقصد من دراستها الى دقة إدراك المعانى التى تعبر عنها الالفاظ المشتقة منها . ومهما تكن آداب اليونان والرومان قد أمدت البعث الأدبى فى أوربا أبان القرن السادس عشر بصورها وموضوعاتها ، فانما كان ذلك لتحكم الآداب الدينية فى العصور التى سبقت عصر البعث ذاك واحتياج الناس فيه الى وحى جديد . ولم يكن يومئذ خير من هـذه الآداب القديمة مهبطا للوحى ومحلا لالهام شكسبير وراسين ودانت وغيرهم من الذين قام هـذا البعث بسبب نبوغهم . لـكن هذه التابعية أو هذا الرق للأدب القديم لم يدم طويلا . وفى القرن السابع عشر نفسه قام كتاب وشعراء أمثال موليير ولابروبير نزعوا غير نزعة العصر وأنشأوا أدبا مستقلا عن أدب اليونان والرومان، وأن حذقوا اللغتين اللاتينية واليونانية خير حذق، ليحيطوا بلغتهم الفرنسية إحاطة كاملة دقيقة. وما كاد القرن الثامن عشر يتنفس فجره حتى تنفس عن فولتـير وروسو وديدرو وغيرهم من الـكتاب الذين نزعوا أثواب أثينا وروما وارتدوا ثوب عصرهم ، وطوعوا للأدب الغربى أن يستقل بنفسه عن الادب القديم ، ومع هذا الاستقلال التام فى أدب الغرب فما تزال اليونانية واللاتينية تدرسان لغة وأدبا لتبقى حياة اللغات المشتقة منهما متصلة على العصور حتى لا يندس اليها عامل من عوامل الفساد والضعف. ولئن كانت لغتنا اليوم وستبقى أبداً هى اللغة العربية ، وكانت دراستنا إياها أجدى علينا وأحفظ لـكياننا، فان كثيراً من ألفاظ هذه اللغة العربية قد أصبح بائداً أو فى حكم البائد، لأن أطوار الحياة التى مرت بالأمم التى أصبحت العربية

لغتها جعلت هذه الالفاظ القديمة غير صالحة لأداء المعانى التى تداولتها عصور فجر الاسلام والأمويين والعباسيين والفاطميين والاندلسيين وغيرهم ممن تطورت حضارة العالم بعملهم تطوراً عظيما . مع هـذا فدراسة تلك الالفاظ البائدة نفسها تفيد من جهة لغوية بحتة. وقد تفيد الأديب فى دقة تحديد المعانى التى تعـبر عنها ألفاظ أخرى مشتقة منها أو كانت بينها وبينها فى بعض العصور صلة لغوية من أى نوع من الانواع .

على أن دراسة اللغة هذه لاتتصل بالأدب لذاته إلا من حيث كساء الأدب على نحو ماقدمنا وبمقدار حاجة الأدب لهذا الـكساء. صحيح ان الـكساء كان له فى بعض الازمان المقام الاول. وما تزال طبقات الناس الى وقتنا الحاضر تتميز بأرديتها . وصحيح كذلك أن اللغة ، ككساء للأدب ، كانت فى بعض الازمان صاحبة المقام الاول فيه عند الاكثرين ، وانها ماتزال ذات أثر لا سبيل الى انكاره . لـكن صلتها بالأدب من هـذه الناحية تتطور تطور صلة الازياء بأقدار الناس فى الحياة . وصلة الازياء بالاقدار تتلاشى رويداً رويدا بما تنزع طبقات الجماعة كلها نحوه من البساطة فى اللباس بساطة يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب، حتى لنرى اكثرها أخذاً بالنظر أشدها قيمة عن الحياة ودقائقها . كذلك تطورت لغة الادب فصار أجدرها بالامتزاج بالادب ما كان شفافا عن المعـانى والصور التى يعبر عنها معوانا على زيادة مافى هـذه الصور والمعانى من حيـاة وموسيقى . هـذه اللغة الشفافة المضيئة السيالة التى لا تحجب عنك جمالا مما أراد الأديب الموهوب اظهاره ولا تقف فى سبيل متابعتك

الأديب أثناء تدفقه واندفاعه فى تفكيره أو تصويره أو تغنيه وشدوه ، هى التى تعتبر للأدب كساء وتتصل بالأدب فى كسائها إياه حتى لتصبح جزءاً من رحيق الحياة الذى يعبر الادب عنه . وهى كلما لطفت وازدادت بساطة وشفت بذلك عن كل ما أراد لاديب أن يحملها إياه وكانت فى ذلك النغمات الصادرة عن نفس الأديب الصادقة العبارة عنه ، كانت ألصق بالادب فى العصر الذى يصدر هذا الادب عنه .

الوصول باللغة الى هذه المكانة ليس بالأمر اليسير . بل هو يحتاج الى جهاد الادباء جهاداً عنيفا شاقا يتناول كل نواحى الحياة ويتناول كل ناحية منها فى مختلف صورها . وأدباء عصرنا الحاضر لايجدون من أدوات هذا الجهاد فى الأدب القديم إلا ماقدمنا من ضبط اللغة ، وإلا نظرات عامة للحياة قد تبلغ غاية الجمال ولكنها لاتغنى كثيراً فى عصرنا الحاضر . والواقع أن الأدب القديم كالازياء القديمة كان يعتمد على ثروة اللفظ وصور البديع فيه كما تعتمد الازياء القديمة على نفاسة القماش وكثرة حواشيه. وأنت اذا ذهبت اليوم الى مسرح من المسارح تمثل فيه قصة من قصص العصور الماضية ويظهر فيها الممثلون بأزياء تلك العصور ، إذن لرأيت على المسرح أكواماً من أقمشة غالية تحيط بها أشرطة ودنتلات وغيرها من أسباب الزينة ، ولرأيت فوق ذلك شعوراً صناعية مزينة هى الأخرى ، ورأيت دونه أحذية تكاد لكثرة مايرصعها من الاحجار الثمينة تنكر أنها أحذية. وهذا كله يذهب ويجىء على المسرح ويطل من خلاله وجه سيدة أو رجل هو وحده الذى يدلك على ان هذه الكومة النفيسة تحتوى فى أعماق داخلها حياة انسانية

هذا الوجه مظهرها ... ماصورة هذه الحياة؟ ماحقيقتها ؟ أجميلة هي أم قبيحة ؟ أجذابة هي أم ثقيلة؟ أنت لاتستطيع أن تحكم ، لأن اللباس وحده هو المتحرك أمامك، ولان الوجه الذى عرفت منه أن ماترى انسان ، وأنه رجل أو امرأة ، قد كسى هو الآخر بأصباغ وألوان أخفت معالمه ونكرت معارفه، ولأن التحيات والعبارات والافكار لاتصدر عن أصحابها وانما هي صيغ حفظوها من صغرهم وخضعوا فيها لبيئتهم فحياتهم ليست لذلك حياتهم، وانما هم صور متحركة مختفية خلال نفائس الاقمشة وألوان الزينة مما ترى وما قد يفيدك كثيراً أو قليلا عن حياة ذلك العصر ولباسه . لكنه لا يفيدك شيئا عن الشخصية الانسانية التى يصدر عنها الفن والأدب ، والقديرة وحدها على استخلاص مافى الحياة من رحيق هو إكسير مافى الحياة من جمال .

قارن بين هذا الذى رأيت على المسرح ممثلا عصراً مضى وبين أزياء الحياة الحاضرة ومختلف مظاهرها ، تجد البون شاسعاً . فالحضارة الانسانية اليوم تنزع الى البساطة والى الصحة والى حكم الانسان حياة الوجود بكل ما تمكنه قواه ومواهبه ، والى ظهور الذاتية الانسانية خلال ذلك كله ظهوراً قويا واضحاً . فلم يبق شخص الانسان كومة من النسيج النفيس تزينها الاشرطة والدنتلات وتحملها الاحذية المرصعة وتكسو أعلاها شعور مستعارة وتطل من خلالها صورة وجه انسانى مختف تحت الاصباغ والألوان، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الانسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها، وصارت الحياة الانسانية كذلك هى موضع الجمال بذاتها وليس موضع الجمال هو اللباس الذى يكسوها . وبمقدار

مايعبر الزى عن الحياة يكون أشد للنظر استرعاء وأقوى عن جمال الحياة تعبيراً . وكبساطة النـاس فى اللباس بساطتهم فى الطعام . لم تبق الالوان الـكثيرة الشديدة الدسامة محل اللذة والرغبة، بل صارت الألوان التى تلائم الصحة وتتفق معها وتعاون عليها هى التى تميل الناس الى اتقان صنعها لتجمع لهم بين حسن الغذاء ولذته . كذلك أصبح الترف ذاته ينزع الى البساطة والصحة . وإذن فالحياة الانسانية قد صارت من الزى والطعام والترف كما أصبحت من مظاهرها العقلية والفنية تريد أن تكون هى الظاهرة القوية لا يخفيها اللباس بل ينم عنها ولا يتخمها الطعام بل يقويها ولا تغص بالترف بل تنعم به . كذلك نريد ألا يثقل اللفظ على روح الأديب وألا تجمد التقاليد ريشة الفنان وأن تصبح الذاتية الانسانية حرة متوثبة دائمة الابداع دائمة السعى فى ابداعها الى التحكم فى كل ما فى الكون وجعله بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس متاعا أساسه البساطة والصحة .

ولقد عاون العلم ، وما يزال يعاون ، على توجيه الحياة فى هذا السبيل بما ربط بين أجزاء العالم وما أخضع من قواه لحكم الانسان وما افسح لذلك من ميادين متاعه . فالتلغراف والطيران والراديو والفونوغراف وما اليها من جديد المخترعات قد جمعت العالم فى قبضة يد الفرد وقربت بين أجزائه تقريبا لم يكن يحلم به أسلافنا . أتراك تستمع الى أصوات الخطباء والمغنين وألحان الموسيقى ممن سبقونا ، وتسمع وأنت فى مقعدك الى ما يجرى فى مختلف أنحاء العالم ، وتصل فى ساعات الى ما كان يقتضى من قبلنا أسابيع أو شهورا ، ثم تظنك تحس الحياة على نحو ما يحسها السلف ويكون رحيقها منك ما كان

رحيقها منهم ! لعل من الناس من يرى أن رحيق الحياة عند السلف أشهى وأعذب من رحيق هذه الحياة التى نعيشها ، ومن يرى لذلك أن مظاهر هذا الرحيق من فن السلف وأدبهم كانت أطيب وأهنأ . ولست أخالف هؤلاء وأنا أشعر فى كثير من الأحيان بشعورهم وأجد فى كثير من الأدب القديم جمالا ولذة ، وأجد فيه سذاجة تجذب اليه وتحبب النفس فيه . بل ان من آثار الفن والادب القديم ما انتهى الى الخلود وما سيظل موضع تقديس العصور والقرون المقبلة جميعاً . وان فى « قفا نبك » من صور الجمال فى بعض المواضع مالا سبيل الى نسيانه . لكن الآداب مرآة العصر كما يقولون . واذا كان الادب القديم مرآة للعصور التى يمثلها فى تصورها الحياة وجمالها ، وكان ذلك مما يجب دراسته لكمال ثقافة الأديب ، فهو وحده لايكفى ، كما ان الأدب الحديث وحده لايكفى لكمال الأديب . بل يجب لهذا الكمال أن يحيط الأديب من قواعد العلم والفن بما يؤهله لاستخلاص مافى الحياة من رحيق وليجلوه على صورة صادقة تمثل عصره . وهذه هى تفرقة الشيخ التى أشرنا اليها فى صدر هذه الكلمة بين الشعر القديم وحاجتنا اليه للغة وللتاريخ وبين الشعر الحديث وتعبيره عن صورة حياتنا تعبيراً يجعله أشهى وأعذب مدخلا الى النفس .

على أن هذه الدراسات لاتغنى عما قدمنا من وجوب صقل اللغة لتمتزج بالأدب ولتكون له لباساً شفافا موسيقياً رشيقا ، وما يحتاج ذلك اليه من جهاد الأدباء جهاداً عنيفا شاقا يتناول كل نواحى الحياة ويتناول كل ناحية منها فى مختلف صورها . ومن الحق أن نذكر

بالتقدير والاجلال جهاد من سبقونا فى هــذا المضمار من الشعراء، والـكتاب ومن رجال دار العـلوم والأزهر وممن يسمون أنفسهم اليوم أنصار القديم . هؤلاء جميعاً سعوا ويسعون سعياً حثيثا محموداً فى سبيل بعث ما كان قد ظل عصوراً طويلة طى الـكتب القـديمة وجاهدوا فمهدوه وردوا اليه حياة كاد جهل العصور التى ساد فيها الحـكم التركى الممالك العربية يعفى عليها ويدفعها الى غـير عودة . لـكن اللغة كائن حى يجب له دوام التعهد . وتعهد اللغة فى ناحية الأدب انما يكون بدوام صقلها لتزداد رقة ولطفاً ولتكون موسيقاها مما يصلها بالادب صلة وثيقة ويجعلها اكثر من كساء له .

هــذا الجهاد هو جهاد الـكتاب والادباء اكثر من جهاد اللغويين وأصحاب المعاجم. ويكفى أن نذكر مثلا لذلك مايقصونه عن الـكاتب الفرنسى الـكبير فلوبير وجهاده فى هــذه السبيل . فهـم يروون أنه كان يحار أحيانا فى اختيار اللفظ الذى يعـبر أحسن التعبير عن فـكرة من أفـكاره فيظل يقلب وينقب ويفكر أسبوعا كاملا ليجد اللفظ الدقيق الصالح، وأنه حين كان يكتب قصته الخالدة (مدام بو فارى) ويقص انتحار بطلتها بالزرنيخ كان يحس طعم الزرنيخ فى فمه فيجد لذلك العبارات الدقيقة التى تصف هذا المعنى وتصوره تصويراً مضبوطا . فهل لنـا من الادباء من يبلغ اخلاصهم لفنهم هذا المبلغ ؟ هؤلاء هم الذين يصقلون اللغة ويجعلونها تلطف وتشف وتصبح موسيقى تتصل بالادب لا مجرد ألفاظ تنقله كما كان شأنها فى عصور مضت .

هؤلاء الافذاذ المخلصون لفنهم هم الذين يجددون للغة حياتها

قوية رصينة ، وهم الذين يعملون للأدب ويقيمون له أرفع صروحه. على انهم فى عملهم للغة انما يعملون كأدباء . وهم بعملهم هذا يقدمون للغويين غذاء جديداً يفيدهم فى معاجمهم أكبر الفائدة ، ويجعل من الادب الحديث مايفيد اللغة بمقدار مايفيدها أدب « قفا نبك » ، وان بقى أدبهم مع ذلك أدباً عصريا سائغاً لذيذ المدخل الى النفس

النثر والشعر

« كلما أراد الانسان أن يعبر عن احساس حقيقى رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عاديا أقل مما كان ينتظر ووجد أن أحسن مافى نفسه بقى فيها مختفيا ... لتصوير احساس كامل وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ، ألفاظ غير العتيقة البالية ، يلزم اختراع ألفاظ جديدة » .

(قاسم أمين)

ملأنا طباق الارض وجداً ولوعة
بهند ودعد والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقفا
بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها
يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيراً وأينقا
متى يعيها الايجاف فى البيد تظلع
فأصبح لايرضى البخار مطية
ولا السلك فى تياره المتدفع

ونحن كما غنى الأوائل لم نزل
نغنى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى
لشيء جديد حاضر النفع ممتع
(حافظ ابراهيم)

هذه الابيات من حافظ ابراهيم وتلك الكلمة من قاسم أمين صيحتان صريحتان بالشكوى من حال الكتابة العربية نثراً وشعراً. وكل الفرق بينهما أن كلمة قاسم أمين قيلت من ربع قرن أو أكثر وان شكوى حافظ لما تمض عليها بضع سنين. وليس مقام حافظ فى الشعر بمنكور. وقاسم من المقدمين فى تجديد الكتابة العربية بل أولهم وأكثرهم جرأة وإقداما. على ان هذه الشكوى لا يقف أمرها عند حافظ أو قاسم، بل هى تجيش بنفس كل كاتب قوى الشعور دقيق الحس واسع الاطلاع وبنفس كل شاعر سمت شاعريته عن أن يقف عند ترديد الاشعار القديمة فى قواف جديدة وعند سبك الصور والافكار والمشاعر القديمة فى قوالب ربما فاقت القوالب الأولى بهجة، ولكنها ليست لذلك ذات فضل لانها فى الواقع ليست إلا محاكاة وتكراراً. ومحاكاة الانسان للانسان لا تحتاج الى نبوغ وان احتاجت الى ذاكرة، ولا تصل الى مقام العبقرية وإن خلبت الانظار فجأة بلألاء بريق سرعان ما يخبو اذا تعرض للنقد الصحيح.

وانما يقدر ملاحظة قاسم أمين أولئك الذين لم تحبسهم معارفهم وثقافتهم فى حدود هذا الماضى الذى أشار اليه حافظ ابراهيم والذين

اطلعوا على مختلف صور تفكير العالم ووقفوا على أدب الأمم المختلفة. هؤلاء يرون أن المدارك والاحساسات الانسانية ليست جامدة ولا يمكن أن تكون كذلك لانها خلق البيئة المحيطة بالانسان . وقد كانت هذه البيئة فى الماضى ضيقة محصورة فى حدود القرية أو القطر من أقطار الارض الذى يعيش فيه الكاتب أو الشاعر . أما وقد أصبحت الانسانية كلها بيئة واحدة للعالم أو الكاتب وأصبح يسيراً أن يطلع مثقف على آثار الفكر والشعور الانسانى فى الأمم المختلفة فقد اتسعت المدارك ودقت درجات الشعور وأصبحت ترى بين الميل لشخص ومحبته وبين العطف على شخص والاشفاق عليه وبين النفور والكراهية وبين الخجل والخوف وبين التردد والجبن درجات متميزة من الاحساس تدركها النفس إدراكا دقيقا وتعبر بعض اللغات عن كل منها تعبيراً يحددها لك تمام التحديد . ثم ترى نفسك مطالبا بأداء ذلك فى اللغة التى تكتب بها — وهى اللغة العربية — فتشعر بالعجز وترى : « بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنك قلت شيئاً عاديا وأن أحسن ما فى نفسك بقى فيها مختفيا ». بهذا الاحساس يشعر الذين يقرأون ثمرات العلم والأدب الحديث فى مختلف اللغات سواء وقفوا عليها فى كتبها الاصلية أو مترجمة الى اللغات التى صقلت حتى صارت تتسع لكل ألوان الفكر وصور الشعور. وأنت أكثر ما يتولاك العجب حين ترى جماعة من أكابر الكتاب الضليعين فى اللغة العربية الواقفين على آداب الامم الأخرى وهم يعالجون العثور على اللفظ العربى المقابل للفظ أجنبى يعبر عن فكرة أو احساس فلا يجدونه، بل لا يجدون جملة مركبة تفيد بالدقة المعنى الذى يقصدون الى تصويره.

على أن الكتاب الضليعين فى العربية والواسع اطلاعهم فى اللغات الأخرى مافتئوا الى اليوم ومنذ قاسم أمين وقبل عصره يجاهدون لما أسماه قاسم : « اختراع ألفاظ جديدة »، وإن كانوا قد سلكوا سبيلهم الى هذه الغاية باحياء ألفاظ قديمة وإلباسها أثوابا جديدة تعبر عن الافكار والاحساسات الجديدة آخذين فى ذلك مأخذ كل الامم، قانعين من التجديد ـ بمعنى الخلق دون البعث ـ بالالفاظ الاجنبية التى لا رجاء فى وجود مقابل لها فى العربية إلا أن يكره لفظ قديم على تحمل الصورة الجديدة إكراها سخيفا . ولقد عالج بعض أنصار القديم من الكتاب هذا الاكراه ففشلوا فيه لانه مناف لطبائع الاشياء فقضى عليه بالفشل لا محالة

على أن هؤلاء المجددين المجاهدين فى سبيل احياء اللغة العربية حياة صحيحة ان لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الكمال فهم قد قطعوا فى سبيله شوطا بعيداً . وحسبك مقنعاً بهذا أنك لا ترى كاتباً منهم يعارض فى أسلوبه أو فى تفكيره أو تعبيره عن الشعور والاحساس واحداً من الكتاب الاقدمين . والناس إذ يتحدثون اليوم عن هؤلاء الكتاب لا يتحدثون عن معارضة العقاد للجاحظ ولا طه حسين لابن المقفع ولا مصطفى عبد الرازق لعبد الحميد الكاتب ولا غير هؤلاء من كتاب العصر الحاضر لواحد من كتاب العصر القديم ، وانما يتكلمون عن أسلوب العقاد ورأيه، وأسلوب طه حسين ونظرياته ، وأسلوب مصطفى عبد الرازق ودقته وظرفه . بل ان من لا يزالون يسمون أنفسهم انصار القديم من الكتاب أمثال مصطفى صادق الرافعى وصادق عنبر وغيرهما ، قد أثرت فى أسلوبهم وفى تفكيرهم

حركة التجديد هـذه اثراً عميقا حتى اصبح الجديد طبيعة نفوسهم وأصبح مايقتفون فيه أثر القديم ظاهراً فيه التعمل والصناعة والتكلف، فما يكاد الواحد منهم يترك نفسه على سجيتها حين يكتب حتى تراه يعيش فى هذا العصر الذى نحن فيه يكتب باسلوبه ويفكر بتفكيره ويرى مايراه من ألوان الادراك والحس المختلفة . ونحسب انه لولا بقية من الحرص على ماض امتازوا فيه على غيرهم من الـكتاب حين تقليد الاقدمين امتياز شعرائنا فى الحاضر امتيازا يرونه مجدهم وفخرهم إذن لرأيت الرافعى وغيره من أصحاب مذهبهم انخرطوا فى سلك المجددين بكلهم . ولعل لهم عن ذلك من العذر ان الانسان لايستطيع، وان حاول، ان ينسى ماضيه أو ان ينكره

وليس عجيباً أن يتأثر انصار القديم بحركة التجديد ، بل العجب ان لايكون ذلك . فالحياة دائمة التطور ، والجديد هو آخر مظاهرها. وهذا وحده هو السبب فى انه جديد ، فاذا انقضى عصره واحدثت غير الحياة جـديداً بعده اصبح قديما . ومادمت تعيش فى عصر فأنت متأثر حتما بحياة هذا العصر ، متأثر بالجديد الذى يحدث فيه. على ان كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالابوة والوارث بالمورث. ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وان هو حاول . ولن يستطيع ان يكون صورة مضبوطة منهم وان هو حاول كذلك . بل ان محاولته الاخيرة لتظهره فى ثوب انصار القديم من التـكلف والصناعة كما ان محاولته الاولى ، وان نجح فيها ، تظهره فى ثوب من التـكلف إن اختلف عن ثوب القدماء فهو ليس اقل منه اسـتدعاء للسخر . ولعلك لاترى فرقا كبيراً بين مايتركه من الاثر فى نفسك رجل يلبس

اليوم رداء الاقدمين ويسير سيرتهم وآخر يبالغ فى تقليد آخر طراز انكليزى فى الحديث والتحية والعبارة .

ولذلك أيضا فشل المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها ورجع أكثرهم الى الدائرة التى يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة حتى قطعوا منها فى سبيل احياء اللغة العربية شوطا بعيداً . رجع أولئك الى هذه الدائرة كما تقدم اليها أنصار القديم خطوات واسعة . والحق ان هؤلاء المتبصرين من الكتاب قد بعثوا اللغة العربية بعثا جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب التى تتكلم بها . ولا حاجة لضرب الامثال وكتب العلم والادب التى أبدعوا متداولة فى أيدى الناس جميعا ، يتلون فيها أسلس الكلام وأصحه وأدقه عبارة فى نقل كل ما استحدثته الانسانية من جديد صور الحياة وكل ما كشف عنه العلم من نظريات . وليس يعرف مبلغ العناء الذى يحتمله أولئك الكتاب ومبلغ الجهد الذى يبذلونه الا من رآهم يعتصرون أدمغتهم وقلوبهم يريدون أن يصوروا لقارئهم المعنى الذى يدور بخاطرهم أدق التصوير . وأشد عنائهم حين يتصل المعنى بصور مختلفة من ثقافات الشرق والغرب جميعا تتسعله اللغات التى صقلت فى القرون الاخيرة بل توحيه ، ثم لا يجد الكاتب نطاقه المضبوط فى اللغة العربية . اذ ذاك يجاهد ليبعث الالفاظ القديمة فيصبها فى بوتقه التجديد لتبدوا فى صياغتها الجديدة أكثر مما كانت بريقا وأشد دلالة على المعانى التى يراد أن تدل عليها من غير أن تشوبها لذلك كدورة أو اضطراب .

مع هذا الجهاد الذى اقتضته طبيعة حياة اللغة العربية فى العصور

الأخيرة فما يزال النثر ولما يبلغ الشأو الذى نرتجيه له ولما يصل الى التعبير عن افكارنا وعواطفنا واحساسنا تعبيراً دقيقا ، وما يزال كثير من الكتاب يعدلون عن تدوين فكرة من اجل افكارهم أو رواية عاطفة من ادق عواطفهم واعمقها او تصوير حس من اجمل احساسهم واسماها لانهم يرون انفسهم بعد طول الجهد وكثرة الكلام انما قالوا شيئاً عاديا وان واحسن مافى نفوسهم بقى فيها مختفيا . على ان هذا الجهاد قد طوع لهم مع ذلك ان يطرقوا من الابواب التى اقتضتها حياة العالم فى العصور الحديثة مالم يطرقه الكتاب الاقدمون . وليس فى شىء من الغلو القول بأنا كثر ما طرقوا من الابواب لم يتعرض العرب له إلا عرضا . لان التجديد لم يقف عند الاسلوب وكفى ، بل تناول طريقة البحث والوان الحس ودرجات الشعور فصارت شيئاً مغايراً تمام المغايرة لما كان عند العرب واقتضت لذلك بناء للنثر جديداً . وقد اصبح هذا البناء شامخا ولكنه مايزال بحاجة الى التعهد والصقل والصياغة والى السعة نفسها حتى يسع كل حاجات العقل والنفس والعاطفة فى ابعد مداها ومراميها واعماقها .

***

هل بلغ الشعر مبلغ النثر فى التجديد ؟ وهل نستطيع القول بأن جهاداً شاقا وجه الى اية ناحية من نواحيه كما وجه الى نواحى النثر ؟ وهل أتاح له هذا الجهاد ان يواتى حاجات الحياة الحاضرة بالمقدار الذى يواتيها النثر به ؟ فاذا انقضت اجيال وعرض ادب عصرنا الحاضر نثراً وشعرا على ناقد دقيق تبين فيهما صورة العصر بمقدار متكافىء ؟ يجب قبل بدء هذا البحث ان نقرر واقعة متداولة على انها حقيقة

ثابتة . تلك ان الشعر العربى فى عصور ازدهار الحضارة الاسلامية بلغ شأواً لم يبلغه النثر ولم يطمع فيه . وان مكانة الشعر فى عصور بنى امية وبنى العباس والاندلسيين كانت اسمى بكثير من مكانة النثر وادنى الى الكمال . وان الفلسفة والحكمة والتفكير والعاطفة والحس كانت جميعا تصاغ فى الشعر بخير مما تصاغ فى النثر . بل ان الشعر العربى كان هو الادب العربى وان النثر الى جانبه كان مكملا له غير مستقل عنه حتى لكان الكتاب يحلون نثرهم بما يرصعونه به من ابيات الشعر . فاذا كانت هذه الواقعة المتداولة حقيقية بالفعل افلا يكون حقا للشعراء ان يقفوا مجهودهم عند بعث الشعر العربى كما كان فى ازهر عصوره ليكونوا قد اعادوا للادب العربى جدته وليكونوا قد سبقوا الكتاب الى احياء اللغة العربية وادبها ، او ليكون مجهودهم مساويا لمجهود الكتاب فى التجديد وليكون حكم الناقد الذى يستعرض ادب عصرنا الحاضر على الشعر مكافئا لحكمه على النثر فى تعبيرها عن تفكيرنا وحسنا وعواطفنا .

لاريب فى ان النظر الى الشعر من هذا الجانب يجعلنا نقر للشعراء بفضل اى فضل . فليس من كبرائهم الا من عارض افخم قصائد كبار الشعراء فى الماضى فوفق فى معارضته اعظم توفيق وتفوق فى بعض الاحيان تفوقا لاسبيل الى انكاره . وهؤلاء سامى البارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ابراهيم واضرابهم من فحول شعراء العصر الاخير لم يكادوا يتركون قصيدة من القصائد العربية الكبرى الا عارضوها وزنا وقافية ومعنى فوفقوا وتفوقوا فى احيان كثيرة . وسينية شوقى الاندلسية التى يعارض بها البحترى

مشهورة . ومعارضة اسماعيل صبرى وشوقى لقصيدة : «ياليل الصب متى غده» مازال الناس يتحدثون بها . اما البارودى فقد عارض كثيراً من فحول المتقدمين وفى مقدمتهم النابغة . وهذه القصائد وغيرها هى من طراز القصائد التى تعارضها لغة واسلوبا بل معانى وصوراً حتى لكأنها قيلت فى تلك العصور التى قال اشباهها فيها البحترى والنابغة والحصرى وغيرهم من اكابر شعراء العرب . واذن فقد بعث شعراؤنا العصريون ذلك الشعر العربى القديم بجزالته ومتانته

بل لقد افتن شعراؤنا فى وصف المنشئات والحوادث بما ليس له مثال فى الشعر القديم ، لان هذه المنشآت وتلك الحوادث لم تقع عليها اعين الشعراء الاقدمين او لم يتعلق بها خيالهم ان لم يتعلق بها شأن من شئونهم . ولست انكر انى اتذوق وصف حافظ ابراهيم لقصر الجزيرة الذى اصبح حديقة الحيوان كما اتذوق قصيدته فى نكبة مسينا بالزلزال وبخاصة حيث يقول :

رب طفل قد ساخ فى باطن الار
ض ينادى : امى ، ابى ، ادركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجم
ر تعانى من حره ما تعانى
واب ذاهل الى النار يمشى
مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنيه
مسرع الخطو مستطير الجنان

نأكل النار منه لا هو ناج
من لظاها ولا اللظى عنه وان

وكما أتذوق هذا الوصف لحافظ اتذوق كثيراً من شعر شوقى فى الوصف وبخاصة وصفه لتوت عنخ آمون حين تكلم عن صيده وكلاب صيده ووصفه لقصر انس الوجود إذ يقول :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى اخفين فى الماء بضاً سابحات به وابدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا

ولست انكر كذلك إعجابى الذى لا حد له بالشعر الوصفى فى وجدانيات اسماعيل صبرى وفى حماسيات البارودى. ولكني اعود من هذا الاعجاب فاسائل نفسى : هل هذه القوافى التي مانزال نحن مرتبطين بها منذ عهد العرب ، وهل هذه الصور التى ادت بحافظ ابراهيم الى ان يقول « ونحن كما غنى الاوائل لم نزل نغنى» ، وهل هذه القيود المعنوية التى تقيدنا فتجعل شوقى فى احدى قصائده اللذة يذكر الهودج على انه مركب ام المحسنين فى حين كان مركبها اوتومبيلها الفخم ، اعود فأسائل نفسى : هل الاعجاب بهذه القوافى والصور والقيود راجع الى انها تؤدى حاجات النفس من إدراك وحس وعاطفة اداء صالحا ،او هو راجع الى انها تثير فى النفس ذكر ماحفظت اول شبابها من شعر كاعجابك بنغم القيثارة الريفية الساذجة بعد سماعك لألحان عبد الوهاب بل لموسيقى موزار وبتهوفن .

كنت اتحدث فى سنة ١٩٢٧ الى جماعة من اصحابى وبينهم

الشاعران الكبيران حافظ ابراهيم وخليل مطران ونحن على الباخرة النيلية بريطانيا فى النزهة التى دعت اليها لجنة الاحتفال بتكريم شوقى بك بين مصر والقناطر الخيرية ، وتناول حديثنا الشعر وما يحس الكثيرون به من انه لم يسابق النثر الى الخطوات التى يستطيع معها التعبير عن كل المعانى التى تجيش بالنفس على صورة تتفق ونغم الموسيقى الجديدة ولا تقف عند الاوزان القديمة التى يقولون انها كانت تلائم سير الابل خببا وايجافا . ولم يعترض الشاعران على هذه الملاحظة بل وافقا عليها ، وذكر احدهم ان السبب فى جمود الشعر عند اوزان العرب ومعانيهم وقوف بعض الشعراء فى وجه كل تجديد واعلانهم الحرب النكراء على كل مجدد . ولم ينس احد الحاضرين ان يذكر كيف تطورت الاغانى العامية واتفقت مع الانغام الحديثة كما ادمجت — على ابتذالها — كثيراً من صور الحياة الحاضرة ومستحدثاتها خلال الفاظها ومعانيها . وما اظن احداً يرتاب فى صحة هذه الملاحظات على الشعر العصرى وعلى وقوفه فى قوافيه واوزانه وفى صوره ومعانيه عن مجاراة انغام العصر وموسيقاه، بل عن مجاراة الهزات الشعرية التى تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر الحاضر . لقد تقف بين الوف القصائد التى قيلت والتى تقال على ابيات بالغة غاية الجمال تعبر بأبلغ عبارة عن ادق احساس وأفواه. لكن هذه الابيات منثورة فى لجج مترامية انتثار الدر فى قاع البحر لاتعثر عليها من غير جهد ومشقة .

وليس القصد من الشعر فى راينا هو هذه الابيات الفذة ،

وليس هو محاكاة الاقدمين . انما القصد من الشعر ابراز فكرة او صورة او احساس اوعاطفة يفيض بها القلب فى صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل الى اعماقها من غير حاجة الى كلفة اومشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع اوتهبط وتهبط وانت مندفع واياها مسوق وراءها متلذذ باندفاعك واتباعك تلذذك بصوت المغنى او بنغمة الموسيقى . وكما يسبقك المغنى الى القرار او السمو الذى تنساق اليه نفسك طائعة مختارة يجب ان يسبقك الشاعر فى فيض الحس او الشهوة او العاطفة وان يشعرك من ذلك اضعاف ما تشعر به لو انك كنت وحدك . وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى بعيداً وكلما استوت له فى ذلك النفوس جميعاً اقترب من ذروة مجد الشعر وغزر له فيض بناته ورباته .

ولقد حاول بعض الشبان وما زال بعضهم يحاول ان يوفق الى جديد فى الشعر يلائم بينه وبين روح العصر الحاضر ويصل به الى هذا المدى الذى وصفنا .وفى هذه المحاولات جرأة وفيها جمال. لكنها لما توفق الى الطريق السوى فتعبر عن مدركاتنا واحساسنا وعواطفنا بمثل ما وصل اليه النثر من قوة ودقة . وهى لما توفق الى الخروج بالشعر من هلهلته التى تجعل اكثر قصائده وليس بين البيت فيها وما بعده صلة حتى لتستطيع ان تغير مواضع الابيات كما شئت من غير خوف . ثم هى لما توفق الى اوزان تخرج بها عن سير الابل خبباً واظلاعا الى شىء يتفق وانغام موسيقى عصرنا الحاضر .

يوم يوفق الشعر الى هـذا الطريق فى تلك النواحى المختلفة ،

ويوم يؤدى الغاية التى اشرنا اليها ، يكون قد وفق الى اداء حاجات النفس اداء صالحا . ويومئذ يسير مع النثر ويجاهد جهاده لصياغة اللغة العربية وصقلها بما يجعلها توآتى الكاتب والشاعر بكل حاجات العصر فى غير مشقة ولاعناء . لكن ذلك انما يكون يوم تزول عن الشعر علته . فما هى هذه العلة وماهو سبب الجمود الذى اشرنا إليه فى هذا الفصل ؟!

علة الشعر

يوافقني صديقي الدكتور طه حسين على ان النثر العربي قد تطور في هذا العصر الأخير الى حيث قارب ان يكون صالحاً لاداء حاجات النفس وان كان ما يزال بحاجة الى معالجة والى صقل والى زيادة في ثروة الفاظه ليصل الى ما وصلت اليه الكتابة في الامم الغربية صاحبة المدنية الغالبة اليوم ، وعلى ان الشعر ظل حيث كان الشعر في الايام القديمة حين كان مجد العرب وكانت الحضارة الاسلامية في ابهى عصورها العباسية والاندلسية . وهو يعزو تطور النثر وجمود الشعر الى مطالعة الكتاب واتصالهم بحضارة العصر في كل مظاهرها العقلية والنفسية ، والى اكتفاء الشعراء بما قرأوا من شعر العرب والى كسلهم العقلي بعد ذلك وعدم تغذيتهم ارواحهم ونفوسهم وعقولهم بما تفيض به الارواح وتشعر به النفوس وتنتجه العقول من الآثار في العصر الحاضر ، كما يعزو جمود الشعر الى ان الشعراء قد جعلوه بعض ما تتزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية وما الى ذلك مما لا يتصل بالشعر .

ولنقف عند هذه الأسباب قبل ان نبحث عن غيرها مما ادى بالشعر الى الجمود تاركين نسبة الكتاب دون الشعراء الى القراءة والى الاتصال بحضارة العصر حتى لا نتهم بمحاباة طائفة على الأخرى. فأما

كسل الشعراء وعدم اطلاعهم وما لذلك من اثر فى شعرهم فقد يكون فيه بالنسبة لأكثرهم جانب من الحق وان يكن لهؤلاء عنه كذلك جانب من العذر . فهم يقرأون بدأ صباهم حين تتحرك ربة الشعر اول ماتتحرك فى نفوسهم . وبعضهم يقرأ الشعر العربى القديم لأنه لا سبيل إليه الى الاطلاع على الشعر ولا على الادب الغربى . وبعضهم يتصل بهذا الادب الغربى ، فاذا استوى لهم الشعر العربى واتسقت لهم قوافيه وبحوره شعروا الحاجة ملحة الى التبحر فى اللغة العربية وفى الشعر العربى بنوع خاص لكى يجدوا فيه حاجتهم من غذاء متصل لموسيقى النظم فى نفوسهم مما لا سبيل الى ابتغاء العوض عنه فى غيره من أدب غربى أو من موسيقى او من ادب عربى حديث . وهم سرعان ما يصلون من ذلك الى انضاج اللغة فى نفوسهم وما اكثر ما يتيسر لهم بذلك الوقوف على الالفاظ التى تحتاج اليها قوافى الشعر وأوزانه . فاذا اندفعوا فى هذه الناحية من نواحى البحث لم يقف أمرهم فيها عند حاجتهم الى نضج اللغة والى ثروة القوافى بل تأثروا بالشعر القديم أشد الاثر واخذوا عنه فى كل شىء واندفعوا بحكم ميل النفس الى دعة الحياة لمحاكاته ومعارضته . ولقد كانوا الى زمن قريب يشعرون بما فى ذلك من شهادة بسبقهم وتفوقهم حتى أخرجتهم ضجة القديم والحديث فى اللغة والادب من سباتهم وجعلت المبرزين منهم يفكرون فى جدة الشعر باقتحام ميادين مما اقتحم الشعر الغربى ومحاولة محاكاة هذا الشعر الغربى فى اقتحامه إياها . لكن هذه المحاولات ماتزال هى الأخرى فى بدايتها . واجرأ هذه المحاولات ماوضعه شوقى من روايات لم يمحص النقد حتى اليوم قيمتها الصحيحة .

وأما أن الشعراء يجعلون شعرهم بعض ماتتزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية وأمثال هذه الأغراض البعيدة كل البعد عن المعانى والصور الشعريه فصديقى طه على حق فيه . فالشعر ظاهرة نفسية لقائله يشدو به حين تفيض نفسه باحساس من الاحساسات أو بمعنى من المعانى لاتستطيع أن تكتمه . ولن يصدق احد أن ينبعث هذا الفيض عن دعوة تدعوها جماعة لشاعر كى يقول فى غرض معين كحفلات التكريم والتأبين وانشاء النقابات والمصارف .

على ان لشعرائنا فى غير هذه الاغراض ، ولهم فيما تلهم المعانى الشعرية الصحيحة، مايثير فى النفس الاعجاب. وانك لواجد شعراً صحيحاً فى المقطوعات الوجدانية التى قالها اسماعيل صبرى، ولواجد شعراً صحيحاً فى كثير من قصائد البارودى عن الانفة وعن الحرب وعن الحنين الى وطنه وهو فى منفاه ، ولواجد كذلك لشوقى معانى شعرية ذات روعة فى قصائده عن الماضى وفى تحنانه الى مصر أيام كان فى الاندلس. ولغير هؤلاء شعر هو الشعر بكل معناه . لكن ذلك الشعر قليل من هذا الكثير الذى خلفوا والذى يستظهره الناس ويجدون فيه روعة وجمالا . وانما نظم الشعراء أكثر شعرهم فى هذه الاغراض التى ليست من الشعر فى شيء . وللشعراء عن ذلك عذرهم . وليس هذا العذر مقصوراً على عدم القراءة وعلى الكسل العقلى، بل هو أعمق من ذلك بكثير . ولعلهم لو قرأوا واجهدوا فى القراءة أنفسهم وأعصابهم لما وصلوا من الشعر الى أكثر مما وصل رجال الدين من الدين. فرجال الدين يدمنون قراءة كتب العقائد والاصول والفقه وما إليها مما

يتصل بالدين بأي نسب . لكن هذه القراءة لم تغير منهم شيئاً ولم تهذب من نفوسهم وطباعهم كثيراً ولا قليلا. ويخيل إلي أنهم لو قرأوا تاريخ العقائد وتطور الاديان بل لو انهم رجعوا الى الاساطير وتقصوا ما كان يدين به قدماء المصريين وما أخذه موسى عنهم، وما انتقل من التوراة الى الكتب الأخرى المقدسة من صور العقائد والمعاملات ، إذن لما غير ذلك من أذهانهم شيئاً . ذلك بأن المسألة ليست مسألة قراءة فحسب، بل هي مسألة تدبر وشعور شخصي ، فكري أو نفسي ، يتأثر بملامسة مظاهر الحياة من مرئيات ومسموعات ومحسوسات للأعصاب الانسانية المهذبة تهذيباً خاصاً يجعلها قابلة للتأثر والاحساس. ويجب ان نعترف، ونفوسنا تملؤها الحزن والأسى، ان تربيتنا وتهذيبنا لم يعدا كثرتنا لهذا التأثر الفردي والاحساس الذاتي . فهما لا يرسمان امامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا ولفكرنا ان يميزا من هذه الصور ما يأخذ بهما ويلفتهما لفتات خاصة . بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة في قوالب قررتها الجماعة من عصر سالفة فيطبعانها في حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما بهذه القوالب ويكرههما على الخضوع لها والايمان بها . وكما ان حرية الفكر هي اساس النشاط العقلي المنتج واساس ما يترتب على هذا النشاط العقلي من سمو في الكتابة بلغ الكتاب بعضه فحرية الحس هي اساس نشاط الذهن والخيال وما يفيض عن هذا النشاط من شعر هو الشعر حقا، لا ما يصدر عنه من عبارات منظومة يسميها الناس من باب التجوز شعرا .

والتحلل من جمود هذه القيود ليس امراً يسيراً . بل لقد يتململ

منها الرجل فى نفسه ويراها عبئا ثقيلا وسخرية وهزوا . لكن نفسه التى الفتها فى الماضى والتى ترى فى اطراحها مايثير الخصومة بين الجماعة وبينها تؤثر ماسماه طه كسلا عقلياً بينا قد يكون شيئاً آخر . قد يكون هو الملال وضعف الرجاء فى الانتصار على جمود الجماعة والاضطرار لذلك الى النزول منها منزلة تمليق مشاعرها الجامدة حتى حين هياجها وايمانها المتعصب الثائر على كل تسامح . ولعل هذا هو علة تقلب شعرائنا بين مديح شيء وهجائه، لا لانهم انتقلوا من التسليم بجماله وبما فيه من خير الى إنكاره والاعتقاد بضره ، بل لانهم اشد حرصاً على طمأنينتهم منهم على شعور قلق ليس ناشئاً عن فيض روحى لا سبيل الى كبحه، وانما منشؤه النظر الى الحياة ومصالحها نظرة منفعة لا شعر فيها ولا ايمان بها . فالتحدث على اثر هذه النظرة حديثاً منظوما انما يرضى به الشاعر سامعيه قبل ان يمر بخاطره إرضاء نفسه .

الم يواجه الكتاب ما واجه الشعراء من الملال وضعف الرجاء فى الانتصار ؟! ام انهم من طينة غير طينة الشعراء وان تهذيبهم اعدهم لألوان من التأثر الذاتى والاحساس الفردى غير ما اعد تهذيب الشعراء اياهم له ؟ اعتقد ان الامر متعلق بالظروف التى احاطت بالكتاب والشعراء اكثر من تعلقه بتهذيب هؤلاء واولئك مما يشترك الكل فيه على سواء . فقد كانت الكتابة جامدة جمود الشعر الى ما دون نصف قرن مضى . وكان الكتاب يقلدون اساليب الاقدمين ويحتذون انواع كتاباتهم فى المقامات والرسائل وما اليها ويغرمون بالسجع وبالبديع غرامهم ويعتبر احدهم اكبر

نخره ان يكون معارض الجاحظ او عبد الحميد . وفيما هم فى سكينتهم الى ادبهم تسللت الى مصر والى الشرق ثورات سياسية واجتماعية متأثرة بالثورة الفرنسية وبما اصاب اوربا من هزات عنيفة فى اعقابها ، فقام دعاة لمثل هـذه الثورة بعضهم فى السر وبعضهم فى العلن واتخذوا الخطابة والكتابة وسيلتهم الى اعلان ثورتهم . ولم يكن اسلوب ابن المقفع ولا لغـة بن قتيبة ولا صناعة المبرد هى التى تكفل تحريك الجماهير لقبول هذه المبادىء ولا كانت هى التى تكفل حسن صياغة هذه المبادىء والدعوة اليها . لذلك لم يكن بد من اسلوب جديد ومن لغة جديدة . اسلوب ولغة لا ينبوان عن العربية الصحيحة ولا يستعصيان على ادراك الجمهور ولا يقفان دون تمثل مبادىء الحرية والاخاء والديمقراطية ودفعها الى نفس الجمهور ليستطيع هو الاخر ان يسيغها وان يتمثلها وان يتأثر بها ويتحرك لتحقيقها . وكذلك لم يكن بد من ان تساير ثورة الاجتماع والسياسة ثورة فى الخطابة والكتابة . اما الشعراء فظل اكثرهم بمعزل عن هذه الحركة ولم يفكر احدهم فى أن يبدع فى الشعر جديدا يقربه الى الجمهور ويقرب الجمهور اليه واعتبروا مثل هـذا السعى جناية على الشعر كفن جميل . من ثم اقام الشعر فى سماواته الأولى لا ينزل للناس ولا يرفع الناس اليه وخطا النثر بأكتاف قوية عريضة بين الجماهير يهزها ويحركها ويلفتها الى ناحية النور الجديد ويلهمها فضل الآراء الحديثة . وكلنا يذكر جهاد الكتاب فى سبيل التحلل من قيود الماضى وما قاساه قاسم امين ولطفى السيد وغيرهما ، ويذكر أنه لولا شهوات السياسة ومس الحاجة للاصلاح الاجتماعى وعجز

من عدا هؤلاء المجددين من الكتاب دون الاضطلاع باعباء هذا الاصلاح وبتوجيه تلك الشهوات ، ثم لولا تغلب المدنية الحاضرة مدنية العلم والمعرفة وعجز من عدا المجددين دون رفع لواء هذه المدنية، إذن لبقي النثر كما بقي الشعر فى جموده ، ولبقينا مقيدين بالصور القديمة نكتبها لا لنعبر بها عن شعور يمر بخاطرنا وعن فكرة تنضجها اذهاننا ولكن لنجارى بها الجاحظ او عبد الحميد او بديع الزمان، ثم ليكون اقربنا الى محا كاتهم ابرعنا فى الكتابة، لانه يكون صدى أولئك الذين تبوءوا بحق مكان الزعامة الكتابية فى زمانهم ، والفونوغراف الذى يحكى بدقة ، وان يك من غير شعور ، ماالقى به إليه .

على ان ثورة النثر لم تصل من تحريره الى كل ميادينه ولم تقر للأدب حريته فى كل صوره ، بل وقفت عندما ابدت الظروف مساس الحاجة اليه . وما احسب واحداً من الكتاب يحدث نفسه بأن الكتابة بلغت من مثلها الأسمى الذى تصبو اليه غاية المدى او اصبحت وليس يحول بينها وبين دقة الاداء عن كل ما يجول بخاطر الكاتب الا قصور الفاظ اللغة واساليبها . بل انا ما يزال بيننا وبين الكمال مدى واسع غير اتقان الصناعة ودقة الصياغة . واذا كنا قد اقتحمنا بعض الميادين التى كانت من قبل اقداسا لا ترتفع اليها العين ولا تسمح لنظرة منها بخلسة فانا ما نزال امام بعض الميادين الاخرى مقيدين كالشعراء سواء بسواء . وربما كنا كذلك امام اكثر الميادين الشعرية التى تتعلق بالحس وبالعاطفة . فأين منا من هوى قلبه الى الوان غير مألوفة من الجمال تمددت فيه

وانتشرت وملأته ففاض به هواه فعبر عنه تعبيراً صادقا ! واين منا من ساور الشك نفسه ان راى النور القديم الذى اهتدى به اسلافنا قاصراً عن هدايتنا كما صارت الانوار القديمة التى كانت تنير دياجير الليل فاترة ضعيفة امام لألاء الكهرباء فانبعث يلتمس نوراً جديداً واندفع الى ذلك بحرارة ايمان كلها عاطفة وكلها شعر وكلها فيض والهام ! واين منا من سما للكمال بعاطفته فبكى للمذنب ذنوبه وراى فيه اخا احق برحمة الله ممن لم يجترح فى الحياة اثما ! واين منا من اهتزت كل اعصاب الألم فى نفسه امام مآسى القدر يفجع بها الابرياء كل يوم فثار على القدر ثورة الجبابرة ؟! اوليس واجبا علينا ، وذلك شأننا من ثورتنا لحرية الأدب، ان نكون رحماء بهؤلاء الشعراء الذين لا يرون بنات الشعر لانها مغللة ملقاة فى غيابات الماضى،والذين لا شيطان لهم يستمعون الى وحيه لأن شياطين الشعر لا تلهم الا احرار الحس والشعور والخيال . وهلا يجوز لغيرنا اذا رأى ما بينت من حالنا ان يهيب بنا : رفقاً بالقوارير ، وان يذكرنا بكلمة السيد المسيح « من كان منكم غير ذى وزر فليرمها بحجر »

وسنظل معشر الكتاب قاصرين دون التعبير عما يجول بعواطفنا حتى تنحل القيود التى تربطنا وتتفتح امامنا الميادين التى ما تزال مقفلة كما تفتحت الى اليوم ميادين اباحت لنا الوصول فيها الى تطور الكتابة تطوراً يسر لنا التعبير عما يجول بخواطرنا بعد تلك الثورة القوية التى قام بها الذين سبقونا والتى ماتزال الى اليوم مستمرة تريد ان تفتح من الابواب مالا يزال مغلقا .

ولا سبيل إلى جدة الشعر الا ان تؤدى اليها ثورة كالتى ادت الى جدة النثر . وليست الثورات السياسية ولا الانقلابات الاجتماعية ادوات هذه الثورة فى الشعر مالم يكن لها اساس عميق سنده الشعور الانسانى الصحيح لا المصالح الحاضرة والشهوات الوقتية . وما للشعر وهذه المصالح والشهوات!! انه لايلبث اذا تناولها ان يسمو بها الى مراقيه التى تحلق فوق وضيع المطامع ويكسوها هالة من جمال وجلال ويستصفى الخالد من آثارها ويتغنى به ويخلده. انظر الى الشعر الغرامى . ليست جوليت وليست ليلى وليست هلويز لذواتهن شعر الشاعر ، انما الشعر مافى جمال اولئك ومافى عاطفتهن من خالد يتنقل على الاجيال فيشدو به الشاعر ويسبغ عليه كل ما واتاه به العلم والفن والخيال من مشاعر وصور . وكما ان الحب عاطفة تحرك الشاعر فالايمان عاطفة تحركه والشفقة كذلك عاطفة تحركه . ونفوسنا بحاجة إلى غذاء من الايمان كحاجتها الى غذاء من الحب . ولن يكون إيمانها شعراً إذا هو كان إيمانا مطمئنا ، كما لن يكون الحب شعراً إذا هو كان حباً مطمئناً . بل لابد ، فى الحب وفى الايمان وفى الاشفاق وفى الحرية وفى مختلف مظاهر الطبيعة وفى كل ماتتأثر به النفس ، من مجال لمطمح إلى غاية تكون مثلا أعلى واملا سامياً لتفيض به النفس شعراً وليكون لهذا الشعر على الزمن بقاء . فأما مادون ذلك من أثر هذه العواطف فى النفس فالشعور به مشترك بين الناس جميعاً والافضاء به لاشىء من الشعر فيه ، وإن أمكن ان يكون فيه نظم وكلام فخيم وفصاحة وبلاغة وبيان بديع

وهذا هو مايجعل لصديق طه كل الحق حين يأخذ الشعراء بأنهم يجعلون شعرهم بعض ماتتزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية ، وما يجعل كل انسان على حق حين يعيب شعر المناسبات ، وحين يعيب اكثر الشعر العربى الحديث لا اكثره شعر مناسبة . والامر كذلك فى شعرنا الحديث بنوع خاص ان كانت المناسبات التى تلهمه ليست مناسبات تحرك نفس الشاعر وتهز أعماقها فتدفعها للافاضة بمكنون مافى نفسها حتى تراك ماتكاد تتخطى بعض الابيات المتصلة بالمناسبة حتى اذا إلهام الشاعر من مجموع الحياة قد تجلى وقد غمر المناسبة وسما فوقها واتصل بحياة الوجود كله على نحو ماحركت الثورة الفرنسية نفس جيتى او ماحرك زلزال لشبونه نفس فولتير ، وانما هى مناسبات تافهة اغلب امرها كالمناسبات التى توحى مايلقى من الشعر فى الحفلات . فاذا هى بلغت من القوة والسمو مايحرك نفس الشاعر ويثيرها ويذكى فيها اقوى المعانى واروع الذكريات رأيت ذلك وقف من إلهام شعرائنا عند قصائد قصيرة لاتتجاوز الاربعين أو الخمسين أو الستين بيتا ، ورأيت سمو الالهام لايتصل فى هذه الابيات كلها فياضا متدفقا آخذاً بعضه برقاب البعض ناقلا إياك معه الى السماوات التى ارتفع الشاعر اليها ، بل وقف سمو الالهام هذا عند ابيات منثورة هنا وهناك خلال القصيدة من الشعر كلها رصينة النظم واللغة ، لكن الالهام فيها لا يعدو ان يكون بروقا خاطفة تأخذ بالنظر كلما انارت ولكنها ما تلبث ان تخبو لتحل محلها الصنعة فى الشعر والتجويد فى النظم. واذا كان مرجع ذلك فى المناسبات العادية الى ان شعر المناسبات ضعيف بطبعه لان

الالهام فيه ينطبع فى النفس من حوادث خارجة عنها بينا الالهام فى الشعر الصحيح داخلى يصدر عن النفس ذاتها ويهتز له كل وجود الشاعر لانه الفيض المضىء لدخيلة حياته ولكل ايمانه ولكل عواطفه وكل وجوده، فان قصور المناسبات الكبرى عن الهام شعرائنا اكثر مما الهم زلزال مسينا حافظ ابراهيم وموقعة ادرنه وانتصار الاتراك بعد الحرب الكبرى قصائد شوقى فى هذه الحوادث إنما يرجع الى ضعف ثورة النفس والى هذه السكينة المطمئنة التى اشرت اليها والى الاكتفاء بمحاكاة السلف ومعارضتهم والنسج على منوالهم.

والى ان تحدث هذه الثورة سيظل الشعر فى جموده ، وستظل المعانى الشعرية الصحيحة نادرة جد الندرة ، وستظل الاوزان الشعرية واقفة وقوف الموسيقى والغناء . وسبيل هذه الثورة ان تظمأ النفوس لحرية الاحساس والعاطفة كما ظمئت من قبل لحرية الفكر وحرية التعبير عنه. ولست ارجو ان يكون هذا الظمأ شأن السواد وان رجوت ان يتقرر حقه فيه . لكنما ارجوه للافذاذ الذين يحملون على عواتقهم اعباء النهضات الكبرى التى لاطريق لها غير الثورة . هؤلاء الافذاذ يجب ان يكونوا فى حل من كل قيد للذهن او للحس او للشعور لكى يهديهم الهامهم المهذب بكل ما اورثنا الماضى وما يحيطنا به الحاضر من آثار الفكر والفن إلى المستقبل المستور بحجب الغيب ، والذى لايتفتح إلا لهؤلاء الافذاذ الذين ينظرون ببصيرة الشعر فيه . فاذا وجد الافذاذ ودفعهم الظمأ للحرية إلى تحطيم القيود التى ماتزال تربط الشعراء فى اكثر نواحى حياتهم وسموا بشخصياتهم الممتازة فوق عواطف السواد

وشهواته وحلقوا يريدون إرضاء نفوسهم وعواطفهم واذهانهم ،
آن للشعر ان تتجدد معانيه واوزانه وقوافيه ، وصار اداة صالحة
للتعبير عما يجيش بالنفوس وتضطرب به الخواطر .

ووسيلة الشعراء الى كسب حرية الشعور والعاطفة والتعبير عنهما
ميسورة لمن أراد بلوغ هذه الغاية السامية . تلك أن يطلب الشعراء
الكمال لذاته لا رغباً ولا رهبا وأن يسموا فوق مطامع المادة ومزالق
الذلة والخضوع لوضيع الشهوات وأن يجاهدوا للتحلل من رق
الاسار الذى ارتبطوا به مع الشعر العربى القديم. ولعلهم اذا رجعوا
الى تطورات الشعر الغربى فى العصور الاخيرة كان لهم فيه مثل .
فقد أعلن رنسار مذهب بعث الادب اليونانى والرومانى فى القرن
السادس عشر، ووجد هو ومن تابعه فى هذا الادب فيضاً ظل يلهمهم
قرنين كاملين . لكنهم كانوا فى ذلك ينقلون ذلك الادب القديم من
لغاته الى لغتهم فتبدو له جدة عند الجمهور الذى لا يعرف اللاتينية
ولا اليونانية . فلما كان القرن الثامن عشر انتقض الشعراء فى أوربا
على هذة القيود القديمة وأعلنوا حرية الشعور والشعر وساروا به
الخطى الواسعة التى بلغت الشأو الذى أدركه اليوم . وها نحن أولاء
مضت علينا اجيال ونحن مقيدون بالشعر العربى القديم معانى وأوزانا.
أفما آن أن يكون لنا شخصية مستقلة وأن يعلن شعراؤنا حرية
الشعور والشعر وأن يقولوا بوحى نفوسهم وإلهام حياتهم لا بوحى
الأقدمين وإلهامهم ! أو ما آن لشعرائنا أن يرتفعوا فوق ذلك
المستوى الذى تضطرهم اليه ذاكرة الجمهور اضطراراً فيجذبون الجمهور
اليهم كارهاً بادىء الرأى ثم سعيداً بما أكاره عليه بعد ذلك ! أما

آن لهم أن لا يتأثروا بتمليق الناس وبحاجاتهم المادية فيكون شعرهم شعر النفس الفياضة لا شعر الظروف التي لا شعر فيها .

ولست كبير الرجاء في مقدرة الشعراء الذين كونهم العصر الماضي على أن يغالبوا ما نشأوا عليه وان يزدروا ثناء الجمهور وتصفيقه ولو كان هذا الازدراء سبيل الكمال . فليس يسيراً على النفس أن تغير من عاداتها ما أصبح منها بمكان الطبع . ولست ادري ان كان الناشئون اليوم يستطيعون ابداع هذا الذي ادعوا اليه من الاستقلال ومن البحث في ملكوت الشعر عن المثل العليا على نحو ما يصورها عصرنا الحاضر في الحب والحق والشفقة والحرية والايمان والشك، ومن ارسال خيالهم يتغذى مما أنبت العلم والفلسفة في هذه الشؤون كما تتغذى النحلة من رحيق الزهر لتخرج للناس شهداً شهياً . وكيف نثق بالناشئين ولما يظهر منهم أحد مستقلاعن كبار شعرائنا مرسلا الى الناس من فيض شعره ما تبهرهم جدته وما تهزهم قوته وما يرون فيه من الروح ومن الموسيقى غير ما ألفوا ، ثم هم يرونه مع ذلك ذا جلال وروعة !

وإنما رجاؤنا ان تصدر الثورة المجددة التي ينبعث أصحابها في طلب الكمال الشعري لذاته عن الجيل الجديد الذي يتلقى العلم اليوم والذي نجاهد كلنا في سبيل تلقينه اياه على غير تلك القواعد القديمة التي كانت تبعث الجمود الى الاذهان والقلوب والعواطف . وعلينا اذا اردنا معاونته على القيام بهذا الواجب ان نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما اعناه على تقرير حرية الفكر ، وان نوسع امامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم ، وان نعرض

عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار. فاذا نحن قمنا بهذا الواجب كان لنا ان نأمل من بين هذا الجيل الجديد اولئك الافذاذ الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة والذين يجعلوننا نحس اذ ننشد شعرهم بائتلاف جواب نغمته مع سائر انغام الحياة الحاضرة وصورها ، بدل أن نرى انفسنا كمن يشدو بقيثارته وسط الاطلال يريد ان يبعث امام خياله حياة ليس لها بشيء مما في حياته اتصال .

متى وجد هؤلاء الافذاذ آمن رافعوا لواء الشعر بأن واجباً عليهم أن يقتحموا ميادينه بروح جديد . روح غير هذا الروح الاثر الذي يحصر شعراءنا أكثر الامر في دائرة ضيقة من عواطفهم الوقتية أو تفكيراتهم السطحية أو أخيلتهم القليلة الارتفاع ، وأن يقتحموا الميادين الجديدة بروح منبسط قدير على أن يحلق في جو العالم كله ويتصل به ، ملقياً عن كاهله حدود المكان والزمن ، مرتفعاً الى السماوات العلى ، متصلا بالملائكة والشياطين ، ثائراً على كل عتيق بال ، متوثبا في ثورته لينتظم آلهة الاغريق والمصريين القدماء وما خلفت الميثولوجيا في الامم والعصور المختلفة في تحليقه وسموه ، مجاهداً لينتقي ذلك كله ويصهره ويخلق منه في عالم الشعر خلقاً جديداً . وأحسب أن اقتحام ميادين الشعر الجديدة بهذا الروح ، كما أن غزو الصالح من الميادين القديمة بهذا الروح كذلك ، كفيل بأن يدفع بالشعر الى صدر النهضة ، وأن يجعل منه الأداة الروحية القوية التي تحطم الكثير من الاغلال وترتفع بالانسانية في سماء الحرية والحب والحق والجمال .

وهذا الروح يجب له قبل كل شيء أن يرتفع بالشاعر عن شعر المناسبات الى مايصدر عن وحي الروح وإلهام العاطفة وفيض الفكر ، ويجب أن تكون غايته تصوير الكمال في صور تأخذ بمجامع نفس قارئها وسامعها وتطير بها على أنغام الشعر الموسيقية لترتفع فوق مستواها ولتبز نفسها ولتحس معنى الكمال إحساساً عميقا يشعرها ضرورة الدأب للجهاد في سبيله . وتجعلها اذا قرأت شعراً يصور لها الكمال في الحب أو الكمال في الحرية أو الكمال في الأمل أو الكمال في الألم أو في أى ماشئت من معان وعواطف وأخيلة أثيرية الحدود دائمة الاتساق والاتساع شعرت بأن في الحياة معانى غير هذه المعانى التى يحيى الناس ويجعلونها غاية جدهم ومنتهى أملهم ، وشعرت بأن وجودها الحى بيننا يقتضى دوام محاولة السمو لدرك هذه الغاية . وكلما تنزهت هذه المعانى عن مناسبات الحاضر وبلغت فى روعة تصويرها مايرجى للكون كله من كمال كان الشعر أكثر شعراً وأكثر أداء للغرض المقصود منه وأكثر تحقيقاً لرسالته السامية فى هذا الوجود .

فن القصص

تكاد القصة اليوم فى الغرب تستأثر بالأدب المنثور كله . وهى لا ريب تتقدم كل ماسواها من صور هذا الأدب. فالرسائل التى كانت ذات مكانة سامية فى زمن من الازمان قد اختفت او كادت، والقطع الوصفية القائمة بذاتها ، والمكاتبات الأدبية الطريفة الاسلوب، وما الى ذلك من انواع النثر، قد اندمج فى القصة واصبح بعض ماتشتمله. وانت اذا سمعت اليوم بكتاب رسائل لكاتب معروف كحديقة ابيقور لاناتل فرانس والحكمة والقدر لماترلنك وغيرها من مثلهما لم تجد لها فى عالم الأدب من المكانة مثلما كان لرسائل مونتنى فى القرن السادس عشر ولبعض رسائل روسو وفولتير فى القرن الثامن عشر . واصحاب هذه الرسائل انفسهم انما يكتبون كتب رسائلهم على سبيل التنويع بين العدد الكبير من القصص التى تجود بها قرائحهم . ولم يذكر كاتب فى النقد الحديث ان كتابا من كتب الرسائل قد أثر فى سيرة الجماعات اثر قصة من القصص ، فى حين يذكر كثير من هؤلاء الكتاب ما كان لقصة اميل فى التربية (لروسو) ولرواية فرتر الخالدة (لجيتى) ولبعض روايات فلوبير وزولا وفرانس وبول بورجيه وغيرهم من بالغ الأثر . بل ان كثيرين ليعترفون بان القصة الروسية فى العصر الاخير منذ تولاها

دستويفسكى وترجنيف وتلستوى كانت ذات أثر بالغ فى توجيه الحياة الاوربية كلها .

ويذكر مؤرخو الآداب ان فن القصص على الصورة المعروفة اليوم فى الغرب فن حديث . لكنهم يذكرون كذلك أن القصص لذاته قديم يرجع إلى أيام اليونان ويرجع الى ماقبل أيام اليونان فى مصر والصين . ويسير أن يقدر الانسان قدم القصص وانه نشأ مع الانسانية منذ نشأت ثم تطور بعد ذلك فى صور مختلفة إلى أن وصل إلى الصورة الفنية المعروفة اليوم فى الغرب . وأقرب دليل على ذلك ما نشاهده من ارتياح الاطفال للقصص وانصاتهم لها وعظيم استمتاعهم بها. كذلك نرى أشد أنواع الأدب أثراً فى نفس الجماهير أيا كان مبلغ الحضارة التي بلغتها ، هوهذا النوع . وهؤلاء «الشعراء» الذين يذهبون الى الأرياف وإلى مقاهى المدن يقصون حكايات عنترة وأبى زيد ودياب بن غانم يستثيرون من حماسة الجماهير بأدبهم القصصى هذا مالا سبيل إلى مثله عن طريق غير القصة من صور الأدب . والأطفال والدهماء هم صورة الانسانية فى بدء حياتها . وإذن فقد كانت هذه الانسانية مولعة بالقصص منذ نشأتها ، وقد كانت القصة من أولى الصور للفن الأدبى ظهوراً فيها .

إلى جانب هذا الدليل دليل آخر يضارعه قوة أو يزيد عليه . ذلك ان الحياة من اولها الى آخرها قصة تتكرر فى صور مختلفة باختلاف الافراد واختلاف الازمنة والامكنة التى يعيشون فيها . ثم ان حياة كل فرد من الافراد تتكون فى مجموعة من القصص الصغيرة او الكبيرة . وماذا تراك تذكر لصاحب لك حين تراه

بعد انقطاعك عنه اياما او شهوراً او سنين ؟ اولا يسأل كل منكما الآخر عما فعل الله به اثناء انقطاعكما فيقص عليه صاحبه ما حدث له فى هذه الاثناء وما وقعت عليه عينه او اتصل به خبره ؟والقصة كفن لا تزيد على جمع هذه الاخبار التى يتحدث الناس بعضهم الى بعض بها واختيار طائفة من بينها وخلق صورة حية منها تمثل عالماً خاصاً له مميزاته واشخاصه وما وقع لهؤلاء الاشخاص من خير وشر وما اثروا فى البيئة المحيطة بهم وما تأثروا بهذه البيئة .

ونحن واجدون من رواية التاريخ مايعزز هذين الدليلين ويزيدهما قوة . ولسنا فى هذه السبيل بحاجة الى استقصاء تاريخ الامم المختلفة فى الازمان العريقة فى القدم . بل يكفينا أن نرجع الى التاريخ الدينى والى الكتب المقدسة نفسها . فهذا التاريخ يقص على الناس من اخبار من تقدمهم مافيه لهم موعظة وعبرة . والتاريخ لذاته ليس إلا قصصاً يسبغ عليه كل مؤرخ من خياله مايسبغ على حياته قوة وفيضاً . كما أن القصة ليست إلا تاريخا إن يكن أبدعه خيال كاتب أو أديب فهو انما أبدعه من واقع الحياة . وكثيرون من القصصيين يلجأون الى التاريخ يستلهمونه مادة قصصهم كلها . فوالتر سكت فى انكلترا واسكندر دوماس فى فرنسا انما اتخذا من تاريخ انكلترا ومن تاريخ فرنسا مادة قصصهم جميعا . وهم قد أسبغوا على هذه القصص من خيالهم قوة تجعلنا نتشكك الى حد كبير فى صحة كل الوقائع التى يروونها وإن كان خيالهم يزيد هذه الوقائع رواء وروعة عما كانت الوقائع التى حدثت بالفعل . ومن لا يلجأون الى التاريخ من القصصيين انما يلجأون الى ملاحظة الواقع

امامهم وتدوين مشاهداتهم فى قصصهم. وهذا هو الآخر نوع من التاريخ . هو تاريخ الحاضر فى حين ان السابق تاريخ الماضى. ولذلك كثيراً ما يلجأ المؤرخون الى ما كتب فى عصر من العصور من قصص وما وضع اهله من رسائل يستلهمون هذه الصور الحية من فنون الأدب ليرسموا صورة صحيحة من الجمعية التى عاش هذا الأدب بين اظهرها . هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هى التى جعلتنا نستشهد بالتاريخ الدينى للدلالة على قدم القصة . كذلك جعلنا نستشهد بهذا التاريخ انه لم يرو ما روى من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها ، وانما رواها عبراً ومزدجراً. والرواية للعبرة والزجر تقتضى اختيار وقائع معينة من حياة من سبقوا يكون فيها موضع العبرة ، كما تقتضى صياغة هذه الوقائع فى الاسلوب القوى الذى يدخل العبرة الى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة عن ان تفهمها. والقصاص المؤرخون الذين يكتبون بهذا الاسلوب ولهذه الغاية يقيمون فناً من فنون الادب . ومن أسمى فنون الادب .

ولقد اتهم الأدب العربى القديم خطأ بخلوه من القصص . وكانت دعامة أصحاب هذه التهمة أن ليس فى الأدب القديم من القصص والقصائد القصصية المطولة مثلما فى تاريخ اليونان . لكن القصص كما أسلفت قديم . وهو فى الحقيقة قوام الأدب العربى المنثور كله . وبحسبك ان ترجع الى أى كتاب من امهات كتب الادب لتراه جامعاً بين دفتيه من الاقاصيص القصيرة ومن القصص الطويلة مالا شبهة عندى فى ان الخيال كان له الاثر الاول فى وضعه ، وانه لذلك بعض فنون الادب . ولهذا لا يصح اخذه حجة تاريخية على

الوقائع التي رواها وان صح اتخاذه حجة على نفسية الأمة الاسلامية في الاوقات التي انشيء هذا الادب فيها واعتباره وثيقة وسنداً تاريخياً من هذه الناحية . وبحسبك ان تعود الى كتاب الاغاني والى كتاب العقد الفريد والى كتب الامالي لترى مادة الأدب فيها مقصورة على رواية قصص الغرام او الحماسة او ما اليها من انواع الرواية . ويتعذر على ان اعتقد ان الرواية التي يروونها عن حروب وائل وما فيها من الاشعار المنسوبة لجليلة ولغير جليلة تمثل وقائع تاريخية . ولست بهذا انكر وقوع هذه الحروب كما لا انكر جمال الرواية التي رويت عنها وما للعرب في ذلك على التاريخ والأدب من فضل . لكني اعتقد ان الرواية الادبية الجميلة التي وضعت لهذه الحروب والاشعار التي وضعت على لسان ابطالها إنما وضعها اديب قصاص اراد بما خلعه عليها من روعة الفن ان يجعلها اعذب في النفس واسلس مدخلا اليها. وهو في ذلك انما صنع ما صنع هوميروس حين وضع الياذته واجرى فيها على لسان ابطال تاريخ اليونان ما اجراه من ادب رائع هو لليونان فخر لانه من وضع هوميروس اليوناني، وهو لتاريخ اليونان فخر كذلك لأنه يمثل بطولتها وشهامتها في خير صورة يمكن ان تمثل فيها . وكتاب الاغاني فيه من هذا القصص الادبي البالغ ذروة الفن الشيء الكثير ، وان هو لم يكن قد نسج على منوال القصة الحديثة ، لأن القصة الحديثة لم تظهر في الغرب نفسه — على ما يقول الباحثون استناداً الى مؤرخي الأدب الغربي — الا منذ قرنين اثنين.

ولقد تطور الأدب القصصى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى اوربا فى صور والوان عدة. وهو لاشك سيتطور من بعد فى صور والوان عدة اخرى . ذلك بأن القصة تمتاز على غيرها من صور الادب بأن ليس لميدانها حد إلا الخيال ؛ وليس لتطورها آخر إلا ما ينتهى اليه تطور الجماعات إن امكن ان يكون لهذا التطور نهاية. فهى بعد ان تحررت من قيود الادب اليونانى والأدب الرومانى ؛ فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ تطورت من الأدب الوجدانى الذى انشأه روسو بقصته الكبيرة (هلويز الجديدة) إلى انواع متعاقبة من الأدب اطلقت عليها اسماء مختلفة حسب الغاية التى يتوخاها القصاصون من قصصهم . فسميت الأدب الواقعى . او الطبيعى . او النفسانى . او التصويرى. او الاخلاقى . اوالفلسفى ؛ او ما إلى ذلك من مسميات ليس من غرضنا هنا تحديدها ولا الحديث عنها . لكن مالا ريبة فيه انها كانت تمثل صورة من ميول العصر واخلاقه ونزعات اهله . وبخاصة من يتجه هذا الأدب اليه منهم . فكما ان ادب القرن الثامن عشر كان يتجه قبل كل شىء إلى الذين تجمعهم الصالونات والذين كانوا يضعون العواطف والغرام فوق كل اعتبار آخر . ولذلك غلب الأدب الوجدانى فيه ماسواه . وكما ان ادب القرن التاسع عشر كان اكثر ذيوعاً بين طبقات الأمة واكثر تأثراً بالمبادىء العلمية التى ظهرت فى ذلك العصر ، ولذلك تخطى الوجدانيات الغرامية إلى تمثيل الواقع فيما كتب زولا وفلوبير وموباسان على اختلاف النزعة التى نزع اليها كل واحد منهم ؛ كذلك تخطى أدب القرن الذى نعيش فيه — والعهد الأخير من القرن التاسع عشر — الرياليسم

والناتورالسم ، الى صور اخرى بدت مختلفة فى ادب لوتى وانا تول فرانس وبول بورجيه وجول لومتر وغيرهم، ولكنها تعبر جميعاً عن ميول العصر العلمية وعن الحرص على الطرق التحليلية فى البحث وعما تدفع اليه هذه الطرق التحليلية فى احيان كثيرة من التشكك واللاأدرية . وها نحن اولاء نرى فى وقتنا الحاضر الرواية النفسانية تجاور الرواية الاباحية ؛ لان هذا العصر الذى تمخضت الحرب عنه لما يهتد الى سبيل تتحد فيه الغاية وان اختلفت فيه وجهة النظر ، وهو مدى يجمع بين المتناقضات ، لعل احتكاكها يثير منها شرراً يهديه الطريق الى الحق والى السعادة بعد ما انبهم عليه هذا الطريق وبعد ماضل فيه رشاده .

* * *

نستطيع أن نقول ان القصة تطورت فى الادب العربى بما يجعلها تمثل عصوره المختلفة الى عصرنا الحاضر . واذا كانت لدينا بعض قصص تمثل تفكير عصر من العصور كما تمثل قصة حى ابن يقظان التفكير الدينى الحر فى عصر ابن الطفيل ، فان مايزهى به الادب العربى بعد ذلك من قصص فيه من الخرافة الشىء الكثير . هى لا ريب خرافة قوية ، لا تقل روعة ولا انفساح خيال عن اساطير الميثولوجيا المصرية واليونانية القديمة ، لكنها مع ذلك تمثل حالا نفسية لعصور لا غلو فى تسميتها عصور التدهور. فكتاب « الف ليلة وليلة» الذى جمع القصص الرائعة الخيال الباهرة التركيب والذى لا يزال عند الامم كلها يعتبر مصدراً من مصادر الادب القوى لايخلو فى كثير من اجزائه من الخرافة التى كانت سائدة فى العصر

او العصور التى كتب فيها . وبرغم مافيه فى كثير من الاحيان من دقة تصوير الواقع من حياة الاسرة وحياة الجماعة تصويراً مضبوطا قائما على اساس من الملاحظة الصحيحة فان مايبلغه الخيال فيه من رسم صور الجن واخبارهم ومن الحديث عما فى الهند والسند وغيرهما من آثار لم تعرفها الهند والسند إلا فى مخيلة اصحاب هذا الكتاب العربى، يدل على عقلية خاصة كانت تسيغ هذا النوع من التفكير وتعتبره مصدراً للحقيقة . فأما قصة عنتر والزير سالم وسيف بن ذى يزن ورأس الغول وما اليها فدون ألف ليلة وليلة فى خصب الخيال وان كانت تزعم انها تعتمد على وقائع التاريخ اعتماداً قصصياً ليست له روعة الف ليلة وليلة ولا قوته . وهى مع ذلك تصور الحياة العقلية للعصور التى ظهرت فيها وتدل على ميول اهل تلك العصور ونوع حياتهم .

وقد تكون هذه القصص التى ذكرنا اخر ما نعرف من القصص العربى . وهى على الأقل آخر مانعرف من القصص الذى يستحق ان يضيع الانسان شيئاً من وقته فى قراءته . ثم كانت بعد ذلك فترة ركد فيها القصص حتى فى صوره التافهة كما ركدت سائر صور الأدب. وقد لايجازف من يقول بأن القصص يحاول الآن استعادة حياته. على ان الأقاصيص الصغيرة التى تظهر من حين إلى حين والقصص التى لم يظهر بعد منها مايعد على الأصابع ماتزال بعيدة عن ان تعتبر بعثاً لهذا النوع من الأدب . ذلك بأن القصة ، ايا كانت الحوادث التى ترويها ، انما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى فى نفس كاتبها. لتكن هذه الفكرة تافهة وليكن المثل الأعلى وضيعاً ، فهما على

كل حال يترجمان عن غرض يتطلع صاحب القصة اليه . بل ان القصص التي تكتب للتسلية ليس غير ، والتسلية العامة لا الخاصة كالقصص البوليسية ونحوها ، لا يمكن ان تخلو من التعبير عن فكرة في نفس الكاتب . فأما القصص التي تسمو فوق هذا المستوى ، وأما القصص التي تعتبر بحق أدباً وفناً ، فالفكرة والمثل الأعلى يتكرران خلالها واضحين في صور مختلفة وألوان شتى . قد يختلف وضوح الفكرة والمثل الأعلى باختلاف مقصد الكاتب . فقد تكون الفكرة ويكون المثل الأعلى هما الغاية من القصة ويكونان لذلك هما الواضحين فيها كما ترى في قصة حي بن يقظان وكما ترى في قصة إميل عن التربية لروسو وكما ترى في قصص الوزير الانجليزى الكبير دزرائيلي الذى كان كلما ترك الحكم والبرلمان عاد يكتب القصص يمثل فيها ما يجول بخاطره من صور اصلاح الجماعة الانجليزية . وقد يكون قصد الكاتب الى غير الفكرة . قد يكون قصده فنياً بحتاً . لكن كل انسان واسع الخيال محب للجمال قدير بذلك على ان يبدع في الفن ، لا يمكن ان يلهم في فنه مالم تكن له فكرة يرمى اليها ومثل اعلى يطمح في تحقيقه . فالادب فن . وكل واحد من ارباب الفن لا تحركه فكرة ولا يستهويه مثل أعلى لا قيمة لفنه ولا بقاء . والقصة في الادب العربي الحديث ماتزال أغلب أمرها تستلهم القصة الغربية مقلدة إياها في صورتها غير صادرة في نفس الوقت عن فكرة ومثل أعلى يحركان نفس صاحبها . واذا كان التقليد في أغلب الأحيان مقدمة البعث ، وكان تقليد الأدب اليوناني والروماني مقدمة بعث أوربا في القرن السادس عشر ، فان البعث الصحيح هو الذى يقوم

على فكرة ويلهم مثلا أعلى . فالى أن نصل الى التأليف القصصى القائم على هذا الأساس فنحن انما ننفخ فى حياة القصص روحا تقليدية صرفة ، روحا لا يسمى بعثاً حتى يستقل بنفسه ويستمد كل مقومات حياته من البيئة المحيطة بالكاتب ومن القومية والوراثة التى يخضع الكاتب لأثرها .

والحقيقة ان القصص على انفساح ميدانه وتشكل صوره وألوانه . لا يكفى فيه مجرد المحاكاة والتقليد إذا أريد به أن يكون ذا قيمة تكفل له أن يحشر فى ظاهرات فن الأدب . لذلك كان الكتاب القصصيون الذين استحقوا البقاء وحفظ لهم التاريخ شيئاً من التقديس من ذوى السعة فى العلم والاطلاع الى جانب مالهم من موهبة الفن فى التصوير والأسلوب . هؤلاء يحرك اطلاعهم فى نفوسهم الافكار المختلفة وينتهى بهم تفكيرهم الى مثل أسمى يطمحون اليه . وقد ينحو غيرهم ممن لم يوهب هبة الفن نحواً آخر فى تدوين ماهدته اليه أفكاره وتصوير المثل الأعلى الذى يرجو أن تصل الانسانية اليه . من بين هؤلاء الفلاسفة والحكماء . لكن الفلسفة غذاء جاف للسواد الاعظم من الناس فهم لا يسيغونه ولا يطيقون هضمه . أما القصة التى تحتوى هذه الفلسفة وتلك الحكمة فتشتملهما على صورة غير تلك الصورة المطلقة الجافة . هى تحتويهما بعيدين عن التجرد ملابسين للحياة فى مختلف صور الحياة على مايعرفها السواد بحواسه لا على مايستشفها الحكيم والفيلسوف بمنطقه وبصيرته . هى ترسم الحياة على مايراها ويحسها عامة أهل الحياة ، وترسم معها مافى الحياة من حقائق وما تصبو الحياة اليه عن طريق المثل الأعلى

من كمال .. وهى ترسم ذلك متصلا بعواطف الناس ومشاعرهم وبالواقع المحسوس فى الكون وبالمشاهد فى الافلاك وبما سوى ذلك مما لا يستعصى على الادراك ولا يحتاج لانقطاع خاص ولدراسة خاصة قد يحولان دون الشخص وأن يدرك كثيراً مما فى الحياة غير ما انقطع له واختص به.

وقد حدت طبيعة الفن القصصى هذه ببعضهم الى القول بأن الأدب انما يعبر عن انصاف الحقائق على حين تعبر العلوم وتعبر الفلسفة والحكمة عن الحقائق عريانة واضحة فى جميع نواحيها. ولست أدرى هل التعبير عن الحقيقة الكاملة مما يدخل فى باب الممكنات وها نحن أولاء مانزال نرى العلم يهدم مقررات العلم نفسها الحين بعد الحين، كما أنه لا يفتأ يهذب هذه المقررات فى آونات متقاربة. على أنه إن صح ان الفن يعبر عن انصاف الحقائق لا الحقائق الكاملة فان مافى طبيعة الفن من سهولة التناول بما يمكن القارىء من التحصيل منه أضعاف ما يحصل من مقررات العلم قد يكشف له أنصافا وأنصافا من الحقائق يجلو له الحقيقة كاملة آخر الأمر. وبعد فهل يستلهم الفن غير العلم فى آخر صوره؟ وهل يعبر إلا عن آخر مقرراته؟ هذا الى أن الفن كثيراً ما يسبق العلم الى الكشف عن الحقائق، وكثيراً ما يصل الهام الفنان الى ما تضطرب أمامه أدوات العلم عصوراً وعصوراً قبل أن تصل الى اقرار ما كشف الفن عنه. وإن كثيرين من العلماء الجنائيين وغير الجنائيين ليرون فى كثير من روايات شكسبير أقباساً من الهام الفن كان يعتبرها العلماء بعض نزغ الخيال فى الماضى ثم انتهى العلم الى الاعتراف بصحتها

ودقتها . من ذلك وصف شكسبير لمكبث حين قتل دنكان وظل ويداه ملوثتان بالدماء يضطرب أمام جريمته ويناجى نفسه بأن ما فى الارض من بحار والغيث يمدها بتهتانه لا تكفى لتطهير يده من الدم . كم رأى الناقدون فى هذا من عبث الخيال حتى اثبت العلم الجنائى صحة ما ذهب اليه شكسبير من أن الجانى لا يحرص فى فزعه مما اجترحت يداه على ستر آثار جنايته بينا هو شديد الحرص على التمسح بهذه الآثار . كذلك قل عن هملت وجنونه . فقد اثبت العلم ما بلغه الهام شكسبير من توفيق لم يصل العلم اليه الا بعد مئات السنين من بعد شكسبير . فاذا قيل مع هذا ان الأدب انما يعبر عن انصاف الحقائق كان لنا ان نقول ان الادب ، والفن القصصى بنوع خاص ، هو الكفيل بنشر ما يكشف العلم عنه من حقائق ، كما انه طليعة العلم فى استلهام الحقائق يضعها أمام العلماء لبحثها وتحقيق صحتها .

وللفن القصصى الى جانب ذلك فضل الهام غيره من الفنون الجميلة . فهو أسبق من الشعر ومن التصوير ومن الحفر بل من الموسيقى نفسها الى انتقاط صور حياة الجماعة التى يعيش فيها واثباتها على الورق . ثم هو أقدر من هذه جميعاً على رسم أمل الجماعة فى المستقبل وتصوير المثل الأعلى التى تصبو الى تحقيقه .

وكم من القصص الخيالية حاول أصحابها فيها أن يصفوا حياة الجماعة على ما يجب أن تكون ، وان يصوروا المدينة الفاضلة ، اذا نحن أردنا ان نستعير عبارة الفارابى . وكم من قصص اريد بها التهذيب والتعليم . وكم من قصص غيرها قصد بها الى مختلف الاغراض مما يجعلك فى حل من القول بان مكان القصة من الفن

الادبى يتناول نواحى هذا الفن الادبى جميعاً كما يلهم الفنون الاخرى أجمل إلهام واسماه .

***

مع أن هذا شأن القصة وهذه مكانتها من آداب الامم المختلفة فانها ما تزال فى ادبنا العربى فى حال من الركود حتى لنكاد نقول انها لم توجد . فالقصص التى كتبت فى نصف القرن الأخير تعد على الأصابع . واذا كان أدب الاقصوصة قد انتعش فى السنين الاخيرة فانه مايزال فى بدايته من ناحية، والاقصوصة شىء والقصة شىءآخر فى فنون الأدب من الناحية الأخرى. فما هى العلة فى ضعف أدب القصص وفى فتوره وركوده؟ هذا مايتناوله بحثنا فى الفصل التالى .

سبب فتور القصص

ينشر الاستاذ « جب » الاستاذ بمعهد الدراسات الشرقية فى لندن، دراسات مستفيضة باللغة الانكليزية عن الادب العربى الحديث. وقد تناولت هذه الدراسات النثر العربى والشعر العربى وسائر فنون الادب العربى الحديث فى هذه الفترة الأخيرة من حياة مصر الادبية، كما تناولت تطور الادب فى القرن التاسع عشر وتأثره بادىء الأمر بالآداب العربية القديمة وبشعر الجاهلية وعصور الاسلام الأولى بنوع خاص ، ثم تأثره بعد ذلك بالآداب الغربية ، وبالآداب الفرنسية والانكليزية بنوع خاص . وقد وقف من بحثه عند فن القصص والرواية من فنون الأدب، وأشار الى أنها لم تتأصل بعد فى الآداب العربية، وتكلم فى هذا الباب عن قصص شوقى وعن « عيسى بن هشام » للمويلحى وعن روايات جورجى زيدان التاريخية ثم وقف وقفة خاصة عن « زينب » وقال انها الأولى من نوع القصص الحديث، وتحدث بعد ذلك عن « ابراهيم الكاتب » للاستاذ المازنى وأشار الى قصة « الايام » التى قص فيها صديقنا الدكتور طه حسين فصولا من حياته تشعر وأنت تقرؤها بأنك تقرأ عواطف فياضة تنتقل الى نفسك

وتطبع فيها فتعجب بها الى جانب إعجابك بالالفاظ وموسيقاها وجمال نظامها أشد إعجاب

ووقفة مستر «جب» عند فنون القصص والرواية فى الادب العربى ليس بالشىء العجيب ، وليست هى الوقفة الاولى من جانب من تصدوا لدراسة فنون هذا الادب فى عصرنا الحاضر. فكثيرون من المستشرقين ، ومن الكتاب المصريين أنفسهم، وقفوا هذه الوقفة متسائلين عن السبب فى عدم ذيوع هذا الفن من فنون الادب سواء فى الشعر أو فى النثر بيناهو قد يقف من الادب الغربى فى الذروة من كل فنونه. والحق أن هذا الاقلال الغريب فى فن القصة والرواية يدعو الى العجب والى الدهشة . وهو كذلك بنوع خاص فى مصر. فللمصريين فى تاريخ الادب القصصى مكان كريم ، إذ يرجع اليهم — على أرجح الروايات — فضل وضع ألف ليلة وليلة وكثير من القصص المتداولة اليوم والتى كتبت فى عصور سابقة لم تصل دراسة الادب الى تحقيقها تحقيقا مضبوطا . ثم ان حب الرواية والقصص فى الطبيعة المصرية ، حتى لتجد أهل القرى أحرص الناس على رواية الكثير منها لابنائهم وذويهم وأصدقائهم فى الكثير من أوقات فراغهم. وليست الحوادث الوجدانية بالقليلة ولا بالنادرة الوقوع حولنا حتى تتهم الحياة المصرية بأنها قاصرة عن إلهام هذا الفن إلهاما قويا . ومسارح القصة فى الطبيعة المصرية كثيرة ، كما أن لهذه الطبيعة من الجمال وتعدد صوره وألوانه مايعاون الكاتب على أن يخلق لقصصه مختلف البيئات ذات الاثر فى إلهام عاطفة من العواطف أو مأساة من المآسى أو مهزلة من المهازل . فكيف ، وهذا هو

الواقع ، يكاد الأدب العربى الحديث يخلو من القصة والرواية ؟ والى اى سبب يعزى هـذا النقص المعيب فى فن مكانته من فنون الادب المكانة الاولى ؟

يحلو لبعض الكتاب من المستشرقين وغير المستشرقين ، أن يعزو السبب فى هذا النقص الى ضعف فى الخيال يحول بينه وبين تأليف مجموع القصة . والى مثل هذا السبب يعزو اولئك الكتاب اقتصارا كثر كتاب مصر وأدبائها على نشر الرسائل الموجزة . وما احسبنى بحاجة الى الاطالة فى دحض هذا الزعم بأكثر من الاشارة الى ما يقوله كتاب الغرب وساسته طعنا على الشرق بأنه خيالى وبأنه لذلك لا يقدر الطريق العلمية فى البحث ولا فى سياسة الدولة . وكيف يمكن أن يكون الشرق خيالياً وضعيف الخيال فى وقت معاً ! ولم يكون خيالياً فى العلم والسياسة حيث يكون الخيال مفسداً ، ثم يضعف خياله فى الفن القصصى للأدب حين يكون الخيال المتصل بواقع ما فى الحياة هو المرشد الأول لاتقان هذا الفن ! أليس هذا كافياً للدلالة على أن الاتهام بالاسراف فى الخيال وبضعف الخيال يقصد به فى الحالين الى الطعن والتجريح لغايات لا ترضاها الحقيقة ولا تعاون على حسن تفاهم الامم بعضها مع بعض . وان الغرض الحقيقى منه تثبيت الايمان فى نفس أمم الغرب بأنها متفوقة على الشرق فى كل شيء تفوقا يجعل حقاً لها أن تحكم أمم الشرق هذه وتستغلها من غير أن يكون فى ذلك اعتداء على ما للأمم من حق فى الحرية والسعادة ! وليس أدل على أن هـذه هي الغاية الحقيقية من تلك الدعاية التى يلبسها أصحابها ثوب البحث العلمى والتاريخى والتى يؤيدون

بها ما يدعيه بعض ساسة الغرب من أن الاقدار القت عليهم عبء تحضير أمم الشرق وتمدينها ؛ على حين أن مطامعهم هى التى ألقت عليهم عبء العسف بأمم الشرق والاستبداد بشؤنها .

ويعزو كتاب آخرون السبب فى نقص فن القصص والرواية فى الآداب العربية العصرية الى اختلاف مابين لغة الأدب ولغة الكلام اختلافا يجعل قراء الأدب الراقى قليلين الى حد يفت فى عضد الكتاب ويصدهم عن المضى فى سبيلهم . وفى هذا السبب ظاهر من الوجاهة . لكنه لا يعدو أن يكون ظاهراً فى اعتقادنا . فان فن القصص فى الأدب الغربى يرجع الى أول أيام « البعث » الأوربى فى القرن الخامس عشر . وفى ذلك العصر كان بين لغة الأدب ولغة الكتابة اختلاف لا يقل عن الاختلاف الموجود اليوم فى اللغة العربية بين لغتى الكلام والكتابة . مع ذلك ازدهرت حياة الأدب فى أوربا وكان للقصص وللرواية مكان رفيع منذ القرن السادس عشر ؛ بل منذ القرن الخامس عشر فى انجلترا . فهذا السبب وحده لا ينهض إذاً حجة للنقص الذى يلاحظه الكل فى شأن القصة والرواية العربية اليوم . ولابد أن يقترن به سبب آخر لم يكن موجوداً فى الغرب على حين هو موجود فى الشرق ؛ وهو الذى يدعو الى تثبيط همة الكتاب عن القصة والرواية . بل لعل هناك أكثر من سبب واحد كما سنشير اليه من بعد

ويجب كذلك أن نهمل مايتهم به بعضهم كتاب مصر والشرق العربى من الميل إلى الكسل ومن قلة الانتاج . فكثيرون من الكتاب المصريين ليسوا أقل خصبا فى الانتاج من أكثر كتاب

الغرب انتاجا . لكن انتاجهم لايتجه كله الى ناحية القصة والرواية بل يتوزع مجهودهم فى نواح شتى . اذا هى جمعت دلت على عظيم ما يقومون به من مجهودوما يؤدونه إلى لغة بلادهم وآدابها من خدمة. وما أظننى مغالياً اذا أنا قلت أن كثيرين منهم أكثر مداومة للاطلاع وتدقيقاً فيه من كثير من كتاب الغرب . كما أن منهم من هم أعمق بكثير من الكتاب فى بعض أمم أوربا المختلفة. ويكفى أن يرجع الانسان إلى آثارهم ما نشر منها ومالم ينشر . ماجمع منها وما لم يجمع. ليقتنع اقتناعا صادقا بأنهم يقومون ، فى هيئة لاتقدر عملهم التقدير المشجع، بمجهود الجبابرة، ثم لا يبتغون من ورائه جزاء ولا شكورا .

ماهو السبب الصحيح إذاً فى فتور الأدب العصرى عن القصة والرواية ؟ أو بعبارة أدق ماهى الاسباب المجتمعة التى أدت الى هذا الفتور. وبخاصة فى مصر حيث الميل إلى القصة أصيل فى النفس منذ أبعد عهود تاريخنا حتى الوقت الحاضر ؟ أشرت الى أن اختلاف لغة الأدب ولغة الكلام مما يراه بعضهم سبب الفقر فى القصة والرواية ليس إلا سببا ظاهرا لا يمكن أن ينهض وحده للدلالة على هذا الفقر . وبخاصة أنه لم يحل فى أول « البعث » الأوربى دون ازدهار هذا الفن من فنون الأدب . والواقع أن هذا السبب يجب أن يضاف اليه أكثر من سبب آخر ، ليكون بعض مايمكن الاحتجاج به على هذه الحالة التى استوقفت نظر مسترجب واستوقفت من قبله أنظار كثيرين . وأول سبب يجب أن يضاف اليه ذيوع الامية وعدم انتشار التعليم فى الشرق انتشاراً كافياً . فهذه الامية الذائعة تحول بين الجمهور وقراءة

القصص كما تحول بينه وبين الاستماع لها مع تقدير ماتحتويه من فنون الأدب ، لجهل الجمهور بهذه الفنون من جهة ؛ ولأنه لواستمع لها لما زاد ذلك انتشارها بما يعوض صاحبها العوض المادى الذى يشجعه على المضى فى كتابة مايوحيه اليه خياله قصة بعد قصة . وقد يكون ذيوع الأمية من الأسباب التى تسرع الى الزوال مع سير حركة التعليم الجديدة بهذا النشاط العظيم الذى تسير به فى بلاد الشرق جميعاً . ومع نجاح المجددين فى جعل أساليب الكتابة بعيدة عن ذلك التعقيد الذى كان يعتبره أسلافنا المباشرون ؛ ومن لايزال منهم من يعيش بين أظهرنا . مقياس البلاغة والدليل على الاقتدار فى الفن ؛ لكنه مايزال باقياً ومايزال من آثاره هذا الفتور الذى يقعد بالكاتب عن متابعة السير فى فن القصص ويعدل عنه الى ناحية أخرى من الكتابة أجدى عليه وإن لم تكن أجدى على الأدب لذاته .

يضاف الى ذيوع الأمية فتور السراة والأغنياء عن تعضيد الأدب كله ؛ وعن تعضيد الأدب القصصى بنوع خاص ؛ تعضيداً هو الذى شجع كتاب أوربا فى القرون التى تلت « البعث » والتى كانت كعصرنا هذا غير بارة بالكتابة وبالكتاب . فالى لويس الرابع عشر يرجع أكبر الفضل فى بقاء الشعر الخالد الذى خلفه راسين وكورنى وموليير ولافونتين، والى تعضيد السراة والاغنياء الفضل فيما خلفه روسو وفولتير وديدرو وهلباخ وغيرهم من كتاب القرن الثامن عشر . وأحسب عذر سراتنا وأغنيائنا عن فتورهم هذا أنهم لايجدون من السيدات دافعا الى هذا التعضيد . فقد كان لسيدات قصر لويس،

الرابع عشر الأثر الاكبر فى تعضيده كبار شعراء العصر وكتابه، ولسيدات صالونات الأدب الكبرى فى القرن الثامن عشر الأثر الاكبر فى حماية كبار كتاب ذلك العصر وتشجيعهم . ومع ما كان بعض هاتيك السيدات يتهمن به من الخفة والطيش ؛ فانهن قد أدين لبلادهن أجل خدمة بما ظهرن به معضدات لفن من أرقى الفنون وأجلها . ولو أن كتاب الشرق وجدوا مثل ماوجد كتاب القرن السابع عشر من تعضيد لويس الرابع عشر ؛ ثم لو أنهم لو وجدوا من حماية فضليات السيدات وعطفهن وتشجيعهن ماوجد أولئك وماوجد كتاب القرن الثامن عشر من بعدهم؛ ثم مالايزال الكتاب يجدونه حتى العصر الحاضر على صور تتفق مع حياة هذا العصر الذى نعيش فيه؛ إذن لرأيت الادب العربى .ولرأيت الادب القصصى بنوع خاص ؛ يجد من صور الالهام مالم يعرف حتى يومنا هذا ، ثم لوجدت فيه نشاطاً وجدة وابداعا وفيض خيال ماأظن الغرب يستطيع أن يسابق الشرق فيه ؛ وما أجزم بأنه لن يستطيع أن يسبقه ان هو حال مسابقته .

ولاأريد لأى اعتبار من الاعتبارات أن أضعف من خطر هذا السبب من أسباب فتور الأدب كله ، وفتور الأدب القصصى والروائى منه . فلم يكن أثر السيدات فى الغرب وحده هو الذى حفز الأدب الى نهضة كبرى كالتى نهضها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بل كان أثرهن هو الذى حفز الأدب دائما فى كل الأمم وفى كل العصور . ولن تعوزنا الأمثال اذا نحن رجعنا الى العرب فى الجاهلية وفى صدر الاسلام وفى أيام عظمته وازدهاره . وليس من المطلعين

على الأدب العربى واحـد لايعرف ما كان لسكينة بنت الحسين بن
على بن طالب وحفيدة فاطمة ابنة النبي عليه السلام من أثر فى الأدب
وانهاضه وتشجيعه . هـذا ؛ ولم تكن سكينة منفردة بذلك العمل
وان كانت منفردة بين ضريباتها فيه بشرف حسبها ونسبها واتصالها
أقرب اتصـال بالنبي العربى . وليس فى ذلك من عجب . فالقصـة
والرواية إنما تصور الحياة تصويراً صادقا تمليه العاطفة ويحلله العلم .
ولاسبيل الى هذا التصوير الصادق مالم تشـترك المرأة فيه بوحيها
وبالهامها ؛ ومالم يتصل هذا الوحى والالهام ليجددا نفس الـكاتب
أوالشاعر وليدفعا اليه حياة فتية جـديدة كلما آذنت قوته بالفتور
أوالضعف . وهذا الوحى والالهام من جانب نصف الانسانية الثانى
هو فى كثير من الاحيان خير عزاء عما يفقده الـكاتب أو الفنان من
ربح مادى ؛ بل فيه دافع الى التضحية بهذا الربح المادى فى سبيل
الفن مادامت أدوات هذا الفن كاملة .

وهـذا فى رأينا هو السبب فى أن كثيرين من الذين يكتبون
قصصهم فى الشرق يقفون عند القصة الاولى يروون فيها تاريخ
عاطفتهم الاولى حين كان الشباب مايزال كافيا يدفعهم لتخليد هـذه
الصفحة من صحف حياتهم ؛ فاذا وقعت لهم بعد ذلك تواريخ عاطفية
أخرى ولم يكونوا قد وجدوا التشجيع من ربح مادى او رعاية
عظيم أو تشجيع سـيدة مهذبة تعرف كيف ترتفع بهم الى ما فوق
الاعتبارات الثانوية فتقوى ضعفهم وتلقى عنهم غبار فتورهم ؛ نزعوا
الى الناحية التي يرونها أوفر كسبا وأكفل بالشهرة وبالمجـد ؛ وان

تكن شهرة سريعة الانطفاء ومجدا مقضيا عليه بالزوال .

وما دمت قد أشرت الى السيدات وأثرهن فى الادب فيجب أن أذكر فى جوارهن أن ضعف أدب القصص والرواية ، كضعف استمتاعنا بالحياة استمتاعا كاملا ، يرجع الى عدم تربية عواطفنا تربية صحيحة على حين تكفل هذه التربية الصحيحة للعواطف حسن الاستمتاع بالحياة فى أجمل صورها وأكثرها سمواً وسناء ونوراً ، وتكفل لذلك ازدهار أدب القصص والرواية ازدهاراً لاسبيل اليه فى حياة ناقصة متبلدة العواطف الى حد يجعل أهواء المرء وشهواته تحل من نفسه محل هذه المشاعر السامية ؛ فتعبث به وتكون سبب برمه بالحياة وشقوته فيها ؛ لأنها لاتكشف له من جوانبها إلا عن الفساد والنقص ؛ ولا تدفع الى نفسه حب الحياة حباً صحيحاً . وكل فن لايصدر عند صاحبه عن حبه لجانب من جوانب الحياة لايمكن أن يزدهر . وفن القصص أكثر من سائر الفنون حاجة لحب صاحبه الحياة لأن القصص صورة الحياة .

وأنا إذ أقول بنقص تربية العاطفة عندنا أتمثل أمام عينى صوراً نراها كلنا كل يوم وقد نمر بها مستخفين غير آبهين لها أو واقفين عندها فى حين هى ذات مغزى عميق لو أدركناه دعانا إدراكنا إياه لتغيير نظرتنا وتصرفنا . وقبل أن أقف عند العاطفة التى تتصل بالغريزة الجنسية فى نظر كثيرين لأعالجها بشىء من التحليل يكشف عن النقص الذى أشير اليه ؛ أودأن أقف قليلا عند عواطف أخرى أمتحنها بشىء من المقارنة ليتبين القارىء الغاية التى أرمى اليها ولتتضح أمامه الفكرة التى قدمت . ولنبدأ بعاطفة

الاحسان ؛ وأقصد البر بمعناه العام السامى . فأنت اذا دعوت الى اكتتاب لمستشفى أو لمدرسة أو لعمل خيراً أياً كان ؛ وكنت موضع ثقة الناس جميعاً ؛ ألفيت مع ذلك ضعفاً فى الاقدام لايتغلب عليه فى كثير من الاحايين إلا الالحاف وإلا مطامع شخصية يرجوها المحسن من وراء احسانه . فكثيرون لايقدمون الارجاء رتبة ينالونها او أملا فى مصلحة عاجلة أو مؤجلة تقضى لهم . هذا على انك ترى فى انكلترا مثلا كثيرين يتبرعون بالوف ومئات الألوف لاعمال الخير والبر مدفوعين بعاطفتهم ومن غير أن يطلب اليهم أحد احسانا . بل يأبى كثير من هؤلاء ان يعرف اسمه ويكتفى أن يضع المبلغ تحت تصرف هيئة موثوق بها تتولى انفاقه فى وجوه الخير التى يقررها هذا المحسن المحبوب . ثم ان العاطفة لذاتها نامية عند الجمهور الانكليزى نمواً تغبط انكلترا عليه . فمستشفيات تلك البلاد تدفع نفقاتها من الاحسان العام تشترك فيه الكافة من طبقات الامة كلها بغير تمييز بين بائع الصحف والتاجر الصغير والمثرى الكبير. وهؤلاء جميعا يدفعون الى المكلفين بتحصيل التبرعات عن طيب خاطر ؛ بل مع الشعور بالغبطة لاداء واجب يؤمنون فى أعماق نفوسهم بانه فرض يؤلمهم عدم ادائه

فلو أن تربية العاطفة عندنا كانت نامية نموها فى الامم الاخرى ؛ لكان أداؤنا واجب الاحسان صادراً على عاطفة تامة النمو كاملة الشعور تنغص علينا الحياة اذا هى لم تؤد هذا الواجب اداء كاملا

وعاطفة الرفق وما يتصل بها من عاطفة النجدة مثلها عندنا مثل عاطفة الاحسان سواء . وكثيرون منا من يمرون بحيوان

ضعيف سقط الى الارض هده الاعياء ، أو بأخ لنا من بنى الانسان هوى به الشقاء فألقى به مضعضعا على قارعة الطريق ، فلا تتحرك فى نفوسهم عاطفة اللهم الا أن تكون حمداً لله على ما أنجاهم من مصاب كالذى تقع عليه أعينهم ثم يمرون به معرضين . والذين يصنعون هذا رأوا عشرات المرات جماعة من الناس تهذبت فيهم عاطفة الرفق ، ما تكاد أعينهم تقع على مثل هذا المنظر حتى تتحرك عاطفة الرفق فى نفوسهم فتدفعهم الى النجدة . فاذا فرغ أحدهم من نجدة الحيوان أو الانسان المستحق أياها لم ينتظر من أحد جزاء ولا شكورا . وانصرف وكل جزائه طمأنينة نفسه وراحة ضميره الى أنه أدى واجبه الذى تملى به عليه عواطفه .

واستطيع أن أعرض بالمقارنة الى كثير من العواطف غير ما قدمت . على أنى أود أن أشير الى بعض العواطف الاولية التى يردها الكثيرون ، ومن بينهم بعض العلماء ، مرد الغرائز . تلك عواطف الحب وما يتصل بالحب من عواطف الابوة والبنوة . وما أحسبنى أغلو اذا أنا قررت أن الحب عندنا مايزال قريباً جداً من الغريزة الجنسية محصورة دائرته أو تكاد فيما تلهمه هذه الغريزة لتخليد النوع وتحسينه . فأما المناطق العليا التى يرتفع الحب المهذب اليها ، فأما الحب بمعناه الانسانى السامى من الاشتراك التام فى تمثل الحياة لتزداد الحياة قوة وجمالا وسناء ، فأما الحب على أنه عاطفة انسانية سامية أساسها انكار الذات والرقى النفسانى الى عالم الخير والجمال والحق لنخلع من كل ما فى هذا العالم على نفس أخرى تحاول من جانبها ما نحاول من التعاون على استيعاب كل ما فى الحياة من

رضى ونعيم ؛ فذلك ما قل أن يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده انسان . هذا ؛ ولو ربيت العاطفة وهذبت وسمت الى المكان الذى تستطيع ان هي حاولت ان تسمو اليه ؛ لرأينا فى الحياةغير مانرى اليوم ولشعرنا بأننا نستطيعأن نقصمن مشاهداتنافنوناً من الأدب هى القصة الضعيفة اليوم لضعف تربية العاطفة عندنا ضعفاً يجعل عواطفنا كلها هزيلة أنانية لاتستطيع أن ترتفع عن مقام الغرائز الا بمقدار ضئيل .

وقد نشأ عن ضعف عاطفة الحب عن السموالىالمكان الانسانى الجدير حقاً بهاأن أصبحت عواطف الأبوة والبنوة نفسها بعيدةعما يجب أن تكون عليه من جهاد كل جيل ليسمو بالجيل الذى يليه فى عواطفه كما يسمو به فى علمه وعقله . بحيث يدفعه ليقطع شوطاً جديداً فى طريق الكمال. وان كثيرين ليشعرون بأنالصلات المادية كثيراً ما تكون ذات أثرفىهذهالعواطفالقويةالتى يجب ألا تتأثر بشىء من هذا ؛ حتى لقد يعق أبناء آباءهم وقد يحقد آباء على أبنائهم لغيرشىء الا لصلات مالية كانالطبيعي ألا تخضعها عواطف مقدسة كالأبوة والبنوة بأقل مقدار .

ما هو السبب فىضعف تربيةالعاطفةوفى نقصهاهذاالنقصالمعيب ؟

تعود كثيرونأنيقولوا إنمرجعالسبب فىذلكلتربيةالبيتلالأى سببآخر .وهؤلاءيريدونأنيقيموا حداً فاصلا بينالتربية والتعليم بحيث لا يلقون على المدارس والجامعات أية تبعة عن هذا النقص . وعندى أن هذا غلو فاحش . وبطلانه يزداد وضوحا كلما ارتفع مستوى التعليم وسمت الغاية التى يقصد اليها من العلم . فقد كان

العلم عنـدنا الى زمن قريب وسيـلة للارتزاق وكسب العيش ليس غير ؛ فكان بذلك صناعة من الصناعات التى يتلقاها الناس ليكسبوا من عرق جبينهم فيها مايقيتهم ويقيت عيالهم . وكان الكثيرون من المتعلمين لايزيدون لذلك على صناع اداتهم القانون لرجل القانون أو المشرط للطبيب أو ما الى ذلك من الادوات لغـير هاتين الطائفتين من المتعلمين . وكان ذلك واضح الاثر فى حياة هاته الطوائف التى يسمونها ـ تجـوزا ـ طوائف المتعلمين . فأنت لم تكن تكاد تخرج الا بالقليلين منهم عن النطاق الضيق الذى يعمل فيـه لكسب قوته حتى اذا به قاصر العرفان الى حـد مخجل . واذا بك تستطيع أن تقول فى غير غلو أو مبالغة إن القانون فى يد رجل القانون والطب فى يد الطبيب مثله كمثل الفأس فى يد المزارع والمنشار فى يد النجار لا فائدة منه لتهذيب النفس أو العقل وانما الفائدة كل الفـائدة لكسب العيش . فـأما الذين يندون عن هذه القاعدة ويقصدون من العلم والتعلم الى غاية أخرى . فأولئك شواذ موهوبون لهم فضلهم كما لهم ماتقابل به العـدالة الطبيعية الفضل من نقص فى نواح أخرى . وما دامت غاية العلم كسب العيش ولم يكن يقصد به الى الحق لذاته أو الجمال لذاته . ولم يكن أمام المتعلم مثل أعلى غير الأنانية الوضيعة . أنانية كسب العيش ؛ فمحال أن تسمو عواطف الشخص فوق مقام الغرائز إلا بمقدار . ومحال أن يحس بالحاجة الملحة الى السمو نحو مراتب الانسانية المهذبة الدائمة الطموح الى الكمال.

وقد كان يظن امكان التعويض عن هذه الحال فى المدارس المدنية بتعليم أسمى غاية فى المدارس الدينية . أو بعبارة صريحة فى الأزهر

والمدارس التابعة له . فالدين بطبعه داع الى الكمال : دافع الى استدامة البحث للوصول الى الحق ليؤمن صاحبه به عن معرفة وازعة على عمل الخير ، وتهذيب العواطف الدافعة له الى غاية حدود التهذيب. لكن الواقع يشهد بأن التعليم الدينى عندنا ليس فيه شيء من هذا على الاطلاق ، وأن غايته هو أيضاً اعداد رجال الدين ليكون العلم الدينى صناعة فى يدهم يكسبون بها عيشهم كما يكسبه الصانع والزارع والتاجر . وانت اذا قصدت الى حلقات الدرس فى المعاهد الدينية لم تكد تسمع للمعانى السامية التى نزلت الاديان لتثبيت الايمان بها فى النفوس ذكراً ، بل رأيت كل هذا العلم الدينى مقصوراً على تدريس العبادات والمعاملات بصورة مادية جافة لاتخاطب القلب ولا تتصل بالروح ولا تفقه معنى الكمال ولا تتطلع الى جناب الله ولا ترجو من الحياة الا أن يفتح الله عليها من ابواب الرزق وان لايقتر عليها فيه

الغاية من التعليم فى المعاهد الدينية كالغاية إذاً من التعليم فى المعاهد المدنية لاتتصل بالعاطفة ولاتعنى فى قليل ولا كثير بأى شيء له بها عن قرب اوبعد مساس . وهذه الغاية لاتتوخى الحق ولا تريد النور ولا تحاول أن تصل بين الانسان والحياة وكل مافى الوجود ، وإنما تتوخى الغاية الوضيعة التافهة : غاية ملء البطن وبلوغ مايمكن بلوغه من الترف . فى مثل هذه الحال يصح ألا يكون مخطئاً من يقول إن تربية العاطفة من عمل المنزل وإنها ليس لها بالتعليم أى اتصال . لكن هذه الغاية الوضيعة لايجوز أن ترضاها أمة غاية للعلم فيها ، بل يجب أن تكون غاية العلم أسمى وأنبل من هذا

بكثير . يجب أن تكون تهذيب العقل وتهـذيب الروح والنفس بهدايتها الى الحقيقة التى يجب أن تكون مطمح نظر كل متعلم . والعاطفة حقيقة يجب أن يجلوها العلم فى مختلف صورها كما يجلو كل حقيقة اخرى . وهذا هو الواقع فى بلاد العالم المتمدين كلها . وكل شىء جلاه العلم تهذب وسما حتى المادة الجامدة التى لاحياة فيها ؛ والتى تحتوى مع ذلك قوة لم يكن أحد يعبأ بها حتى كشف العلم عنها وجعل منها مهذبا لهذه المادة الجامدة . فاذا سمت غاية العلم على هذا النحو كان قميناً أن يعتبر بحق وسيلة صالحة لتربية العاطفة فى الانسان تربية أساسها اشتراك الانسان كفرد مع الجماعة كلها ومع سائر مافى الوجود للكشف عن الحق ولعمل الخير ولتجلية الجمال .

ولست أقصد إنكار ماللتربيـة المنزليـة من نصيب كبير فى تهذيب عواطف الطفل بمقدار ما لها من نصيب فى تهذيب ذوقه وروحه . لكنى أعتقد تمام الاعتقاد أن الفصل بين التربية والتعليم على نحو مايحاول بعضهم أن يفعل ، أمر غير ممكن. وتربيتنا فى معاهد العلم إنما تكمل من بعد تربيتنا المستمرة الناشئة عن اتصالنا بالحياة . وهـذه السلسله المتصله تجعل لتعليم الآباء فى دور العلم أثراً فى تربية أبنائهم فى البيت قد يعادل الأثر الذى يحصل الأبناء عليه من بعد حين تربيتهم فى دور العلم . ونحن اذا أردنا البدء الصالح المثمر وجب علينا أن نلتمسه فى دور العلم أولا بالسمو بغاية العلم الى التماس المثل الأعلى على نحو ماقدمت . يومئذ تسمو نظرتنا للحياة وترتفع عواطفنا فوق الغرائز حتى تقرب من الكمال ، ثم نورث ذلك أبناءنا بتنشئتهم عليه فى البيت ثم فى دور العلم ، ثم يكون لذلك أثره فى الحياة فتسمو

سمواً يجعلنا أكثر بالحياة استمتاعا وأكثر فيها سعياً وإنتاجا ، ثم يكون له فى نفس الوقت أثره فى بعث القوة والنشاط الى فن القصص والرواية من فنون الأدب إذ تقع أعيننا يومئذ على جماعة إنسانية ازدادت رقياً وتهذيباً فكانت بذلك أقوى الهاما لرب الفن بما يطوع له أن يجد فى متباين صور العواطف المهذبة مايدعوه الى كمال فنه .

يضاف الى هذه العوامل عامل آخر يبعث على الفتور ويدفع الى الانصراف عن الكتابة وعن الادب . ذلك مالا يزال متحكما فى أخلاق الشرق من الميل الى هدم كل رجل ذى قوة وموهبة ، وهدمه لاسباب لاصلة لها البتة بقوته وموهبته . فهذا كاتب قدير ولكنه يختلف وإيانا فى الرأى السياسى أو ينافسنا فى صفقة من الصفقات أو يثقل علينا ظله : إذن يجب علينا هدمه امام الجمهور وان اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة . ومادمنا لانستطيع أن نهدمه من طريق النقد النزيه فيجب أن نحتال لذلك من كل طريق آخر .

وكثيرون ، مع شىء كثير من الاسف ، يضعفون أمام هذه المهاجمات غير الشريفة ويرون فيها جحودا لمجهود أكبر همهم منه خدمة لغتهم وبلادهم أكثر من خدمتهم أنفسهم ، فيعدلون عن متابعة سيرهم وينزعون الى ناحية آمن لكرامتهم ولشرفهم وأكفل لحياة أكثر طمأنينة ودعة . واذا كان من بين الكتاب من لايحفل بهذا الجحود ومن يثور فى نفسه الضياء الذى ملأ القدر به روحه فيدفعه غير مختار ليفيض منه على الحياة مايزيدها جمالا ونوراً وليؤدى للفن الرسالة التى ألقى القدر عليه أداءها ، فان صاحب

الموهبة لا يستطيع من غير معاونة الانصار والمؤيدين أن يرى فى حياته تمام النجاح لرسالته ، وان كان هذا النجاح قد كفل لها ولو بعد موته . ولو أن خلق الهدم خفت فى النفوس وطأته وحل محله التقدير النزيه لثمرات الاقلام . لقوى ذلك من هذا الضعف الذى يلاحظه الكثيرون فى القصة والرواية فى الأدب العربى .

ولا نستطيع أن نهمل عاملا آخر كان له أثر فى الجناية على الأدب . ذلك هو العامل السياسى . فقد كان من نتائج الحرب والحركات التى قامت بعدها فى الشرق والغرب أن انصرفت الأذهان عن التأمل فى الحياة وجمالها الى صور من النضال والكفاح لكسب حقوق سياسية جديدة ؛ أو لتنظيم شؤون اقتصادية زعزعت الحرب أركانها ؛ أو ما إلى ذلك من الشؤون العاجلة . ومن طبيعة هذه الشؤون أن تلفت الناس اليها وتبهرهم عن كثير سواها . وهى لهم أكثر لفتاً وبهراً اذا هم رأوا من ورائها لاشخاصهم مكانة أرفع أو مجداً أشد بريقاً أو رخاء ورغداً لم يكونوا يطمعون من قبل فيه . وهذا العامل الذى شمل العالم كله كان أبعد أثرا فى الشرق . لان الحرب بعثت الى الشرق هزة عنيفة أيقظته من سباته وفتحت عيونه على نواحي الحياة المختلفة المتباينة . فجعلته من أجل ذلك فى شىء من الحيرة أى طريق يسلك ، ثم كان الطريق الاول والاقدس هو التخلص من حكم أمم الغرب إياه . وهذا التخلص يقتضى نضالا لا يقل قوة ولا خطرا عن نضال الحرب بين الامم المسلحة . فكما تستنفد الحرب جهود الامم كلها ؛ كذلك استنفدت وتستنفد هذه الثورات السلمية كل جهود أمم

الشرق وتدفع بالكتاب والأدباء ليضعوا قواهم ومواهبهم فى خدمة بلادهم . وقد جزتهم بلادهم عن ذلك بما زادهم تشجيعاً عليه وحرصاً على المضى فيه . وهم مايزالون كذلك حتى اليوم ؛ وقد يطول ذلك بالكثيرين منهم الى مدى يتعذر اليوم تحديده .

هذه العوامل كلها مجتمعة تجعل من المستحيل على الكاتب الذى أوتى موهبة فى فن القصص والرواية أن يختص فيه وينقطع له . بل لقد صار كل مايستطيعه هذا الكاتب أن يحاول وضع الاقصوصة تلو الاقصوصة فى أوقات فراغه . فأما ان ينقطع لدراسة موضوع يكون قصة أو رواية كاملة فقد يقتضيه ذلك السنين الطوال ؛ وقد ينتهى به الامر إلى أن لايتم قصته إذا هو بدأ فيها . والتخصص فى القصص كالتخصص فى كل عمل من أعمال الحياة ؛ هو مفتاح النجاح والوسيلة الوحيدة للخصب فى الانتاج وللوصول إلى الثمرة الصالحة الجيدة . وهو كذلك بنوع خاص فى عصرنا الحاضر الذى انفسح فيه ميدان العلم الانسانى الى حد أصبح معه المحيط بهذا العلم كله محيطا بقشور قليل مايتصل بها من اللباب ، والذى أصبح كذلك بحيث يصبح الانسان بعد دراساته العامة ؛ وبعد تحصيله منها أوفر حظ تمكن منه الدراسات فى المدارس والجامعات . بحاجة الى التوجه فى الناحية التى يملى عليه ميله التوجه اليها فيتخصص فيها ؛ بل فى فرع من فروعها . وقد يعجب قوم اذا ذكرنا لهم أن ميدان الأدب القصى والروائى قد أصبح لذاته فسيحا الى حد يحسن معه أن يتخصص الكاتب فى أحد فروعه لتعذر الاحاطة بفروعه كلها إحاطة يتيسر معها الاتقان والاقتراب من الكمال.

لكن الأمر فى اواقع هو هـذا . وأنت اذا عدت الى أكابر الكتاب القصصيين والى أكابر الكتاب الروائيين رأيت لكل واحد منهم نوعا خاصاً يمتاز به ويغلب عليه حتى يعرف به . فأنت ترى فى بورجيه غير ما تراه فى أناتول فرانس وغير ماتراه فى زولا وغير ماتراه فى فلوبير وغير ماتراه فى موباسان ؛ وأولئك كلهم من من القصصيين الفرنسيين فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفى هـذا الثلث الأول من القرن العشرين . وأنت ترى لكل واحد منهم ميدانا خاصاً امتاز به وتخصص فيه وقصر مباحثه على التعمق فيـه وعلى معرفة ماسـبق به اليه فى العصور الاخرى وفى الامم الاخرى . وهذا التخصص هو وحده الذى يجعل الانسانية ترجو بلوغ الكمال فى ميدان الأدب والفن . كما أنه هو الذى يجعلها ترجو بلوغ الكمال فى ميادين العلم المختلفة .

ولا يعترض علينـا بأن كثرة القصصيين وغزارة المـادة التى يأخذون عنها فى أوروبا هى التى تؤدى بهم الى هذا التخصص ؛ على حين أنا مانزال بحـاجة الى الانشاء حتى ليدعونا ذلك الى تقليـد الغربيين أكثر مما يدعونا الى الظهور بشخصية ممتازة لنا فى عالم التأليف والأدب . فهذا الاعتراض على ظاهر وجاهته ضعيف متداع بطبعه ؛ وهو إن حدث عن شيء فانما يحدث عن ميل الى عدم البحث والاطلاع على صورة من الدقة العلمية تكفل تكوين المذاهب فى القصص والرواية تكوينا سليما . وقديماً قيـل مثل هذا القول فى الطب والمحاماة ؛ فظلت الصناعتان ضعيفتين فى مصر حتى تخصص الأطباء كل لفرع من فروع الطب ، أو لبعض فرع من فروعه ،

وحتى صار المحامون يعرف أحدهم بامتيازه فى ناحية المعاملات المدنية والآخر فى المعاملات التجارية وهلم جراً . واذا كان مظهر التخصص فى الطب أوضح ونتائج هذا التخصص فيه أكثر ظهوراً ؛ فذلك لأن الحكم والقاضى فى شؤون الطب هى الطبيعة التى لا تخطىء أبداً. وحكم الجمهور فى الأدب كحكم الطبيعة فى الطب وفى الميكانيكا وفى كل ما هو غير خاضع لاخطاء الانسان وشهواته. وكما نجح الطب فى مصر نجاحا يقر له الكل فى مصر وفى غير مصر منذ تخصص الاطباء تخصصاً تاما . فانى لا ارتاب لحظة فى نجاح الأدب القصصى والروائى اذا عاونت العوامل الكتاب والموهوبين منهم بنوع خاص على التخصص فيه ؛ أو اذا جادت الطبيعة على هذه البلاد التى تتكلم العربية بعباقرة من الكتاب الذين يقدرون تقديراً صالحا عظمة الرسالة التى يحملونها ليبلغوها إلى مواطنيهم وإلى العالم كله؛ فتغلبوا على الصعاب وهزموا العوامل التى أشرت من قبل اليها ولم يتأثروا بشىء منها حتى يصدهم عن السبيل التى تكفل اقتراب هذا الأدب خطوة أو خطوات من ناحية الكمال .

على أن انتظار جود الطبيعة بالنابغة الفذ الذى يستطيع أن يحطم كل القيود ويتغلب على كل الصعاب ويتخطى كل العقبات ليس من شيمة الامم التى تجاهد ما تجاهد مصر وسائر بلاد الشرق العربى لتتبوأ المكان اللائق بها فى زمرة الامم ؛ بل الواجب على الذين يشعرون ممن يقرأون هذا الكتاب بأنهم يستطيعون أن يتقدموا بأية معونة للتغلب على عامل من عوامل الضعف والفتور التى ذكرت أن يقدروا الواجب العظيم الملقى على عاتقهم هم الآخرون

ليمهدوا لرجل الفن فى القصص والرواية طريقه وييسروا سبيل نجاحه. وكل واحد منهم ، رجلا كان أو امرأة ، يتحرك ضميره فيدفعه لأداء هذا الواجب يقدم لبلاده أجل خدمة ويبقى فى التاريخ مذكوراً ماذكر الكتاب والقصصيون الذين اتصلوا به واستمدوا التعضيد أو التشجيع أو الوحى منه . والذين يقرأون تاريخ الأدب فى بلاد العرب حين كان الأدب فيها زاهراً ، والذين يقرأون تاريخ ادب الغرب فى العصر الحاضر ، يرون كيف اقترنت أسماء أنصار الأدب والعاملين على إحياء نهضته بالأدباء والكتاب أنفسهم ، وبالنوابغ والأفذاذ منهم بنوع خاص . وهذا جزاء وفاق وحق يجب أن يؤدى إلى هؤلاء الذين يعززون الأدب بنصرهم وبتأييدهم. وإنى لعلى يقين . إذا وقع هذا الذى أدعو اليه ، من أن ترى مصر وبلاد الشرق نهضة للأدب فى زمن وجيز يكون لها فى مصر وفى بلاد الشرق ، بل فى العالم كله . أثر يبهر الابصار ويخطو بالشرق كله خطوات واسعة فى طريق البعث الذى بدأه منذ زمن ليس بالقصير . إذ ذاك تثبت خطاه وتزداد سرعة وسعة عما كانت منذ حفزته الحرب الكبرى إلى أسمى معانى المجد والعظمة والحرية .

التأليف المسرحى

ليست لغة المسرح هى ما أقصد التكلم عنه ، وان كان الناس قد ألفوا قراءة بحوث مستفيضة يفاضل أصحابها بين اللغة الدراجه أو لغة الكلام وبين اللغةالفصحى أو لغة الكتابة وأيهما أصلح لتكون لغة للمسرح . وليست ترجع رغبتى عن هذا البحث الى استهانة منى بأمره أو اعتقاد أن ما يمكن أن يقال فيه قد نفد كله . وانما ترجع من ناحية الى أنى أميل الى الحرية المطلقة فلا أرى أى ضير فى أن يكتب مؤلف مسرحى باللغة الفصحى وآخر باللغة الدارجة ، وبأية لغة دارجة من مختلف اللهجات التى نسمعها فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتكلم العربية ، والتى تصل لهجاتها أحيانا لتصبح رطانة غير مفهومة عند أبناء بلد آخر يتكلم العربية . وترجع من ناحية أخرى الى اعتقادى أن هذا الخلاف حول لغة المسرح صائر بطبعه الى الزوال . فان انتشار التعليم فى البلاد المختلفة انتشاراً سريعاً يقضى على الامية ، من شأنه أن يقرب بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، وأن يجعل اللغة التى تكتب الصحف ويكتب الأدباء هى لغة الحديث ولغة الكتابة فى وقت معاً مع فوارق بسيطة لا يقام لها وزن . ويومئذ تصبح لغة المسرح كما تصبح غيرها من اللغات هى اللغة الفصحى فى متعارفنا نحن أهل هذا الجيل أو الجيل التى تكتب هاته اللغة فيه . فاذا أراد مؤلف بعد ذلك أن

يختار لقطعة مسرحية لهجة دارجة كان ذلك تأنقا فى الفن لا بأس به .
ونحن فى هذا كغيرنا من الامم . فأنت تسمع فى انكلترا أو فرنسا
أو ايطاليا لهجات فى الشمال تختلف عن لهجات الجنوب ؛ لكن
لغة المسرح هي لغة الكتابة للجميع ؛ من غير أن يحول ذلك دون
قيام مؤلف متأنق بوضع قطعة بلهجة مقاطعة من المقاطعات أو ناحية
من النواحى .

على ان هذا الحل لمسألة التأليف المسرحى من ناحية اللغة لن
يحول دون ظهور مشكلة أخرى وموضوع جدير بالبحث ؛ كما كانت
لغة المسرح جديرة بالبحث من سنوات ماضية . هذه المشكلة هى
اللغة القديمة والشعر القديم وهل يجب أن تكون ثروتنا المسرحية
حاوية لطائفة من القطع التمثيلية مكتوبة بهما . وقد اثير هذا
البحث من ناحية عملية حين ترجم الاستاذ خليل مطران بعض
روايات شكسبير فى لغة عربية فيها من الفخامة والجزالة مايتفق
مع لغة شكسبير وما قد يعتبر من غير لغة الكتابة فى عصرنا . وهو
قد أثير حين وضع شوقى بك روايته الشعرية (مصرع كليو باترا)
ورواياته التى جاءت بعدها ومثلت على المسرح ؛ فكانت صورة جديدة
من اللغة المسرحية لم تؤلف من قبل . على ان هذه الاثارة العملية
للبحث لن تكفى ؛ فيما أظن ؛ لسد حاجات اللغة على وجه يرضى أقطابها .
وأعتقد أن البحث سيثار من ناحية نظرية أيضاً لمعرفة ما إذا كان
واجباً أن يوجد فى القطع المسرحية العربية نوع من « الكلاسيك »
الذى يصل الحاضر بالماضى أم أننا نستطيع نسيان هذا الماضى والاكتفاء
ببذل كل جهودنا للتجديد للمستقبل . وسيتصل بهذا البحث وسيتفرع

الى بحوث أخرى منها ما إذا وجب أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضى الى بلاد العرب فتتصل البلاد التى تتكلم اللغة العربية جميعاً بتاريخها وبثقافتها وبآثارها وتعاليمها على نحو ما اتصلت أمم الغرب كلها باليونان وروما القديمتين؛ أم أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضى الى صلة كل أمة بماضيها فترتبط مصر بالفراعنة وطرابلس (برقة) بقرطاجة وبلاد الشام بفينيقيا ؛ وأن تربط اللغة العربية السليمة بين هذه الثقافات المتصلة كلها وتجعل منها وحياً للادب يقصد منه الى احياء الادب العربى فى ظل كل واحدة من هذه الثقافات المختلفة

أحسب أن هذا البحث سيثار عما قريب ؛ وبخاصة حين تخرج المدرسة الجديدة من طلاب الادب الذين يدرسونه اليوم على طريقة علمية صالحة . على أن هذا البحث ليس هو أيضاً غرضى من هذا الفصل عن التأليف المسرحي . وانما أقصد منه الى مايجب أن يتناوله هذا التأليف المسرحى من ناحية أنه فن من فنون الاجتماع من مواضيع . وقد دفعنى إلى تناول هذه الناحية من المسألة ماقرأت ورأيت من قطع مسرحية مؤلفة بعد الحرب . فهذه القطع كلها ؛ أو الكثرة الظاهرة منها ؛ تتناول صور التطور الذى اتجهت الانسانية بعد الحرب وبسببها نحوه ؛ وكلها ؛ أو الكثرة الظاهرة منها ؛ تحاول توجيه تيار هذا التطور بتهذيب شذوذه ورده قدر المستطاع ليندفع فى الناحية الطبيعية ؛ أى فى الناحية الاكثر على الانسانية جدوى فى رقيها وفى سعادتها فى ظل الحضارة الغربية الحاضرة

من بين ماتتناول هذه القطع التمثيلية من الموضوعات ماخلفته الحرب

من أثر فى شأن الرجل والمرأة واتجاه كل منهما فى الحياة ونظرته اليها وعلاقة كل منهما على أثر ذلك. فقد كان من أثر الحرب أن أصبح الرجل غير ميال للعمل المتصل والكدح المستمر، بل صار ميالا للمخاطرة والمجازفة يلتمس من طريقهما الثروة وبعد الصوت ورفيع المكانة كما كان إبان الحرب يلتمس من طريقهما الظفر والنصر أو الموت والاستراحة من عناء الحرب والحياة. أما المرأة فقد ألقت الحرب عليها أعباء ثقالا خلال أربع سنوات متتالية فكانت فى الدار الاب والمربى والمجد لرزق البنين والبنات والعامل لرفاهية الاسرة كلها، وكانت خارج الدار العامل الذى لا يمل فى الاسعاف والتمريض وفى المعمل والمصنع. لذلك أفادت من الحرب حرية بمقدار ما حملت من عبء المسئولية، وازدادت شعوراً بقوتها على الحياة بمقدار ما استطاعت أن تكافح لها ولذويها ولوطنها فى الحياة. وهى اليوم تحاول أن تستبقى هذه القوة وتلك الحرية بأزاء الرجل، وأن تنظم علاقاتها معه على أساسهما. أما هو فقد أصبح يعتبر الهجوم سبيل النصر، وانتهاز الفرصة وسيلة الغنيمة، والمجازفة مفتاح التحكم والاستعلاء. على أن هذه الصفات الجديدة التى أكسبتها الحرب الرجل والمرأة لم تنزع بطبيعة الحال ما فطرا عليه من سلائق وعواطف تضطرب بين جوانحهما وتجيش بها دخائل وجودهما. لهذا أضطربت العلاقات بينهما على أثر الحرب اضطرابا أشار الكتاب والاجتماعيون اليه ونظروا مبهوتين يلتمسون الوسيلة الى القضاء عليه. ومن بعض الوسائل تحليل أسباب هذا الاضطراب وردها إلى أصولها وإظهار الجماهير عليها، حتى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة

والشذوذ. وقدلفت نظرى فى هـذا التحليل استفزاز عاطفة النبل والـكرامة عند المرأة لمحاربة هذه الوحشية المفترسة فى سبيل المال مما أصاب الرجال على أثر الحرب داؤه . فهاته فتاة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقها فى الحرية ، يحبها رجل فى مثل تهذيبها وتثقيفها ولا تشعر هى نحوه بمثل العاطفـة التى يشعر بها نحوه . ذلك بأنها وضيعة المنبت ، وهى تريد أن تتخذ من شهاداتها وتهذيبها وسيلة للاستعلاء على منبتها .ويتصل بها شاب من المستمتعين بألقاب الشرف، أو من الذوات إن شئت تعبيراً مصريا ، فترى هى فى علمها وشهاداتها مايوازى شرفه فتتعلق به وتود لو تـكون دوقة ، جزاء لها على ما أنفقت فى تعلمها . لـكن الدوق لايعنيه العلم ولايهمه التهذيب ولا يطمع فى أكثر من أن يجعلها متعة هواه وفريسة ما أفادته الحرب من مغامرة . ويذكر لها صديقها المتعلم الذى يحبها : أن الدوق لايعنيه علمها وأنه إنما يحبها لو أنها أصبحت احدى نجوم السينما ، واحدى ملـكات الجمال . وبرغم تقززها من أن تظهر فى هذا المظهر فانها تنتهى بأن تعرض نفسها فى معرض الجمال وتصبح مس فرنسا، فمس أوربا، فمس العالم .هنالك يجن الدوق بها ويخطبها ويحدد موعد العقد عليها. لـكنه قد اضاع ثروته ، فلا بد من أن يستفيد من ملـكة الجمال فى العالم يعرضها على مسارح أمريكا وأوربا ، ويصبح وإياها نجمى مسرح أو نجمى سينما . هنا لك يثور شرفها وتثور كرامتها وتثور بها التعاليم التى تلقتها ، فتعلن فى الصحف انهـا انتحرت ، وتذهب الى صاحبها الاول تعرض عليه ماحل بها من كارثة ، وتنتهى بأن تصبح زوجا له تعيش وإياه فى ركن ضيق من الارض تتمتع

بنعمة الامومة وسعادة الزوجية بعيدةعن المغامرات المخجلة المزرية بكل علم وكل كرامة .

وتلك فتاة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقها فى الحرية تزوجت رجلا مقامراً يريد الثروة والغنى العاجل. فيضارب فى البورصة فتصيبه الخسارة تهوى به الى حضيض الجريمة ؛ ثم يعلم ان زوجه هذه ورثت سبعة ملايين من الفرنكات مع ابن عم لها ورث سبعة ملايين مثلها . وكانت الزوجة قد سئمت هذه الحياة المادية الوضيعة التى لاترمى الى مثل أعلى ولا تطمع فى غير المال تحتبله بكل الوسائل ومن مختلف الطرق . وزادها سأما ان أصبحت أما وان صارت تخاف أن يفسد هذا الغارق فى حضيض المادة كل المعانى الانسانية فى نفس ابنته . ثم كان ابن عمها الذى ورث مثلما ورثت قد وهب نفسه للفقراء والمحتاجين : يقوم على تربية أبنائهم وحسن توجيههم فى الحياة الى أسمى مافى الحياة . فلما علم بما ورث أبى أن يقتضيه لأنه لم يكن نقى المورد إذ كان لخالة ساءت زمنا ماسيرتها. وأعلنت الام البائسة أنها تنزل عن سبعة الملايين التى لها هى أيضا . فجن جنون زوجها وذهب يلتمس عون ابن عمها كى يردها عن عزمها. وبعد لأى قبلت أن تنزل له عن سبعة الملايين مقابل طلاقها وتسليمها ابنتها . فلما تمت الصفقة صاحت مبتهجة: لقد باعنى ابنته!! ووقفت حياتها على ابنتها تربيها تربية سليمة وتوجهها الى مثل أعلى.

ليست تقف مواضيع التألف المسرحى عند هذا النوع من الاصلاح الاجتماعى . على أنها تحاول فيما تتناول منه تحليل أسباب الاضطراب النفسانى والاجتماعى الذى خلفت الحرب لتظهر الجماهير

عليها كى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ . ثم هى تتناول كذلك أنواعا أخرى لعل الفن وحده هو صاحب الاملاء فيها . على أنها بالرغم من ذلك تتناول جانبا من الحياة كما يراه الناس . وتتناوله بالتحليل أو بالعرض أو بالنقد . ثم إنها فى كل حال تتناول جانباً من الحياة على ما نراها ونحسها فتجعلنا لذلك نرى صورة الحياة من أحد جوانبها حين نرى هذه القطع تمثل على المسرح . قد يكون هذا الجانب تافها وقد يكون ضعيفا وقد لا يرى البعض أن يتوجه اليه بأية عناية خاصة . لكنه على كل حال من الحياة التى نحيى . فهو لذلك يمسنا من ناحية الحس أو الشعور أو التفكير أو العقيدة ويحرك فينا واحدة أو أكثر من هذه النواحى بمقدار قل أو كثر . وفى اعتقادى ان هذا هو الهم الاول للمسرح . فأما ما يكون فنا للفن من غير أن يكون ذا مساس بالحياة ، فمن صور الكمال المستحبة ، ومما يجب أن يفكر الكتاب المسرحيون فيه تفكيرا جديا . ولكن مع هذا الاعتبار دائما ، وهو أن هداية المسرح الجماعة فى الحياة يجب أن تنال أوفر حظ من العناية ، ويجب أن تكون عند رجال المسرح فى المكان الاول

حاول بعض الكتاب المسرحيين فى مصر ، وفى مقدمتهم المرحوم محمد تيمور ، أن يجعلوا غايتهم من قطعهم المسرحية هذا التوجيه الصالح لتطور الجماعة الى الناحية الاكثر على الانسانية جدوى فى رقيها وفى سعادتها ، فانتزعوا من وقائع الحياة فى مصر صوراً أبرزوها على المسرح لتمس من الجمهور بعض نواحى الحياة ولتستفز منه العقل أو العاطفة أو العقيدة . ولست أحاول أن أحلل أو أنقد بعض هذه

القطع . لكن هذا المجهود الصالح لم يصل الى غايته ولم تتداوله الايدى بقدار تتجلى معه من الحياة نواح كثيرة. فتوجه فى نفس المطالع على القطع التمثيلية المختلفة تيار التطور الى الناحة المراد أن يتجه اليها . ولعلى لا أغلو إن قلت إن كثيراً من هذه القطع كانت تنقصه روح الفن التى تضاعف الحياة على المسرح مضاعفة تجعل ما يتركه من الاثر فى النفس قويا عميقا لا يتبخر ولا يزول بعد مغادرة المشاهد المسرح بسويعات . قد يذهب بعضهم الى أن جانبا كبيراً من اللوم فى هذا يقع على الممثلين الذين لا ينقلون الى الجمهور كل ما يريد المؤلف أن ينقله اليه من صور الحياة ولا يوجهون هذا الجمهور الى ما يريد المؤلف أن يوجهه اليه ليندفع تيار تطوره الى ناحية خاصة. لكنى أعتقد من جانبى أن المؤلف جدير بمقدار من اللوم أكثر من الممثل . وهو جدير بكل اللوم أن كان واجبا عليه هو أن يختار الممثل الذى ينقل قطعته المسرحية الى الجمهور . وأكبر ظنى أن لو اختيرت المواضيع من واقع ماتضطرب به الحياة اختياراً يجعل الموضوع لذاته قويا أخاذاً . لكان هذا الاختيار نفسه جديراً أن يسمو بالممثل الى مالا تسمو به اليه القطع التى تمثل اليوم والتى تعتمد أكثر أمرها على الخيال البعيد عن قوة تصوير ما فى الحياة التى نرى ونحس .

نعم . فان كثيرين من كتابنا وممثلينا يظنون المقدرة غاية المقدرة فى ابداع مالا تستطيع الحياة ابداعه . وأنت أكثر ماترى على مسارحنا مآسى ومهازل منقولة عن اللغات الاوربية . والغرض من أكثرها لا يعدو إلهاب خيال الجماهير الساذجة القاصرة الخيال

والتي تريد لذلك أن ترى في المدهش وفي المعجب والمطرب مايعوض عليها قصر خيالها. وهـذا الضرب من التأليف ومن التمثيل أقرب الضروب إلى مايرغب الاطفال عادة في مشاهـدته في خيال الظل والقراكوز ونحوها. وإذا كان هـذا النوع من الفن مما يثير اعجاب البعض فهو في نظري ليس بالفن الذي يؤدي للحياة رسالة الفن الجدير باسم الفن . والذي يتصل بالحياة ويسبقها في تصوير سبيل الـكمال لها وفي تشذيب مابها من شذوذ يعوقها عن سرعة السير في سبيل الـكمال هذه . وهـذا الفن هو الذي ندعو لدراسته وجعله موضع التأليف المسرحي .

وليست هذه المواضيع بالقليلة أو التافهة في مصر. بل إن مما تنقل الصحف السيارة من اخبار وحوادث قد تمر عليها من غير أن تقف طالعتنا عندها : مايجدر بالعناية والدراسة والبحث وما يصلح خير صلاح ليـكون قطعا تمثيلية اذا أتقنت من ناحية التأليف كانت من خير ماأخرج للناس في مختلف البلاد والأمم . لـكن العناية والدراسة والبحث تحتاج إلى مجهود . وقد أصابتنا الحرب بما اصابت به أوربا من السعي للفرار من كل مجهود متصل مضن ولـكنه عظيم النتيجة عميق الأثر .

هل لنا أن نرجو التغلب على هذا الهمود الذي أصابنا في نواح كثيرة : منها ناحية التأليف المسرحي ؟ وهل للمؤلفين المسرحيين عندنا أن ينظروا الى هذا الفن نظرة جد وأن يعتـبروه جديراً بجهود مثابر منتج ؟ وهل لـكتابنا الذين يعنون بهذه المواضيع أكثر من عنايتنا والذين يعرفون لذلك أسباب ضعفها وقوتها أكثر

مما نعرف : أن يكشفوا عن هذه الاسباب وعلى وسيلة التغلب على الضعف واستثارة مقدمات القوة ؟ ان النجاح فى هذاوما قد يكون أثراً له من النجاح فى التأليف المسرحى خليق بأن يوجه تطور الامة توجيها صالحا لم توفق حتى اليوم له . وهـذه غاية سامية جديرة بأ كبر الرؤس وأنضج العقول .

الادب القومى

عرفت بباريس فى ربيع سنة ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت وأمها بالنزل الذى كنت به وأقامت فيـه أسبوعين ثم غادرته وأمها الى ألمانيا فى واحدة من هاته الرحلات التى يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة . وكنا أهل النزل جميعاً نقضى مابعـد العشاء فى صالون متصل بغرفة المائدة نتحدث أو تعزف صاحبة النزل لنا بعض قطع على البيانو أن كانت تجيد هذا العزف الى حد البراعة فيه. وقد وثقت هـذه السويعات بينى وبين الفتاة الـكندية أن كنت أقدر الحاضرين على التحدث اليها بالانكليزية لانها لاتجيد الفرنسية . وكنت يومئذ أكتب «زينب» وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار أوهام طويلة عريضة . وعرفت مس شلزك كاسلز ذلك من أمرى وعرفت مما كان يرد إلى من صحف مصر إنى أكتب فى بعضها . فلما كانت الليلة التى اعتزمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى فقالت :

— كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ انكلترا . إنى وإن لم

أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئاً كثيراً جميلا وان تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنهما وتقريبهما للناس فى الصورة القصصية المحببة للنفس . ولعلك إن فعلت تجعل إهداء أولى هذه الروايات التاريخية لى .

ولم أفعل ولم أقم بأكثر من محاولة لم تتم يتبينها القارىء فى الفصول الأخيرة من هـذا الكتاب . لكنى أشعر من يومئذ كما كنت أشعر من قبل ذلك بأن حياة الأدب إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه ، وإن لم يظهر وحيها فى آثار حياته ، كان الأدب فاتراً ضعيفا لانه لايصف الواقع ولا يجلو الحقيقة. وخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب فى أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته . وليس ذلك بمستطاع على أكمل وجوهه إلا حينما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التى أنبتتنا والوراثة الكامنة فينا فنصل بذلك حاضرنا بماضينا ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا ووطننا وكل ماتوحى به هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحى .

وعدت من باريس الى مصر فى سنة ١٩١١ بعد ستة وعشرين شهراً أقمتها بها وجست أثناءها خلال أوربا . وعدت عن طريق سويسرا وإيطاليا وركبت البحر من برندزى الى بورسعيد وكانت هـذه أول مرة رأيت ذلك المرفأ المصرى . وما أزال حتى اليوم أذكر ما أثارته مقارنتى بينه وبين مدن أوربا من رغبة عنه وحرص على مغادرته . فلما ركبت القطار الى قريتنا ونزلت منه فى محطتها وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا وسرت على

هذه الطرق وبين هـذه المزارع التى شهدت طفولتى وأستمتع بها صباى نسيت أوربا وزينها وأهلها وكل ما فيها وشعرت بقلبي يتفتح ونفسي تنتشر فى أرجائها السعادة ووجودي يكاد يطفر من فرط الطرب وأحسست كأنى عدت أختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الأشجار وبكل قطرة من هذا الماء المتقلب فى الترعة وبكل ذرة من هذا الهواء،هواء قريتنا الصغيرة الجميلة.فلما انتهيت الى بيتى وأهلى لم استطع أن أحبس احساسى فتركته يطفر فرحا سعيداً وشعرت بما فى ذلك كله من وحي صادق لمن أراد الكتابه عنه.

وفى سنة ١٩٣٢ ، أى بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وكنت اتنقل فى ربوع الشام ، اذ مررت بمعرة النعمان ولم أقف عندها . مع ذلك تمثل لى فى هذه الساعة هذا الشيخ أبو العلاء وارتسم أمامى تمثاله وفصلت أمام بصيرتى آدابه وحكمته وفلسفته والفيت قطعة من شبابى ترتسم أمامى بقوة ووضوح وشعرت كأن هذا البلد الذى لم أر من قبل قط يحتوى شيئاً من حياتى . إذ ذاك سألت نفسي : إذا كان هذا شأنى ولم أدرس أبا العلاء دراسة بحث ممحص ولم اقرأ عنه قراءة متصلة غير كتاب صديقى الدكتور طه حسين: ذكرى ابى العلاء ، فاذا تكون الحال بالنسبة لمن يدرسون تاريخ أسلافنا المتصلين جميعاً فى سائر البلاد التى تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الاسلاف وعصرهم وحضارتهم. الا يكون ذلك مصدر إلهام لهم اصدق الالهام ووحى فى التاريخ والأدب أسمى ما يكون الوحى . والالهام يكون لا ريب اسنى كلما كان أوثق اتصالا بوطن الانسان وقومه . والأدب الذى يصدر عن هذا

الالهام يكون لذلك أروع وأقوى إذ يكون أدبا قومياً صادقا .

وكما يسمو وحى الوطن بالكاتب فى الادب القومى فان هذا الادب يخلع على الوطن فى نفوس أهله جميعاً جلالا وبهاء يزيدانهم له حباً وبه إيمانا وتقديساً وإياه اعزازاً . ولقد كان للادب القومى وللفن القومى فى كل الامم أعمق الاثر من هذه الناحية . وضعف أدب مصر وفنها القومى له الاثر المقابل لذلك من هذه الناحية أيضاً .

ولأدلك على ذلك اذكر انى زرت روما غير مرة . وكنت ككل مقيم بروما أو زائر إياها أتخطى نهر التبر مرات . وفيما أتخطاه يوما ذكرت أبياتا من الشعر الانكليزى حفظناها حين كنا بالمدارس الثانوية فيها قصة لبطل لم يحضرنى اسمه كما لم يحضرنى اسم الشاعر صاحب القصيدة . ولست أذكر أكان هذا البطل قد أحيط به فاضطر ليلقى بنفسه فى النهر أو أنه أراد مهاجمة خصوم لروما فى الجانب الثانى من التبر فرمى فيه بنفسه ليعبره سابحاً . ولم يعننى من أمر القصة كلها شىء ، ولم أجهد ذاكرتى لاستظهار شىء منها . وإنما عنتنى الابيات التى قالها البطل ساعة ألقى بنفسه فى الماء . وعنتنى فيها نغمة المتعبد المقدس إذ يقول :

« ايها التبر ، يا أبانا التبر ومن يسبح الرومان بحمده ، اليك حياة رومانى وعدة حربه خذها اليوم فى رعايتك » . ذكرت هذه الابيات وألقيت على النهر نظرة طويلة وجاهدت كى أجد فيه ما يبعث لنفسى مثل القداسة التى كانت وما تزال تلك الابيات التى حفظت صغيراً مبعثها عندى . وأعترف أنى لم أصل من جهادى الى شىء ، لأنى

لم احاول اجهاد ذاكراتى لأستظهر ماعرفت من تاريخ الرومان ولأجد فيه هذه اقد اسةالتى شاد البطل الرومانى بها على لسان الشاعر الانكليزى . لكنى مع ذلك ما أزال أرى فى هذه الابيات نفسها قداسة تجذبنى الى ناحية التبر وتدعونى لأستشفت من مجراه ومن تاريخه ما أوحى للمئين من الشعراء والكتاب بالقصائد والصحف الخالدة .

وليس نهر السين فى اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر فى اختراقه روما . لكنى إذ أقرأ مايكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه أشعر فى عمق نفسى بما يجعلنى أشارك هؤلاء الشعراء فى محبة نهر باريس واجلاله . ذلك أنى عشت الى جوانب السين سنوات وعرفت من مجراه وتاريخه وكان لى فوق لجته مايجعل له فى حياتى أثراً يدعونى للاشتراك فى شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه والى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرؤه عنه من شعر ونثر ؛ وبكل ماتقع عليه عينى من صور لاماكن فيه ؛ وبخاصة اذا كنت قد قرات عنها شيئا يجعلها فى حكم ماعرفته بنفسى

وشهدت فى سويسرا جمالا وروعة جعلانى أقرأ ما كتب عنهما لاأزداد لها تذوقا وبهما سروراً . وأشهد لقد كنت ، كلما تزايد ما قرأت ، أشد لجمال سويسرا وروعتها حبا. وليس فى شيء من هذا كله أى عجب . فكلنا أكثر بالجمال فى مختلف صوره استمتاعا كلما كان معنا رفيق يشاركنا المتاع . والمتاع يزداد كلما كان الشريك أكثر للجمال قدراً وبدقائقه معرفة . فانت فى صحبة شاعر أكثر استجلاء لما فى منظر من مناظر الطبيعة أو فى حادث من

الحوادث من شعر . وأنت فى صحبة موسيقار ترى بعينيك أنغاماً يثيرها فى الجو جمال الصور . وأنت فى صحبة مصور تحس بما فى الشعر وما فى الانغام من صور رائعة واضحة الحدود . مابالك اذا كان ماتقرؤه فى قصيدة من القصائد أو كتاب من الكتب عن نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع فيه الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقى فيه الفنون الجميلة كلها . أنت إذن تود لو تعود الى هـذا المنظر . وأنت إذا عدت اليه لاشك واجد فيه حديثاً أشهى وأعذب من حديثه اليك قبل أن تقرأ عنه ماقرأت ، وتسمع من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت .

وعدت الى مصر من روما فى العشرة الاخيرة من أغسطس سنة ١٩٢٩ وأتيح لى يومئذ أن أشهد فيها منظراً لم يتح لى المتاع به منذ سنوات . ذلك منظر النيل فى فيضانه . واتيح لى أن اشهد هذا المنظر فى أروع صوره وأكثرها مهابة وجلالا . فلم يبلغ فيضان النيل من العظمة والرهبة منذ عشرات من السنين مابلغه ذلك العام . وما كادت عينى تقع على النهر حتى تحركت فى نفسى كل عواطف الاكبار والتقديس وحتى ذكرت من مناظر النهر التى شهدتها بالاقصر واسوان والسودان مازادنى بجماله وجلاله وروعته شعوراً وماوصل بهذا الشعور بين نفسى ونفوس أجدادنا الفراعنة الاقدمين الذين كانوا يرون فى « البحر الاعظم » معبودهم الذى أتاح لهم الحياة وأمتعهم معها بكل ما فيها من خير وبركة . ولذلك جعلت كلما سنحت لى الفرصة اذهب الى شواطئه أملأ ناظرى وقلبى وجوانحى إعجابا به وتقديسا إياه ودعاء أن يكتفى من فيضانه بما يغمر البلاد

من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون وأهلها من المغرقين .

وأفضيت يوما بخوالج نفسى الى صديق من الذين زاروا أوربا وتنقلوا فى مختلف نواحيها وتذوقوا جمالها فى تباين صوره واختلاف أوضاعه ، وذكرت له عميق شعورى بجلال النيل عمقا لم أشعر به حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعته أثناء بدائع سويسرا فوق موج بحيراتها الهادىء وبين شوامخ جبالها الساحرة السفوح والقمم المغطاة بالنبات والشجر والثلج غطاء يزيد فى روعه جلالها بما يجعلها دائمة التغير والتموج كلما تغير الجو وتموجت السحب . وتبسم صاحبى ضاحكا من قولى معتقداً انى امزح ، ثم كرر هذه الانشودة التى نسمعها دائما وقد نكررها احيانا : وماذا فى مصر من جمال وماذا لطبيعتها من روعة وهى ليست الا مسطوحا من الارض يملك تشابهه الذى لايعبس ولا يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكا . وكيف تقرن هذا الوادى المحصور بين الصحارى الجدباء المحرقة الى سويسرا جنة الله على الارض ، أو الى ايطاليا مهد الفن والجمال ، أو إلى اية بلد يكفيه دلالة على جماله ان ألهم الشعراء والكتاب ورجال الفن فى حين لم تلهم مصر احداً اذ ليس فى تشابهها ما يلهم شعرا أو يقيم فنا .

ليس صاحبى ، مع شىء كثير من الاسف ، هو وحده الذى يفكر هذا التفكير أو ينظر الى بلاده هاته النظرة الخاطئة المملوءة غروراً وعقوقا ، بل ان الاكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون باعجابهم بما رأوا وما لم يروا من بدائع الجمال فى أوربا زهوهم بما

تبعثه مناظر بلادهم الى نفوسهم من ملال . ثم أن كثيرين ممن لم تتح
لهم اسفارهم وقراءاتهم المفاخرة بهذا الزهو ليحدثونك فى أبلغ
الاعجاب بجمال صحراء العرب وما انجبت هذه الصحراء من حب
وحماس وكرم تجلى فى الشعر العربى القديم وليزهون بهذا زهوهم
باملال بلادهم إياهم . وهؤلاء وأولئك هم الطائفة التى تسمى جماعة
المتعلمين فى مصر . وقد يكون لهؤلاء وأولئك من العذر أنهم
ليسوا شعراء ولا كتاباً ولا رجال فن. وأن أحداً لم يحرك فى نفوسهم
صور الجمال الظاهرة والسكينة فى نهرهم وواديهم وفى صحارى بلادهم
وواحاتها المنقطعة النظير كلها فى بهر روعتها وسحر جمالها وقداسة
جلالها . لكن العجب هم أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها
ورجال الفن فيها. هؤلاء كذلك يشعر أكثرهم إزاء ما فى بلادهم من
جمال بمثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين فى مصر .
فقل منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال الى حد يهز شاعريته أو
خياله أوفنه اهتزازاً يخرج من نفوسهم صيحات صادقة كلها تأليه هذا
الجمال وعبادته وتقديسه، ويستثير من أوتار شاعريتهم أوخيالهم هذه
الاناشيد التى تدفع بالفارس ليلقى بنفسه فى غمار التبر متغنياً ! « أيها التبر،
يا أبانا التبر. يامن يسبح الرومان بحمده. اليك حياة رومانى وعدة حربه
خذها اليوم فى رعايتك» . بل إن أحدهم ليحس أحياناً بأن واجباً عليه
أن يتحدث عن بلاده وعن تاريخها وعن جمالها ، فاذا قرأت حديثه
وجدت فيه من جمال العبارة مايخلبك ولكنك وجدته خلواً من
الشعور الصادق والاحساس العميق. وكل شعر وكل أدب وكل فن ليس
صادراً عن شعور صادق وإحساس عميق لا حياة فيه ولا بقاء له .

وسر هذا الجمود فى تقدير جمال بلادنا ضعف الايمان فى نفوس شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوى الفن فينا بالجمال . وسبب ذلك أنهم يستمدون شعورهم بالجمال من الكتب لا من الحياة . فالجميل هو ماتغنى به غيرهم على أنه جميل . أما مالم يقفوا على أن الغير تغنى به فلا يمكن أن يكون جميلا . وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين أجدادنا الذين كانوا يحبون جمال بلادهم ويقيمون لهذا الجمال أعياده ويقدمون له فيها قرابينه ، وما دامت الكتب التى فيها تلك الاغنيات قد أصبحت فى غير متناول الاكثرين منا وأصبحت قراءتها لاتلذ ، فحسبنا أن نقرأ ماتعودنا قراءته تلاميذ عن جمال صحراء العرب وأن ننتقل بعد ذلك لقراءة ماتعودنا قراءته طلابا عن جمال أوربا وروعة تاريخها . فأما مابين ذلك فليس أمره ميسوراً ، وليست قراءته مستحبة . ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة . وإذن فمصر لا جمال فيها وهى بلاد مسطوحة متشابهة كل مافيها مملول وليس فيها مايشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والأدب .

ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب فى سر بقائهم على التقليد وحبسهم نفوسهم على ماسبقهم اليه غيرهم رأيتهم يجيبونك بأن لا جديد تحت الشمس ، وكل ما تحت الشمس قد دون وحوته المكاتب ، وانهم لهذا يكفيهم أن يقلدوا سابقيهم وأن ينقلوا عن معاصريهم من أهل البلاد الأخرى . هم فى ذلك متورطون فى أفحش الخطأ . وأى خطأ أفحش من ايمانهم بأن لا جديد تحت الشمس ! . بلى ! ان كل ماتحت الشمس جديد لانه دائم التجدد . والشمس نفسها

تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه . وكل انسان منا جديد ، وهو كل يوم متجدد . وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجددا . واذا كان حسناً وواجباً أن يمتزج الانسان بالماضي وأن يجدد هذا الماضي طي الكتب فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين وليجدد بذلك للمستقبل صوراً أقوى مافيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضي وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة اذا كان هذا الماضي هو ماضي بلادك ، وكان هذا الحاضر هو حاضر بلادك ، بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال . فاذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك لتتمثل مافيها من جمال وتجليه على غيرك ، أو استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الانسانية كلها وترنمت عن ايمان صادق بأناشيد الخلد في وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الالهام . لكنك على كل حال لن تجد في قصرك نفسك على الكتب إلهاماً صحيحا ولا وحياً صادقا . انما الالهام الصحيح والوحي الصادق في اختلاطك بالحياة وامتزاجك بمظاهرها واجتلائك مافيها من جمال هو الاساس الاول لكل ايمان صحيح .

وكيف لانسان بالغة مابلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل اليه عن طريق حسه هو ، وانما وصل اليه من طريق حس غيره ! كيف له أن يعبر عن جمال لم يجتله ولم يحسه وانما هو يذكره لأن

غيره ذكره ويحس به لأن غيره أحس به . إن العواطف لتختلف مظاهرها ، وان اتفقت فى النفس مصادرها ، باختلاف الوسط الذى تبدو فيه . وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة غير التى تتجلى بها عند أهل الشمال . ولذلك تختلف أناشيد الحب من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر . مابالك بالصور التى يقع عليها الحس ويتأثر بها فى صور تختلف باختلاف الاشخاص أنفسهم ، لأن الاشخاص يختلفون فى قوة كل حاسة من حواسهم وحس من إحساسهم وعاطفة من عواطفهم .

كنت أتصفح يوما مجموعة من الشعر الفرنسى نشرتها مجلة الحوليات Les Annales فى ملحقها وجعلت عنوانها إلى جانب المدفأ Au coin du Feu وقدمت لها بمقدمة صغيرة أشارت فيها إلى مايثيره المدفأ فى نفس أكثر الشعراء بل كلهم من الخواطر ومايجيش فى نفوسهم من العواطف . وفى هذه المجموعة كثير من الغراميات الرقيقة يذكر فيها الشاعر كيف جاءت اليه صاحبته فى هدأة الغرفة التى يقيم فيها ، أو كيف ذهب هو اليها فى غرفتها ، وكيف جلسا على مقربة من النار يصطليان بينا تهطل الثلوج وتكسو الطبيعة المحيطة بهما بثوبها الناصع البياض ، وكيف تبادلا حلو الغرام وتناجيا أغاريده ، وكيف تاهت عليه صاحبته ودلت ثم زادت تيهاً ودلا بينا زاد هو استعطافا وضراعة ، وكيف جثا عند قدميها راجياً آملا ، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها جيشاً من الاحلام والمنى العذبة اللاذعة ، أو كيف جعلا يقرآن ويتحدثان ثم اذا القراءة واذا الحديث يقربان بين قلبيهما حتى يمزجاهما مزجا ، وما

الى ذلك من صور حلوة يزيدها حلاوة أنها تعبر عن احساس صادق وشعور فياض ، وهى مع ذلك وفى تعبيرها القوى هذا بسيطة كل البساطة فى نفسها وفى روايتها ، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا اغراب .

وذكرت حين قراءتى فى هذه المجموعة من الشعر الفرنسى التى ألهمها جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر فى الفن وفى الادب عند أهل أمم الشمال كافة . وليس أحد يعرف الادب الانجليزى شعراً ونثراً الا يذكر جوار المدفأ The Fireside وما ألهم الكتاب والشعراء . بل أن لجوار المدفأ لأثراً عمليا فى حياة هذه الامم الشمالية كلها ، وهو لاشك له مثل هذا الأثر فى الامم الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط فى الشمال وحيث يضطر الناس للاحتماء بالجدران ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل أهل الشمال سواء . وأنت إذ تقرأ شيئا عن حياة أهل هذه البلاد ترى هذا الأثر واضحاً ظاهراً فى عيشهم وفى توزيع ثروتهم وفى ألوان طعامهم ولباسهم وفى صور سرورهم وملذاتهم . فالى جوار المدفأ تجلس الجدة العجوزة تقص على أطفالها قصص الماضى وخرافاته وأساطيره . والى جوار المدفأ تجلس الاسرة تتناول طعامها فى النهار وفى الليل . والى جوار المدفأ يجلس الرجال يقرءون والنساء يطرزن والاطفال من حول أمهاتهم وآبائهم فى شغل بلعبهم وما أعد لتسليتهم . وبجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده ويكتب الكاتب رواياته ويذهب القصاص والحكيم والفيلسوف فى خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره . فلا عجب ، وذلك أثر المدفأ فى حياة تلك الامم ، أن يكون المدفأ وما يلمع فيه من بصيص

النيران وما يرسل من ضياء لا يضيء ، لا عجب أن يكون مصدر وحى والهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف وأن يكون بعيد الاثر فى الفن والتفكير عند الذين يقضون حظا عظيما من وقتهم فى جواره .

وليس جوار المدفأ إلا بعض مظاهر الحياة التى تلهم الشعراء شعرهم فى بلاد الشمال . لكن الثلوج وقر الشتاء وبداية الربيع وتفتح الازهار وكل مافى الطبيعة المحيطة بهم يلهمهم هو الآخر . وهو يلهمهم بذاته عن طريق إتصالهم به . وليس إلهامه إياهم مقصوراً على ما يقرأون عنه فى الكتب التى سبقهم بها غيرهم ، بل ها نحن أولا تحيط بنا طبيعة ساحرة ومع ذلك لا يظهر لها فى شعر شعرائنا ولا فى كتابة أدبائنا من الاثر إلا قليل. ولذلك تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد ، لأن الذين ألقت الطبيعة عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها . بل نرى شعراءنا وكتابنا وذوى الفن منا لا يتصلون ، كما قدمنا ، بالحياة إلا عن طرق غيرهم ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه . وهم فى هذا ينسون أنهم القيثارة التى تنقل الى آذان البشر أنغام الجمال ماثلة فى مختلف مظاهر الطبيعة ، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام سبقهم غيرهم اليها وبذهم فيها وقضى على كل أمل فى أن تكون لهم شخصية قائمة بذاتها حين يشدون هم بها ويحاولون تجديدها . وهم لا يكادون يجدون شيئاً لم يسبقوا به فيما قيل من شعر ونثر فى وصف مصر والتغنى بسحر جمالها ، فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئاً من أمرها . فان هم ذكروا منه شيئا لم يزد على بريق حسن بدا لهم فلم

يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به واكتفوا بأن سجلوه فى فراره، كأنما ليس له فى حياة مصر قرار . ولو أن ربة الشعر والفن والكتابة كانت تلهمهم لآمنوا بأن الفن ليس هو اثبات هذا البريق الفرار ، وإنما هو الوقوف عند الجمال والاعجاب به وأخذه الى مجامع النفس فى مختلف صوره والعود اليه مرة ثم مرة ثم مرة والوصول بالنفس الى حدود الفناء فيه حتى تمتلىء به وتجمع اليه ما تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه ، ثم اذا هذا الجمال يفيض عن ذى الفن . واذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو القصة أو اللوحة أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذى تمثلته نفس إنسانية ممتازة روحا إنسانية تخالط النفوس كلها فتشعر فى أعماقها بمثل ما شعر به رجل الفن . وتحس فى الاشياء بجمال ما كان لها أن تحس به لو لم يكشف هذا الرجل عنه ولو لم يخلقه فى الحياة خلقاً يجعل للانسان على الارض من المجد مثل مجد الله فى العلا .

ولنعد الى النيل . الى هذا « البحر الاعظم » الذى كان أنشودة العالم منذ القدم . الى النهر الذى تأله على الدهر وجل فى كل العصور وتقدس عند كل الاديان . ألم يكن رباً من أرباب الفراعنة يرمزون له بأبيس إله الخير والبركة ؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة وأنه فيها ينبع من أنهار العسل ؟ ما أشك لحظة فى أن الشاعر أو الكاتب أو المصور يجد فى هذا النهر اذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدمه إجلاله وحبه . وحياً لا ينضب وإلهاما يكفيه مدى حياته ، بل يكفى شعراء وكتابا وأرباب فن على تعاقب الاجيال جميعاً . إذ فى تبدل مياهه وتغير مجراه فى كل فصل من فصول السنة . وفى إرتفاعه

بالفيضان جباراً رحيما : يغرق ويسقى ويطغى ويخصب ، وفى خضوعه للسابحات من الفلك فوق ظهره تجرى بالتجارة حيناً وبالمسرة واللهو حيناً ، وفى هؤلاء الذين يتغنون فى سكينة مطمئنة حين هو يحملهم فى أناة ومن غير عجلة الى حيث يريدون ، وفى تعاريجه وشلالاته وسدوده وفى انبعاثه من هنالك هنالك عند خط الاستواء ماراً بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو الى مصبه ، وفى شواطئه المخصبة بطميه الدائمة شكر النعمة ، وفى شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعا وقنوات والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذى يمد بالحياة كل ماحوله ، وفى ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائمى التجدد والجمال : فى هذا كله من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد والكتب والصور وما لا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها الى يوم أزلها إلا بعضه ، لأن مصر وتاريخها ليسا الا بعض هدايا النيل واعطياته .

وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر الاله كل ماملأ به نفسى من تقديس وإجلال فى كل مرة صحبته فيها ، ولن أنسى منظره الذى أشرت اليه حين عج بفيضانه فى صيف سنه ١٩٢٩ وحين أخذنى اليه أخذا إثر عودتى من أوربا بعد مشاهدتى التمس والسين والتبر فى مختلف عواصمها فى الساعات الثلاث التى قضيت مابين الإسكندرية والقاهرة وبعد أن تخطينا النهر عند كفر الزيات وامتلأت نفسى بروعة جلاله. يومئذ تحرك فى نفسى الفلاح القديم الذى ورث عن آبائه وأجداده حب هذا الثرى المقدس واجلال هذا النهر المبارك والاعجاب الى غاية حدود الاعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملأى بحياة كلها البهجة

والنضرة . نعم ! تحرك هذا الفلاح فى نفسى ، فصرت لا أبصر الا بعينه ولا أسمع الا بأذنه ولا أحس الا بقلبه ولاأشعر الا بشعوره، فكنت خلال هذه الساعات الثلاث مأخوذاً بمناظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر أكثرما يأخذنى أى مظهر من مظاهر الجمال . وكان تقديسى على أشده لمشهد مياه النيل فى فيضانه تتقلب موجاتها الحمراء بعضها فوق بعض فى الترع وفى النهر العظيم . يا لها ذات جمال لا يعد له جمال وروعة تسجد أمام جلالها كل روعة ! انى لأشعر ان هذا الماء المملوء حياة وخصباً يجرى فى حنايا نفسى ويجرى فى عروقى مع دمى أكثر مما يجرى فى النهر وفى الترع المتفرعة منه . وإنى ماأزال لذلك أراه أمام نظرى وأنا أكتب فى غرفتى أمام كتبي ومكتبي . نعم ! هاهو يموج حلواً جذاباً ساحراً بلونه الطامى وموجه المتدافع فى طمأنينة بين جروف الترع المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والاشجار ، وتنفسح من ورائها المزارع الخضراء المترامية الى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن وتقوم فوقها هنا وهناك المنازل الترابية اللون تأوى اليها اليد العاملة التى تنبت من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التى يجود الله بها على أهل مصر . وها هو يموج فى عظمة وجلال وقوة تدافع فى مجرى النهر الذى اتخذ منه أجدادنا الفراعنة الهاً يعبدونه، والذى جعل من مصر جنة فيحاء بدل أن يذرها تندمج فيما يحيط بها من صحروات جرداء . أين أنت ياأنهار أوربا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات الميمون الروحات ؛ ومع ذلك يقدس سكان روما التبر وسكان باريس السين وسكان برلين الاسبرى وسكان لندره

الشمس ! ما أكبر ما للأجدادنا من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنة النعيم منابعك الالهية .

أي منظر من مناظر بحيرة ليمان وسحرها البديع يعدل منظر نهرنا فى سحره وبهره ؟ وأى جبال فى سويسرا أو غير سويسرا تعدل هذه المستويات الذاهبة إلى الأفق تكسوها زروع مصر واشجارها وكلها النماء والقوة والحياة المتدافعة ! ! أنظر الى مزرعة الذرة ماتزال فى اول صباها زاهية خضرة اوراقها غضة سيقانها تلتف حولها عقلها وكأنها قصبات الناى يثير منظرها فى أذنك ألحانا لاتدرى أهى عيدان الذرة ترتلها أم هى اصوات الموسيقى المصرية الحنون تموج على أوتار فؤادك لتكمل فى نفسك جمال هذا المنظر المصرى الفذ الجمال . ثم انظر الى اشجار القطن مناط آمال اهلنا الذين تراهم سمر الوجوه سود العيون حادى النظرات تلمع عيونهم ذكاء وتحدث نظراتهم عما جبلوا عليه من جد ومثابرة . وسط هذا الوطن الذى نشأت فيه والذى نسيت معه كل مارأيت مما سواه ذكرت أنى أستطيع أن أجوب أقطار الارض ماشئت ، وأشهد من صور الجمال فى مختلف مظاهر الفن ماحلالى أن اشهد ، وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلذ ويطرب ، وأن أقرأ من أدب العرب وأدب الافرنج كل مايتسع وقتى لقراءته . أستطيع أن أصنع هذا واكثر منه من مثله ثم أبقى بعد ذلك وفوق ذلك مصريا وأبقى أكثر من مصرى ، أبقى فلاحاً قحاً صميما ، أقدس كل مافى مصر ومزارعها من جمال ، وأقدس النيل الذى حبا مصر الحياة وحباها الجمال .

لوأن رهطا من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودونوا وحيه ؛ لرأيت صاحبي الذى هز كتفيه حين ذكرت له إعجابي بالنيل وجماله أشد بنيل بلاده إعجابا منه بجمال سويسرا أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم . نعم ! فالفن يسكب الجمال حتى فى النفوس الجامدة أمام الجمال . وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس الى العمل للمزيد من هذا الجمال . ذلك بأنه يحبب اليهم الحياة ويدعوهم الى زيادة تجميلها والى معاونة الطبيعة لاستظهار زينتها وبهجتها . وما أشك فى أن سويسرا مدينة بكثير من رواء جمالها لعمل الانسان بعد أن دله الفن وأربابه على مبلغ ماجملت الطبيعة به هذه البلاد . ولو أن الفن كشف للمصريين عن جمال بلادهم لعملوا كل مافى وسعهم لزيادة جمالها جلالا وروعة ؛ ولرأينا هؤلاء الذين لايعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة فى جلال سهولته وقد رأوه باهراً بارعا من خلال ماعمل الانسان لاستظهاره فآمنوا به ايمانهم بجمال سويسرا ، ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر ، بل لكان تقديسهم وايمانهم أقوى وأعمق لانه تقديس جمال متصل بنفوسهم جار مجرى الدم فى عروقهم .

وليست طبيعة مصر وليس نيلها وواديها هى وحدها ذات السحر والفتنة ، بل إن تاريخها القديم والحديث ليحتوى من ذلك أكثر مما يحتوى أى تاريخ غيره كما سنبين فى الفصل التالى . وهذا التاريخ وذاك الوادى ونهره كلها جديرة بأن تكون مصدر الوحى لأدب قومى يصور مصر فى ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع فى نفس أبنائها وفى نفس الأجانب عنها ممن يقرأون هذا

الأدب فيعرفون مصر كما هى حقا، لا مصر التى شوهت شر تشويه بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية. ويومئذ تنتقل النفس المصرية خطوة واسعة فى سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها، وتنتقل كذلك خطوة واسعة فى سبيل تمثل الجمال والخير والحق، وتسمو بذلك الى المكان الانسانى الصحيح الذى ألقى على عاتق الأدب فى مختلف العصور أن يمهد له فيمد الانسانية عن طريقه لبلوغ الكمال.

التاريخ والادب القومى

بين مصر الحديثة ومصر القديمة إتصال نفسى وثيق ينساه كثيرون يحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات فى نظم الحكم وفى العقائد الدينية وفى اللغة وفى غير ذلك من مقومات حياة الامم قد فصل بين هذه الامة الحاضرة وبين الامة المصرية القديمة فصلا حاسما جعلنا الى العرب أو الى الرومان أقرب منا الى أولئك الذين عمروا وادى النيل فى ألوف السنين التى سبقت المسيحية . وهم يعللون ما يحسبونه من ذلك بعظم هذه التطورات . فكيف ترى المصريين الذين يتكلمون العربية المصرية اليوم، والذين يتصورون الأشياء على ما تريدهم لغة العرب أن يتصوروها ، تتصل حياتهم النفسية فيما يتعلق بالتصوير والخيال بحياة الذين كانوا يتكلمون الهيروغليفية بما كانت تحمله الفاظها وعباراتها المتوارثة الى القلوب والعقول من صور . وكيف ترى المصريين الذين يدين أكثرهم بالاسلام وأقلهم بالمسيحية والذين تكونت عقائدهم على ما فى كتب الأسلام والنصرانية المقدسة — وبين هذه الكتب المقدسة صلة كل الصلة — كيف تراهم يعتقدون ما كان يعتقده عباد آمون ورع وآلهة مصر القديمة المتعددين ؟! بل كيف تراهم

ترتبط عقائدهم بتلك العقائد القديمة أي ارتباط ؟ ثم كيف ترى المصريين الذين خضعوا لنظم الرومان ، ثم لنظم المسلمين ، ثم للنظم الديموقراطية الحاضرة في صور الحكم ، يفهمون من الحكم ما كان يفهمه أولئك الذين خضعوا في سكينة واستسلام لبناة الاهرام والكرنك وهذه المعابد الضخمة العظيمة الخالد على التاريخ مجدها، والتي ما كانت مع ذلك لتشاد لولا استسلام الشعب لألوان الاستبداد التي فرضت عليه؟! أو ليس القول ، وهذه هي الحال ، بوجود الصلة النفسية بين مصر الحديثة ومصر القديمة أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة التاريخية ؟.. ولئن أرضى هذا الخيال فكرة قومية تريد أن تصل مجد مصر الحاضر بمجدها القديم فهو لن يرضى الواقع الذي يجب الاعتراف به ، والذي يفصل بين المصريين القديمة والحديثة فصلا حاسما .

كذلك يقول الكثيرون . ولقولهم ظاهر من الحقيقة . لكنه لا يعدو هذا الظاهر من الحقيقة في قول القائل بانقطاع الاتصال النفسي بينك وبين اجدادك لأنك تعلمت غير تعليمهم وفهمت الحياة غير فهمهم إياها ، وخضعت لنظام من الحكم غير الذي خضعوا له، وصرت تتكلم بلغات غير اللغة التي كانوا يتكلمون ، وتنظر الى العقيدة بغير العين التي كانوا بها ينظرون . أنت في الظاهر تختلف عن هؤلاء الاجداد جد الاختلاف . وقد يحسب من رآهم ويراك أنك لست منهم وانهم ليسوا منك . لكن ذلك لا يزيد على أنه الظاهر . أما الحقيقة العميقة التي تشعر بها أنت ويثبتها العلم فهي أن بينك وبين أجدادك إتصالا وثيقا لا سبيل الى إنكاره ، وأن

جهله الناس ، وإن جهلته أنت . فهذا الدم الذى كان يجرى فى عروقهم يجرى فى عروقك ، وهذه الانفعالات النفسانية التى كانت تدفعهم فى حياتهم هى التى تدفعك فى حياتك . وأنت محكوم عليك طائعاً أو كارهاً أن تخضع للوراثة التى أورثوك إياها .

فاذا أنت دخلت يوماالى نفسك تحاسبها على أعمالها، واذا أنت امتحنت يوما خلقك وحللت فطرتك وتعرفت سجيتك إذن لرأيت جوهر أجدادك قد إنتقل اليك . فاذا خضعت بحكم الحياه المحيطة بك لصورة غير صورتهم وظاهر غير ظاهرهم ، فسك الذهب عملة مختلفة الاشكال لايغير من أنه ذهب وان المعدن الاصيل باق فيه بقاء معدن أجدادك فيك .

وبعد ، فهل تحسب هذه المظاهر التى يظنونها كافية لقطع الاتصال النفسانى بين مصر القديمة ومصر الحديثة من الجسامة بما يكفى لقطع هذه الصلة بل لاضعافها ؟ أليست هذه الاديان التى تتابعت على مصر وهذه النظم التى خضعت لها ، وهذه اللغات التى تبدلت عليها ،هى الاديان والنظم واللغات التى تداولت على مصر وعلى البلاد المجاورة لها ؟ ! أليس الاسلام والنصرانية واليهودية هى الاديان التى يعرف كل واحد منها الدين الذى سبقه ويعترف به؟! أليست جميعا قد نزل الوحى بها فى مصر وفلسطين وبلاد العرب وكلها متجاورة أقرب التجاور ؟ ! أليست اليهودية ، وهى أقدمها جميعا ، تتصل بالفراعنة وبمصر القديمة اتصالا متينا . والنصرانية تتصل باليهودية وتعترف بها .والاسلام يتصل بالنصرانية وباليهودية ويعترف بهما ! . . . ثم أليست لغات الفراعنة والعرب

والشام تصور حياة هذه البلاد المتجاورة حياة متشابهة فى التاريخ القديم قريبة الشبه فى التاريخ الحديث ؟ ! وأما نظم الحكم فلا تغير من الحقائق التاريخية شيئا لأن نظم الحكم تتأثر بالزمان الذى تكون فيه فى مختلف انحاء العالم فهى أضعف من أن تترك فى نفسية الامم أثراً عميقا.

فاذا ذكرت كذلك أن الوسط الطبيعى لم يتغير فى وادى النيل منذ آلاف السنين وأن هذا الوسط الطبيعى هو الذى يصقل اللغات والعقائد والانفس ، وان الذين أغاروا على مصر ثم استوطنوها أجيالا فقدوا كل صفات اجناسهم القديمة وخضعوا لحكم الوسط الطبيعى وأصبحوا وكأنما أباؤهم واجدادهم فى مصر منذ عهد الفراعنة — اذا ذكرت هذا أيقنت إذن أن بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصالا نفسيا وثيقا، وان واجبا على المصريين أن يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال، وان خير ميادين البحث العلمى هى الادب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة .

ولقد يدهشك أن تعلم أن كثيراً من طقوس العبادة فى مصر هو اليوم كما كان منذ ستة آلاف سنة وكما كان من قبل التاريخ لم يتغير بتعاقب الأديان المختلفة على مصر . وأنت ترى أن كثيراً من الحفلات التى تعتبر دينية عند الاقباط وعند المسلمين كحفلات الزواج وحفلات الجنازة تتشابه أشد الشبه وبخاصة فى بلاد الارياف حيث الوراثة سليمة لم تعصف بمظاهرها أعاصير الحضارة. هذا مع أن هذه الحفلات تختلف عند مسلمى مصر عنها عند مسلمى الدول الاخرى كالغرب وتركيا وتختلف عند اقباط مصر عنها عند نصارى الدول الاخرى. فهل تستطيع ان تجد لذلك تفسيراً إلا ان هذه الحفلات سابقة فى

مصر على المسلمين وعلى الأقباط وعلى الاسلام وعلى المسيحية، وأنها ترجع الى تواريخ ربما كانت سابقة على كل ما كشفت عنه التواريخ .

أشار بعضهم الى أن تلقين الميت عند مسلمى مصر عادة ليست شائعة عند اكثر المسلمين . وأشار الى أن عبارة هذا التلقين وما جاء فيها عن منكر ونكير وسؤالها وتحديد الاسئلة والتحدث الى الروح والنصح لها بالجواب على صورة معينة كل ذلك يعيد الى النفس صورة طقوس الدفن والحساب عند قدماء المصريين وما كانوا يتحدثون به إلى الروح لتنجو . ولست واقفاً على تفاصيل هذه الطقوس القديمة لأؤكد مايؤكدون من مشابهة بينها وبين التلقين . لكن هذه المسألة تدل على كل حال على أنا ورثنا حتى فى العبادة طقوساً تسللت الينا من الأزمان القديمة وأنا اقتبسنا من الدين الاسلامى ماأسبغناه على هذه الطقوس وصبغناها به . ومن يدرى اذا لم يكن عند اخواننا الاقباط مثل ماعندنا من ذلك أو اكثر منه .

ومظاهر الحزن على الميت عند المصريين المسلمين تختلف اختلافا عظيما عنها عند أهل الأمم الأخرى وتتفق وهذه المظاهر عند سائر المصريين كما تتفق وما كان عليه الحال عند قدماء المصريين . فكما ترى النسوة من أهل الميت وخدمه وتابعاته قد انتقلن مع جنازته فى الازمان القديمة نادبات مولولات لاطمات خدودهن مجللات بالسواد أيديهن اذا بك ترى مثل هذا تماما عند المسلمين من المصريين وبخاصة فى الارياف التى ماتزال خاضعة لاحكام العادات القديمة . ولعلك إن بحثت عن سبب الافراط فى الحزن وعدم النظر الى انتهاء الحياة بشىء من السلوى وجدته فيما كان يعتقده الاقدمون من بقاء

الروح أو بعبارة أدق الشخص الباقى (الكا) يرقب ماسيحل بالجسد من ألوان الألم ساعات الحساب . وكأنما تجسدت هذه الصورة أمام المصريين القدماء فكانوا يرون بعين تصورهم هذا العزيز الذاهب خاضعاً لآلهة الحساب وقسوتهم فيولولون ويندبون ويتألمون مع الميت على فى ذلك مايلين قلوب الآلهة ، كما يلين ألم النظارة والحاضرين قلب الحاكم الذى يحاسب رجلا أمامه على سيئة اجترحها . وبرغم تداول الاديان بعد ذلك بقيت هذه الفكرة أشد حياة فى النفس المصرية فكانت لذلك أشد فزعا مما بعد الموت من سائر الأمم الاسلامية ، ولم ينهض من كتابها وأدبائها من تعشقوا الحياة ولذائذها على نحو ماتعشقها عمر الخيام وغيره من المسلمين فى الفرس وفى بلاد اسلامية أخرى .

بل لقد ترى من مظاهر وراثة المصريين اليوم لتراث أجدادهم الاقدمين ماهو أبلغ فى الدلالة على متانة الصلة النفسية بينهما . ذكر غير واحد من المشتغلين بدراسة الطقوس المصرية القديمة ان مايخلعه المسلمون المصريون اليوم على بعض أوليائهم المحليين من مقدرة وسلطان وما يقومون به لهذا الولى من طقوس وفرائض فى « مولده » هو بعينه ما كان يقوم به المصريون الاقدمون فى هذه المنطقة لآله محلى من آلهتهم من طقوس وفرائض وما كانوا يخلعونه عليه من مقدرة وسلطان .

ولا أريد أن أقرن الى ذلك ما يوجد من شبه عظيم بين قصة موسى عليه السلام من حيث وضعه فى التابوت والقاء أمه به فى اليم

والتقاط فرعون له . وقصة أوزوريس وخيانة سخت له بوضعه فى تابوت والقائه فى اليم وعثور إيزيس عليه عند جبيل من أعمال الفينيقيين . فقد لايكون الشبه هنا دليلا على أن القصة واحدة إختلفت عليها أيدى الرواة ، وقد تكون عادة الالقاء فى اليم بعض عادات ذلك العصر فأصابت أوزوريس اله المصريين القدماء الاعظم كما أصابت موسى عليه السلام بعد ذلك على النحو المبين فى الكتب المقدسة .

* * *

لاسبيل إذن الى انكار ذلك الاتصال النفسى الوثيق الذى يربط تاريخ مصر منذ بدايته الى عصرنا الحاضر ، والى آخر العصور المستقبلة التى يمكن أن يعرف التاريخ . ولئن تبدلت أسباب العيش ماتبدلت ، ولئن قربت سكك الحديد والبواخر والطيارات وكل ما يمكن أن يتمخض عنه خيال العلم من وسائل المواصلات بين اجزاء العالم ما قربت ، بل لئن تهدمت الحدود الدولية وفنيت العاطفة الوطنية ، فسيبقى أبداً هذا الاتصال النفسى الوثيق الذى يجعل من مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة ، فيما يصل اليه عقلنا من تصور الازل والخلد ، بما ورث أجداد هذا الوادى الاحفاد ماسكبته طبيعة الوادى فى وجودهم من حياة نفسية إن تأثرت بمظاهر العيش وألوان التفكير وصور الحكم فستظل أبداً طبيعتهم التى لم تتغير منذ خلق الانسان الى يومنا هذا ، ولا شىء يدل على انها ستتغير ما دام الانسان انسانا .

واذ كان الانسان أقوى سلطانا على الحياة وحكما لها كلما تمثل

ماضيه فى شخصه وكلما تمثلت الامة تراث آبائها وأجدادها جميعا بالغا مابدوا فى غيب الماضى أى مبلغ ، فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن أجدادهم جميعا وأن يربطوا بين حاضرهم وماضيهم رباطا ظاهراً لكل عين . وانهم إذن ليضيفون الى قوتهم قوة وليضاعفون مجدهم أضعافا وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعا ولها ذوقا . ولقد رأينا نحن أبناء مصر اليوم من ذلك مالا يدع مجالا للشك فيه. فكلنا صفق طربا لاكتشاف آثار توت عنخ آمون ، وكلنا ملأ ماضغيه فخراً بمدنية هذه الاسرة الثامنة عشرة الفرعونية على مابيننا وبينها من آلاف السنين ، وكلنا حدثته نفسه : إذا كان أجدادنا قد تسنموا هذه الذروة السامية من ذرى المدنية فلم لا نتسنمها نحن كما تسنموها . ولم يك منشأ هذا الطرب والفخر والامل مالهذه الآثار النفيسة من قيمة لذاتها ومن قيمة على التاريخ وكفى ، بل كان منشؤه فى غور النفس وأبعد أعماقها . كان منشؤه اعتزاز النفس بذاتها واعتقادها القدرة على ملك الحياة بعد يأس من هذه المقدرة . أرأيت الى الفقير البائس الذى لايعتز من آبائه بجاه ولا بمال كيف يجاهد الحياة وتجاهده ولا أمل له الا فى الحظ الحسن وهو من غدر القدر ابدا على حذر . ثم أرايت الى المعتز بجاه بيته وماله كيف ينظر الى غدر القدر باسما وهو ابدا يؤمن بأن له آخر الامر الغلب . هذه العواطف هى التى تحرك الامم بقوة مضاعفة ملايين المرات اكثر مما تحرك الافراد . ولذلك يعمد المستعمرون الذين يريدون أن تذل لهم أمة الى أن يلقوا فى روعها انها كانت على التاريخ عبدة ذليلة فحتم عليها أن تظل عبدة ذليلة

فاذا جاز لنا أن نامل مايأمل المعتز بجاه بيته وماله وكان لنا من آثار الاقدمين المتصلين بنا هذه الصلة النفسية الوثيقة مايطوع لنا أن نجدد مصر القديمة، كما جدد الغربيون اليونان والرومان، وكان لنا من وراء ذلك مطمع فى أن نقر فى مصر حضارة قوية فتية كالحضارة التى أقرها الغربيون فى أوربا . فمن الجريمة على أنفسنا وعلى الوطن أن ننى فى ذلك أو أن نقصر فيه أى تقصير .

والسبيل الى ذلك كله هو البحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة فى ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة . ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسعاً فى هذا المضمار . فمنذ كشف شامبوليون عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز حجر رشيد لم تن البعثات الغربية من أوربا وأمريكا عن البحث والتنقيب فى الآثار المصرية وبعث ماتنطق به أحجارها الصامتة وما تنطوى عليه أوراق البردى القديمة . وهذا فضل لهم يجب الاعتراف به وشكرهم عليه ، لكنه يحملنا نحن وزراً كبيرا ، وزر الاهمال فى تمثل هذا التراث المجيد الذى يضم حضارات باهرة زاهرة يمكن أن تكون لنا اليوم نبراساً لاقامة حضارة لاتقل عن هاتيك بهراً ولا تقل عنها ازدهارا .

وإنى ليخيل إلى أن المصريين الذين يتقدمون الى ميدان البحث فى الشؤون المصرية القديمة أدنى الى التوفيق فيه من أبناء أية أمة أخرى يتقدمون اليه . ذلك بان غير المصريين انما يترجمون مالا يتصل بحياتهم ومالا تسرى روحه فى قلوبهم وأفئدتهم ، فلهم إن أخطأوا عذر المترجم الذى ينقل من لغة الى لغة . أما المصريون الذين يوفقون

الى مثل ماوفق اليه أولئك الغربيون العظماء من براعة فى الوقوف على أسرار المصريين القدماء فانهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون فى غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والاخيلة والمعانى فيؤدونها الاداء الأوفى .

ولقد وفقت فى مطالعاتى الى مراجعة بعض كتب مما خطه بعض الاقدمين من اليونان عن المصريين المعاصرين لهم وعن عقائدهم فألفيت فيها روحا وحياة أكثر مما ألفيته فى كتب أخرى وضعت حديثا . ولا عجب فاليونان ومصر متجاورتان وروح العصر كانت تربط الفريقين جميعاً بأوثق رباط .

ولست أقصد من ذلك الى قصر التجديد فى قوميتنا الادبية على آثار الحضارة الفرعونية ، فذلك محال لأنه مخالف لخلد حياة الامم . وانك لترى هذه العصور الوسطى فى أوربا ، والتى يسمونها العصور المظلمة ، ذات أثر فى تاريخ الادب الغربى غير منكور . والذين يزعمون أن مصر خضعت من بعد الفراعنة لحكم الاجانب فتاريخها لذلك ليس تاريخها يزيدوننا تاريخا . انما خضعت مصر لناموس ماتزال اكثر الامم الملكية خاضعة له بجلوس اسرة أجنبية عنها على العرش الذى يعتبر تاجها وعنوان مجدها . ثم أن مصر أيام اليونان والرومان والعرب والى عصر قريب جداً كانت ذات أثر كبير فى سياسة العالم وفى توجيه دفة حضارته . وكل هذا الماضى المجيد تراث يحق لنا أن نفخر به وان نعيد الى حياتنا وحياة أبنائنا ذكره لنزداد به على الحياة قوة وعزة وليزيدنا بالحياة متاعا وفيها سعادة . وإنما أريد أن لايقل النشاط فى الكشف عن حضارة

الفراعنة وتمثلها وإحيائها عن نشاطنا فى الكشف عن كل عصر آخر من عصور تاريخ مصر . وأن يعمل مؤرخونا وكتابنا وأدباؤنا ليتمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد فيجمع ذهنه وعقله وقلبه وفؤاده وتصوره وخياله ما كان لمصر فى ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة تنقلت فى تاريخ مصر على كاهل القرون من الفراعنة الى البطالسة الى مقاومة مصر استعمار روما الى الحضارة الاسلامية التى ازدهرت عن شاطىء النيل وأضاءت العالم بنورها قرونا متوالية الى عصور التدهور أيام الحكم العثمانى ومقاومة ما كان من ظلم تلك العصور الى هذه النهضة الحديثة التى تنهض مصر كما تنهض الأمم الشرقية جميعاً . وليس ريب فى جلال هذا التاريخ كله جلالا يوحى للطالب ويلهمه أقوى إلهام فى ميادين الأدب الهاماً قوياً بما يجعله يقيم من صروح هذا الأدب آثاراً شامخة باقية على التاريخ بقاء آثار مصر منذ الفراعنة الى عهدنا الحاضر .

ولست أغلو فى تقدير قوة هذا الالهام القومى الذى ينبعث من تاريخ مصر لكل من عنى بدراسة هذا التاريخ وأطواره ومواضع الاتصال بين مختلف عصوره . ولقد أشرنا فى الفصل السابق الى قوة إلهام الطبيعة المصرية وجلال وحي النهر الاله وأحسب ما تقدم فى هذا الفصل يزيد فى قوة هذا الالهام بما يصور من تاريخ من أقاموا الى جانبى النهر يتعاقبون على ألوف السنين . ويضاعف فى قوة هذا الالهام كذلك خلد هذه الآثار الباقية منذ الفراعنة الى عهدنا والى من بعدنا حتى يرث الله الأرض ومن عليها . هذه الآثار التى ترك الأقدمون

منذ بناء الأهرام الاولى الى أن أقام الرومان مقابرهم بعد ان مهدلهم الفن اليونانى حين دخل الى مصر مع البطالسة . وما اقامت المسيحية بعد ذلك من كنائس وبيع ، ثم ما كان بعد ذلك من آثار الفن الاسلامى الدقيقة البديعة التى ماتزال تشهد بها المساجد والتكايا وسبل الماء وما اليها . هذه الآثار وحدها قد ألهمت كثيرين من الأجانب عن مصر ممن زاروها فهى جديرة أن تلهمنا ابناء مصر اضعاف ما ألهمت اولئك . وهى ليست إلا مظهراً لحياة آبائنا واجدادنا من فجر التاريخ فنحن وحدنا الذين نستطيع ان نكشف عن صلتها بهذه الحياة وان نجتلى من خلال هذا الكشف حياة الروح المصرى الذى بث الى نواحي العالم فى غير فترة من حياته حضارات سعد بها العالم قرونا وقرونا . وأينا لا يقف كمصرى صادق الاخلاص لوطنه وتاريخه أمام أى من الاهرامات أو من آثار طيبة أو من الآثار الأخرى الكثيرة التى تعمر الشاطئين ؛ أو أمام أثر من الآثار الرومانية أو المسيحية ؛ أو فى مسجد من المساجد الاسلامية المملوءة ديبة وقداسة ورهبة ـ أينا لا يقف كمصرى صادق الاخلاص لوطنه وتاريخه عند أى من هذه الآثار أو عند اكثر من واحد منها يستلهمه صورة أهلنا الذى شادوه وصورة عباداتهم وعاداتهم ومعيشتهم ثم لا يخرج بعد وقفته هذه وقد تجسد الوطن بمعناه الكامل فى نفسه فدفع الى فؤاده وروحه من صور الالهام أرقاها وأسماها . وأينا يقف هذه الوقفة ثم لا يحس بنفسه جزأ من هذا الوطن باقياً بقاءه خالداً خلده ولا يدفعه ذلك الى أن يتغنى بأناشيد بقاء الوطن وخلده فى رعاية الله وعنايته . وهل أدب قومى يصدر

عن هذا الالهام كله يمكن أن يعدله أدب قومى لأمة من الامم مما عرف العالم أو عرف التاريخ . وقصص هـذه الآثار وقصص آبائنا الذين شادوها وقصص حياتهم المادية والنفسية والروحية كل ذلك حاضر تحت أيدينـا لمن أراد أن يكلف نفسه مشقة التنقيب فيه . فاذا تمثلنا هذا التاريخ واستنطقنا هذه الآثار وقدسنا كما يجب أن تقدس هذه الطبيعة المصرية الخصبة المحسنة وهذا النهر الذى أنشأ الله به مصر وأنشأنا بفضله عليها فألهمنا ذلك الادب الذى نرجو فلن يقف هذا الأدب عنـد تحقيق رسالة الادب من تجلية الخير والحق والجمال . بل إنى لأعتقد انه يصل الى أكثر من هذا وأن قبساً من نور هذه الأديان التى شهدت مصر وتوجت بالاسلام سيضيء ظلمات هذا العصر المادى التى غمرتنا حضارة الغرب بآثاره، وسيقدم للعالم بذلك غذاء روحياً يلتمسه العـالم اليوم فى مختلف انحائه فى الشرق والغرب فيضل سعيه ولا يجد اليه سبيلا .

ولا يحسبن أحد ان هـذا النشاط المـادى العظيم فى الاختراع مما هو بادٍ اليوم فى كل انحاء العالم يجنى على فـكرتنا هـذه شيئا . فان هذا النشاط سيصل يوماً إلى فترة يستقر فيها . ويومئذ يشعر العالم بظمأ أى ظمأ الى الحياة النفسية الفنية الممتعة . ولعله واجدها فى هذا البعث الذى نطلب الى مصر أن تقوم اليوم به .

محاولات فى الادب القومى

منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هـذا القرن نشأ حوار بين كتابنا وفى مقدمتهم كبارهم عما اذا كان هذا العصر الذى نتخطاه منذ الثورة العرابية الى وقتنا الحاضر عصر ترجمة أم عصر تأليف . وهو حوار من نوع الحوار الذى نشأ بين القديم والجديد فى الأدب، يرجع الى مثل أصله ويقوم على مثل أساسه . وأصل هـذا الحوار وأساسه فى الحالين نضال مابين الحضارتين ،حضارة الغرب الحاكمة اليوم والحضارة الاسلامية التى حكمت العالم زمناً ثم جاء دورها فى الاستجمام انتظاراً للبعث . فأنصار الجـديد هم الذين لا يرون مفراً من أن تغزو حضـارة الغرب أمم الشرق فهم يريدون أن يهيؤوها لهذا الغزو حتى تستقبله مسـتعدة لتمثل آثاره متهيأة للوقوف أمامه فى شئ من الكرامة والعزة ، وأنصار القديم هم الذين يقدرون ما آل اليه حال الحضارة الاسلامية وهم يخشون عليها كل جديد أن يفسدها وأن يقضى عليها . لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعاً فى العصور الماضية . وليكفلوا هذه الغاية هم يريدون أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكا لهم يقولون فيها شاؤوا ومنها هذا حلال وهذا حرام ، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين

تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالاعدام أو بالموت الأدبى . وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبغوا على أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من عداهم أن يتبعهم . وهم ليبرروا موقفهم هذا يدعون بالسلف الصالح ويدعون أنهم وارثوا تراثه وانهم باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حربه بأنه خارج عليه وعلى تعاليمه . ولا ريب فى تعاليم السلف الصالح كثير من الحق . ولو أن خلفاءه هؤلاء قالوه بخير مما يقولونه اليوم لازداد جانب الحق فيه وضوحا وجلالا . لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم شىء كثير وأن يضيفوا اليها ترهات وأوهاما وأن يفرغوها مع ذلك فى قالب رسمى لتصبح فى حماية الدولة وليسبغ عليها القانون من القداسة مايعاقب معه مخالفها .

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التفكير حراً والعلم حراً والرأى حراً والتعبير عنه حراً وأن تمتد الحرية فى هذه الناحية الى أقصى الحدود . وهم قد جعلوا سبيلهم ، أول أمرهم ، لتثبيت هذه الحرية أن ينقلوا عن الغرب وأن يترجموا علمه وأدبه وآراءه . وما دام كتاب الغرب وأدباؤه ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملة لوائها فيجب أن ينشر هذا اللواء فى الشرق كما هو منشور فى الغرب ويجب أن نستعير من اساليب الغرب فى الكتابة وفى التفكير ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التى يذيعها كتاب الغرب وفلاسفته، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية الحادة جمود القديم حتى تحطمه ثورة الحديث عليه فنكون من بعد ذلك أحراراً ننعم من حريتنا فى بحبوحة السعادة العقلية والفنية ولا يقف هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المملولة ينسدن

علينا حياتنا . ويجب من أجل ذلك أن ننسى القديم كله وأن نقيم مكانه من علم الغرب وحضارته وتفكيره جديدا .

شيء من التمحيص يكشف عن أن جمود القديم كل هذا الجمود وثورة الحديث كل هذه الثورة انما دفعت اليهما حرارة النضال . وانهما ما كانا يندفعان الى الحدود التي اندفعا اليها لولا هذا النضال. وقد بينا في الفصل السابق ان الخصومة بين القديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة ؛ لأن الحديث ينطوي على شيء من القديم بل على أكثره . والقديم لا يمكن أن يتصل بقاؤه اذا هو لم يتصل الحديث ولم ينتشر في ارجائه. أليس فخار الأمم بماضيها لا يقل عن فخارها بحاضرها؟ ألسنا في مصر نفاخر بالفراعنة وبالعصر الاسلامي أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث ؟ فحال إذن أن نتصور حديثاً لا يتصل بالقديم الذى أثمره ؛ أو نتصور قديما لا يتطور مع الحديث وينضم اليه . فاذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية ناشطة هي التي تقوم أساساً لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ويضطر أهلها الى استعارة حضارة غيرهم والعيش في كنفها .

بهذا الروح حاولت منذ سنين عديدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة وأن أسلكها سبيل الأدب القومي وأن أحقق بذلك بعض مااقترحت على مس شلزنك كاسلز مما أشرت اليه في فصل الادب القومي . وقد بدا لى في وقت ما أن اجعل من بعض عصور مصر الاسلامية موضع هذه الدراسة، وكانت الحروب الصليبية أشد مااستهوانى من هذه العصور . لكنى وقفت يومئذ متردداً .

أفأقدم فأبحث فأوالى البحث فأقدم للجمهور ثمرة بحثى فى صورة من صور الأدب القومى فاذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئنى من غير أن تزن بالقسط ما إليه قصدت متأثرة فى ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية مما أشرت اليه حين الكلام عن فتور القصص ! ! خير إذن أن أبحث عن ميدان لايعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد . وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومى شهى الثمرة خصب غاية الخصوبة . وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم . ولنطلق لحرية الأدب غاية مداها فى تصوير حديث هؤلاء الآلهة مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها موازنين بينهم وبين آلهة الاغريق الذين ألهموا من فوق الأولمب حضارة أوربا الحاضرة .

وقد بدأت مباحثى عن أبيس العجل الاله ونشرتها فلم أجد من أحد نفوراً منها أو ازوراراً عنها مما أثبت لى أن فى النفوس الى هذا الأدب القومى ظمأ وإنها صادية لورده اذا هى وجدت من يقدمه اليها . وكنت قد جعلت بحثى عن أبيس فى صورة قصة لاخوان ذهبوا الى المتحف المصرى فوقفوا أمام تمثال أبيس وجعل أحدهم يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الاساطير الميثولوجية التى أحاطت به شيئاً غير قليل . ولأميز هذا المحدث عن بقية أصحابه دعوته نجى أبيس . وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض فى الشعر فدعوته الاشيب وجعلت منه رجل صلاح وتقوى . وكان من بينهم شاب غير مؤمن بادىء الرأى بعبادة أبيس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة فاكتفيت تمييزاً له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب . وقد ظل الاخوان

فى مناجاتهم لأبيس وفى مناقشة النجى أقواله زمناً ثم خرجوا فانطلقوا مارين بشكنات قصر النيل الى فندق سميراميس ليتناولوا الشاى فيه إجابة لدعوة أحدهم الذى تسمى من بعد باسم الذى دعانا الى الشاى . فلما آنست ظمأ النفوس الى هذا الأدب القومى فكرت فى متابعة بحثى . وما دام القوم قد دعوا الى الشاى فى سميراميس فليكن حديثنا بعد أبيس عن هذه المملكة الالاهة التى جلست على عرش بابل والتى غزت مصر وحكمتها زمناً . وتحدث القوم وهم فى بهو الفندق وقد جلس الى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين من بينهم فاتنة ذات دل ساحر عبث بالاشيب أشد العبث ، بدله من ورعه وتقواه جنون الهوى وفتك اللوعة . وجعله يتساءل فى حديث القوم عن سميراميس مقدساً للجمال فى حيث يكون سعيداً بحكم النساء الرجال سامياً بشأنهن الى ما استهوى اليه رقة الفاتنة وما جعلها ترنوا اليه بنظرات معسولة زادته هوى ووجدا . وفى خلال ذلك كانت قصة سميراميس تقص بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجابا ودلا . ونشرت هذه القصة هى الاخرى وكنت لما أطبع كتابى (فى أوقات الفراغ) . وقد وجدت من الجهد فى كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق فى بحثهما ما جعلنى أشك كل الشك فيما اذا كان وقتى يسمح بمداومة البحث والكتابة وتدوين (حديث الآلهة) على ما كنت قد اعتزمت أن أسمى الكتاب الذى يجمع بين دفتيه هذه الأساطير . لذلك نشرت حديث أبيس وحديث سميراميس فى كتابى (فى أوقات الفراغ) . لكن هذا البحث استهوانى من بعد وعاد يجذبنى اليه بقوة زادها إمعانا تكرار زياراتى للاقصر واسوان ومشاهدتى مختلف آثار الفراعنة فى وادى الملوك

وفى صحارى مركز الدر وجباله الممتدة مابين اسوان وحلفا . وإجابة لدعوة أجدادنا وآلهتهم عدت أبحث ودونت حديث ايزيس وهاتور وأفروديت . وفى هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجى أبيس والشاب والذى دعانا الى الشاى والاشيب وفاتنة سميراميس ، ويتصل به حديث هوى وصبابة كنت أرجو أن يظل متصلا حتى تباركه آلهة مصر القديمة كلها مجتمعة . لكنى عدت فوقفت من بحثى عند هذه الفصول الثلاثة التى تتصل أوثق اتصال بفصلى أبيس وسميراميس وتتابع حوادثهما. ولولا ماسبق لى من نشر هذين الفصلين لكان موضعهما لا ريب هنا فى هذه المحاولة التى قمت بها فى سبيل الادب القومى . أما وقد سبق نشرهما فانى أكتفى بنشر فصول ايزيس وراعية هاتور وأفروديت هنا راجياً أن تعود بى الآلهة الاقدمون تحدثنى وأحدثها وتوحى إلى بما بقى من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس. ولست كفيلا بأن تستجيب الآلهة الى دعائى وقد اتجه ذهنى واتجه روحى وجهة جديدة فى البحث ، وفى بحث ليس دون بحث الآلهة الأقدمين مشقة ولكنه أجل منها مقاما وأروع فيما ينطوى عليه من حق ونور وجلال وجمال .

وأعتقد أن الذين يعنون أنفسهم بطالعة الفصول الثلاثة التى تلى هذا الفصل سيقدرون ما كان للفراعنة الاقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها اشد حب وأخصبه . ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذى بدأت فى الصورة التى تلذه من صور الادب القومى . ولعله يشعر حين بحثه وحين تدوينه آثار هذا البحث بما شعرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تبعاً لما

حدث فى أوربا واتباعاً لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة ليس معناه اهدار تراثنا كمصريين وكشرقيين وكمسلمين والانتقال الى تقليد الغرب فى أدبه القومى كتقليدنا إياه فى لباسه وفى طعامه . كما أن ابتكار طرائق جديدة فى الزراعة ليس معناه أن أترك الارض المملوكة لى لأذهب أجيراً عند الذى ابتكر هذه الطرق الحديثة. ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها فى الارض المملوكة لى . كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب فى بحث تاريخنا وإقامة أدبنا وفى ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا . عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ولا نصبح عيالاً على غيرنا ننال من فتاته وننال عشرات الاضعاف من ذلك من زرايته ومن احتقاره .

هذا وقد أثبت بعد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين من واقع حياتنا الحاضرة نقلت حوادثهما مما شهدت دور القضاء وما قصه على بعض زملائى المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة . وهما صورة من أدبنا القومى عن حياتنا الحاضرة . وهما من نوع الأقصوصة التى ازدهرت فى هذا الزمن الأخير . وقد نشرتا فى مجلة الهلال فى سنة ١٩٢٦ . وإنما أذكر أن وقائعهما نقلت الى مما شهدت دور القضاء لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشىء الكثير الذى يصلح مادة للقصص ويطبعه طابع مصرى صميم ويجعل الأدب الذى يستلهم مادته أدباً قومياً بكل المعنى القومى . وليست دور القضاء هى وحدها مسارح الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكاتب القصصى ويلهم الأديب أياً كان نوع الأدب الذى يريد أن يضع .

بل إن فى الحياة المصرية فيضاً من مصادر إلهام الأدب فى مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما فى غيرها . والمقاصير تنطوى من ذلك على ما لا يقل عما تنطوى عليه الحقول والمزارع . وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور الادب القومى فى الحياة الحديثة .

وها نحن الآن نعرض على القارىء محاولاتنا فى الخمسة الفصول التالية راجين أن يجد شبابنا فيها مثلا لطليعة من طلائع الأدب القومى المصرى .

إيزيس

« ولد اوزوريس من الآله جب (الأرض) ومن الآلهة ناوت (السماء) حين أدرك هـذين الآلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرهم . ولما كبر تزوج من أختـه إيزيس وجلس على عرش المصريين وصار ملـكا على الآلهة والناس جميعاً . وقداستطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم الى السلم وأن يعلمهم صناعاته .

« وكان « ست » إله الشر أخا لأوزوريس . ولما رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة فدعاه الى وليمة أعد فيها صـندوقا فاخر الصنع ووعد أضيافه بأنه مهديه لأى منهم طابق الصندوق حجمه ؛ فدخل اليه الأضياف واحداً بعد الآخر حتى اذا كان دور أوزوريس واستوى فيه — وكان قد صنع على حجمه — أسرع شركاء إله الشر وأقفلوا الصندوق وألقوا به فى النيل ، فدفعه التيار الى البحر وقذفت به الأمواج الى شاطىء الشام وبنى عنده تحوطه شجرة أنماها القدر لتحميه من الأعين الى أن جاءت به إيزيس الى مصر بعد حزن وبحث . لـكن ست عثر بأخيه ثانية فى إحدى جولاته جوف الليـل فمزق جسده أربعة عشر جزءاً ألقى بكل منها فى مكان . فعادت

إيزيس الى بحثها واستعادت أجزاء الجسم واستعانت بأختها وبابنها الاله هورس وبطقوس الدين فردوا اليه حياة شابة خالدة لايحياها على الأرض بل فى السماء . وكذلك بعث «الاله الملاك» ووعدبالبعث كل من يفعل الخير حين حياته .

(أبيس — ص ٢٨٣و٢٨٤ من كتاب فى أوقات الفراغ)

« لقد حدثتكم بحديث إيزيس فرأيتم مبلغ وفائها لأخيها وزوجها أوزوريس . قتله أخوه إله الشر تيفون فاستقلت البحر باحثة عن جثته فلما عثرت بهاوعاد تيفون الى تفريق أجزائهاعادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ، ثم حبست نفسها لتعيد الى إله الخير حياة الخلد ، وعملها هذا آية فى الوفاء من امرأة .وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة .

. . . .وقمنا الى نزهتنا فأقلنا زورق وسعنا جميداً . ودارحديثنا حول عبادة ايزيس فى مصر وروما واليونان . »

(سميراميس — ص ٣٠٦ من كتاب فى أوقات الفراغ)

تخطينا أبواب سميراميس فاذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها وعلى الطريق بعده ضياء مبهما اختلط بضوء القمر السابح فى السماء ولما تكتمل دارته ، فهو ثلاثة أرباع تعرج طرفه المشطور فجعل له ذقناً وأنفاً وجبيناوضاء . وكست الاشجار الرصيف المقابل للفندق ظلاما . فلما بلغنا الشاطىء ألفينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه الندى فجعل منها مرآة له وحده . ونزلنا على الدرج إلى مرسى الزوارق وقد اصطفت بعضها الى جانب بعض ومنها الصغير يسير بالمجداف ولا قلع له ، ومنها ما لفت قلوعه فى انتظار من يستقله ،

ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيأت منه معبداً للزهرة وآلهة الهوى جميعاً. ووقفنا وتقدم الذى دعانا الى الشاى يتخير لنا زورقا لاستور على جوانبه، لحديث الرجال فى غيرحاجة إلى ستر وان تناول الجمال وآلهته والهوى وربآته . وتنادى أصحاب الزوارق، كل يكشف من فضائل زورقه عما يحسبه مرغبا إيانا فيه، وجعل كل منا يدير نظره فى هذه السوابح ليتخير ألطفها وأنضرها . فأما الاشيب فوقف فى شبه ذهول برهة لاينظر الى الزوراق ولا الينا . وتخيرنا زورقنا وجاء صاحبه يعاوننا على التخطى اليه . فلما كان دور الاشيب وأمسك رب الفلك بيده سمعت الأشيب يهمس فى أذنه:

— أيان ذهبت السيدات الافرنج والسادة الذين سبقونا الى هنا منذ هنيهة ؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالاشيب ونظرت الى « الريس » فاذا به يجيب فى وجد من يدرك قداسة الهوى مشيراً الى ناحية جسر عباس :

— هم سألوا عن دهبية أحد البكوات هناك . وأحسبهم يقصدونها .

أخذنا أماكننا وحل الريس قلع زورقه بعد مادفعه فوق لجة الماء والنور بمجدافه . وسرى الى نفوسنا نسيم عذب بليل زاده القمر رقة وعذوبة. وجرى الزورق يدفع ذلك النسيم فى قلعه وقد وجهه الريس الى ناحية جسر عباس كأنما هداه سؤال الاشيب طريقه . وسرحت بصرى نحو الجزيرة فاستوقفته احدى الدهبيات وكأنها بجمالها قدس هوى أنبته الماء وانبت فيه أنوار الكهرباء

المطلة من نوافذها الرشيقة الضيقة . وأدرت نظرى الى سميراميس فاذاهى بأضوائها الكثيرة منارة هدى لفلك النهر جميعاً. وأشركت أصحابى فيما جال بخاطرى فكان الاشيب أسرعهم الى اجابتى :

— هى منارة هدى للقلوب والابصار

وابتسمنا . . أما هو فلم يبتسم لانه كان فى شغل بالذهبية التى ذهبت اليها الفاتنة وأصحابها .

ثم قال الذى دعانا الى الشاى يداعبه :

— لعلك لاتشير الى فندق سميراميس بل الى سميراميس الالاهة التى جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى . ولعل الحظ الذى هدانا الى الفندق والالاهة فيه ، يهدينا الى الالاهة حيث تكون

وابتسم الاشيب لهذه الدعابة وابتهل الى الله أن يجيب الدعاء . ثم توجه الى نجى أبيس بقوله :

— وأنت ياصاح خذ بنا فى حديث ايزيس . فلعل الآلاهة التى عثرت على أخيها وزوجها أوزوريس تهدى هذا الزورق فيعثر على صاحبتها الالاهة السيدة سميراميس

قال نجى ابيس

— لا يكن قولك عبثاً بمعبودتنا القديمة التى امتد سلطان ربوبيتها من مصر الى أثينا وروما ، ولتؤمن بأن لاسمها سراً تعنو له القوى حتى اليوم . واذا كانت قدتغلبت إبان حياتها زوجة لأوزوريس على كل العقبات بالجمال والعلم والطيبة فانها ظلت بعد ماارتفعت الى أثير الخلد تؤتى عبادها المخلصين من روح قوتها مايتغلبون به على كل عقبة . لكنها تطلب اليهم أن يكونوا مثلها

ذوى صبر وإيمان. فلا تحسب ياصديقى أنها عادت بأوزوريس فى صندوق الخيانة الذى حبسه فيه أخوه إله الشر من غير عناء. بل لقد ركبت فى سبيل ذلك من الأهوال ماتضعف دونه همم الرجال. ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير الشر ويغلب الرجاء اليأس لأسلمت للقدر وعنت لنكد الحظ. وقد كادت تضعف أول ماعرفت الخبر وكاد يقعد بها الهم والحزن دون النضال. وكفاها يومئذ أن قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد. لكنها عافت أن تستسلم لتيفون وأن تدع الخير دفينا فى محبسه غير مخلد فى السماوات. وسارت فألفت على شاطىء النيل عند مدينة قفط أطفالا سألتهم عن الصندوق وهل رأوه؟ والاطفال . كما تعلمون : أحباب الله . وهم لذلك ملهمون من أمر الغيب مالا يلهم الرجال . فلما عرفت منهم سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر والى جبيل فى الشام . وكان أهل جبيل قد بهروا بنمو الشجرة التى أحاطت به وحفظته فى جذعها . فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عمادا لبهو قصره . وأحاطت الرياح المقدسة ايزيس بذلك كله خبرا : فجلست عند مورد ماء مكتئبة لاتكلم إنسيا . فلما مر بها خادمات الملكة عشتروت حيتهن وتحدثت اليهن ومشطت شعورهن وعطرت أجسامهن بالعطر الذى يفوح من شذا شخصها المقدس . وعدن الى سيدتهن فتاقت الى معرفة الغريبة التى ضوعتهن بالشذا العذب. وبعثت فى طلبها فبهرها جمالها وحكمتها واتخذت منها صديقة لها وعهدت اليها فى تربية ولدها وشفائه . وكذلك أتيح للالاهة الحزينة أن تقيم على قبر زوجها الدفين فى عماد البهو تشدو حوله كلما سجى

الليل بأغنيات الموت والأسى ، فاذا فرغت من شدوها عادت الى الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض والفناء . . وفطن بعض من فى القصر لها وأبلغوا الملكة خبرها . فراقبتها ليلة حتى اذا رأت النيران تخرج من فيها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة. فسلبت الالاهة من الطفل ما كان أصاب من أسباب الخلد وإن أبقت له صحته. وخافتها الملكه وحسبتها ساحرة فعرضت عليها أن تأخذ ماتشاء وأن تغادرهم . فاختارت إيزيس العماد وشقته وأخرجت منه الصندوق . وما كادت تراه حتى علا نحيبها ؛ ثم حملته فى قارب وبعدت عن جبيل وفتحته وقبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه وبكت أمر بكاء . ولما بلغت مصر نحت الصندوق فى مكان وذهبت تبحث عن ابنها هورس وعن أختها نفتيس ليعيدوا للملك الآله حياته.

« فلعلك ترى ياصديقى ان ايزيس تجشمت فى سبيل العثور على جثة زوجها أوزوريس من المشقة مالا تتجشم النسوة فى سبيل البحث عن أشلاء أزواجهن ؛ بل عن أزواجهن الأحياء . وانما هو الوفاء الذى جعلها تستمرىء المشقة ؛ وحرصها على غلبة الخير للشر هو الذى هون على ربوبيتها أن تخضع (للاكندر) وامرأته .

« ولما عثر (ست تيفون) أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه مزق الجثة أربعة عشر شلواً ألقى كلا منها فى مكان . وليس عسيراً تصور ماتجشمته إيزيس للعثور من جديد بالأشلاء جميعاً . واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضواً فرداً كان الشر قد ألقى به فى النهر طعاما للأسماك مما اضطر إيزيس الى أن تصنع مكانه صورة له من الشمع ليتم لها الرجاء فى إعادة الحياة الكاملة لاله الخير

الذى عبث به الشر وأعوانه شر عبث . وكأنما كان الخير فى عصور الآلهة مثله فى عصور الناس هيابا للشر متحاشياً إياه قاصراً عن دفع هجماته عاجزاً عن مهاجمته . فان إيزيس خشيت بعد الذى لاقت من نصب فى بحثها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به فأقامت أربعة عشر قبراً فى أربع عشرة قرية من القرى التى عثرت بالأشلاء فيها وزعمت كل واحد منها قبر أوزوريس لتضل بذلك أخاه فى مطاردته إياه . وما تزال هذه القرى تدعى الى يومنا بهذا الاسم . فأبو صير ليست إلا بوزيرى أو قبر أوزوريس. وإقامة هذه القبور جهد مضن أشد اضناء . وهو بعض الوفاء الذى تميزت آلهة مصر القديمةعلى غيرهامن الإلاهات الجمال اللائى ازدرين الوقار وسخرن من العفة .

قال صديقنا الشاب :

ـ ظريفة أساطير القدماء.وأقر لكم الآن بخطأى حين سخرت من عبادة أبيس . فما دام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر وللنور والظلام آلهة، فمن حق ثمرات الارض أن تكون لها آلهة . وللثور كما للنيل وللشمس حظ فى انبات هذه الثمرات.فمن حق الثور أن يكون آلها كالشمس والنيل . ومن حقه أن يكون أوزوريس أوغيرإوزوريس من اكابر الآلهة رمزا له

وقال الذى دعانا الى الشاى باسما :

— ما أسعد جماعتنا بعودك الى ذوق أساطير أسلافنا ، وما أشدنا سعادة باجلالك عبادة أبيس . فهو وحده الذى اختص مع النيل والشمس بعبادة مصرالقديمة منذ أقدم عصور تاريخها . أما

سائر الآلهة فكان لهم شأن غير شأنه وحديث غير حديثه . كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه . وأحسب أن توزيع الاختصاص بين الآلهة في مصر القديمة وفي اليونان وروما ونسبة الخير الى أحدهم والعلم الى غيره والشر الى ثالث وهلم جرا، لم يكن الا بعد تطورات سياسية واجتماعية مر بها عباد هذه الآلهة. وأحسب أنهم أول نشأتهم كان كل منهم إلها طائفيا له كل صفات الربوبية عند أهل طائفته . كما كانت أوثان العرب قبل الاسلام آلهة كل منها لقبيلة . ولكل في نفوس عباده كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة من صفات الربوبية . ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت طوائف بأخرى فكان آله الطائفة المغلوبة على أمرها شقيا مثال النقص والفساد . وكان آلها الطائفتين الممتزجتين صنوان في الفضل بلغ من تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه . واذكر على سبيل المثال أن آمون اله طيبة لم يكن اول أمره ذا مكانة عند غير عباده . وكان رع هو الاله المقدم في انحاء مصر الاخرى . فلما آل الى طيبة عرش مصر وكان لزاما أن يصير لآمون مجد طيبة لم يكن الا ان امتزج برع فصار الاله آمون رع . ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزعت جهود الالوهية بين آلهة عشائرها المختلفة وخص كل منهم بعمل من الاعمال ووصف به. وأعمال هذه الآلهة هي ماقضت حاجات عبادها النفسية ان تكون. وهي لذلك مظهر من مظاهر شهوات الانسان ومخاوفه وآماله . على أن التاريخ المعروف ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع . وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير. وأن هورس

كان آله الشمس فى هليوبوليس . ولقد ظل له ولفتاح آله منفيس أكبر السلطان حتى جعلت طيبة آلهها آمون قريناً لرع وآلهاً للشمس كهورس وفتاح . وكان لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من حيوانات الأرض .

قال الشاب :

— وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلا لآلهتهم ؟ أو لم يكن خيراً أن يرسل كل إله للناس رسولا منهم من أن يرسل حيوانا أعجم ؟

وأجاب الذى دعانا الى الشاى :

— ماأحسب المصريين القدماء كانوا قوما فى بداءة الحضارة حتى أصدق الرواية التى تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس كانوا أول الخليقة أكثر من الآلهة عددا وخبثاً حتى خشيهم الآلهة فتقمصوا أجسام الحيوان لينالوا عطف الناس عليهم وليطفئوا من نار شرهم . بل انى لأميل لتصديق مايروى من أن جنود مصر هزمت غير مرة فى وقائع متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها بالفرق الأخرى فاتخذت لكل فرقة علما جعلت عليه رسم حيوان كى يهتدى الجند به . فلما تم لهم هذا النظام سار النصر فى ركابهم مما أعز أعلامهم عليهم . وكما يقدس أهل هذا الزمان رمز وطنهم وكما يفتدون بالروح علمه كذلك قدس قدماء المصريين أعلامهم وما عليها من صور وقدسوا تبعاً الحيوانات التى تمثلها هذه الصور . ومع الزمن أصبح هذا التقديس عبادة لهذه الحيوانات وتأليها إياها على نحو مايفعل عامة الناس فى كل بلد وكل دين بأزاء أوليائه المقربين

« ويضيف المؤرخ القديم ديودور الصقلى سبباً ثالثا فى تأليه

قدماء المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا فى ذروة حضارة كاملة . ذلك أن هؤلاء المصريين انما كانوا يقدسون فى الحيوانات فائدتها للحياة الانسانية . والانسان لايقدس إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها. فالبقرة تحرث الأرض وتنسل ثيرانا وأبقاراً للحرث والنسل، ومن صوف الغنم يلبس الناس ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن. والكلب حارس أمين ورفيق فى الصيد بارع . ومن الطيور ماعبده المصريون لقتله الثعابين والحشرات الضارة بالناس وبالزرع . أما صاحب الجلالة المقدسة أبيس فقد كانوا يعبدون فيه قوة اخصاب الأبقار لتنسل والأرض لتثمر .وفى نسل الأبقار وفى ثمر الأرض متاع للانسان وفائدة أى فائدة .

« لم تكن الحيوانات إذن رسلا للآلهة بل كانت هى الآلهة نفسها .

أتم الذى دعانا الى الشاى قوله وأراد نجبي أبيس أن يتم حديث إيزيس. لكن الشاب استمهله بابتسامة وباشارة لطيفة من يده وقال .

— ليس أشهى ياصديقى من حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا أعذب . ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تملقاً . فقد رأيت حنقى أول الأمر على عبادة أبيس ومقاطعتى لقصصك عنه استخفافا بأمره. أما وقد ملكت شجون هـذا الحديث الشجى على نفسى وفتحت أمام بصيرتى آفاقا جديدة للفكر فأستأذنك وأستأذن إخواننا فى أن أقطع نم قصة إيزيس لألقى بفكرة استثارها الآن عندى مارواه مضيفنا الكريم عن ديودور الصقلى . وإنى بعـد ذلك لآذان كلى تلتهم رواية إيزيس التهاما .

« عبد قدماء المصريين آلهتهم لأنهم كانوا علم النصر وغلب الأعداء ولأنهم كانوا يقدسون فى آلهتهم ماتفيض على الحياة الانسانية من خير ، أليس هذا المعنى هو خلاصة الايمان الانسانى فى مختلف مظاهره ؟ ! أليس هو إجلال اقوى الظاهرة والخفية التى تمكن للانسان فى الحياة ، تدر عليه خيرها وتكفيه شرها ؟!وهل هذا المعنى إلا السليقة الفطيرة لكل حيوان : سليقة الاحتفاظ بالحياة فى خير ظروفها فهل لهذا نتيجة إلا أن الايمان يحل من الانسان محل السليقة من الحيوان : وإنما الفارق بينهما أن الايمان يتطور لأن إدراك الانسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة على حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل فيؤدى عجزها الى فناء الحيوان الذى لم يؤت من فضل الطبيعة مرونة فى السليقة

« هذه فكرة طرأت الآن على أرجو أن تعينونى على تمحيصها. ويخيل الى أن جانب الحق فيها أرجح . فمن الحيوان ما مرنت سليقته فامكن تألف الانسان إياه . ولئن ظل قرار السليقة ثابتا فى الحيوان الاليف وحيوان مثله لم يتألف فان اختلاف سلوك كل منهما فى الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلاف يقظة المشاعر المختلفة عند كل منهما يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من الحيوان أو يبوستها . فأنت قد تتألف اسداً أو نمراً وقد ترى سلائقه الوحشية تختفى. لكن هذه السلائق أغلب عنده مما ادخلته عليها من تحوير . فما يكاد محرك يحرك السليقة حتى ينسى الاسد أو النمر ماطبعته أنت عليه ويعود الحيوان المفترس بكل شراسته ووحشيته. فاما ان تألفت كلبا أو جواداً كان لتألفك إياه أثر فى سليقته فلا

تتحرك فيه الغرائز الاولى ، الا أن يدفعه لذلك دافع شديد . ولا ينهض اعتراضا على هذا أن الاجيال التى مرت على هذه الحيوانات الأليفة هى التى جعلتها كذلك .فلو ان الانسان وجد فى الحيوانات الأخرى التى مازال يعتبرها عدوة مثل ماوجد فى الحيوانات الأليفة من مرونة فى السليقة لتألفها دى الأخرى ولجعل منها عونا له فى الحياة . والانسان أمرن الحيوان سليقة،وقد تشكلت سليقته هذه على الاجيال وكانت القوالب الاولى التى سبكت فيها لتهذب وتنقى هى قوالب العقيدة . لذلك أرى جانب الحق أرجح فى قولى : ان العقيدة تحل من الانسان محل السليقة من الحيوان .

بهتنا جميعا لهذه الفكرة الجريئة المفاجأة واشتملنا الصمت زمنا . ثم قال الذى دعانا إلى اشاى :

— لعلك ياصديقى تستطيع بعد سماعك بقية حديث ايزيس أن تمحص فكرتك الطارئة . ولعلنا بعد سماعه اقدر على معونتك فى هذا التمحيص.وأومأ الى نجى ابيس :

— عد اذن بنا ياصاح الى حديث إلاهة الجمال وألوفاء . قال نجى ابيس :

— نعم هى آلهة الجمال والوفاء . ولن يضير وفاءها أن خدعها الظلام يومافحسبت تيفون زوجها واسلمت اليه نفسهاوأعقبت منه. ولولا علم اوزوريس بانها خدعت لما غفر لها خطأها

كان الاشيب الى هذا الموضع من الحديث شارد اللب يفكر فى جميلة سميراميس ويعد ببصره الى الدمييات كلها يريد ان يعرف ايها قصدت . فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم وقال :

— ولن يضير وفاء أية حسناء ان يخدعها ظلام معبد الحب فينسلها جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها وتبعث فى الحياة من ضياء حسنها مايذيرجوانبها المظلمة . وهل الوفاء الا مظهر تجارى لعقد مالى اساسه الفائدة هو عقد الزواج . وهل هو الاجناية على الجمال وآلهة الجمال :

ابتهج نجبى أبيس بهذا الدفاع الذى أوحت به جميلة سميراميس الى الاشيب فأضلته ، وعاد الى حديث إيزيس فقال :

— استعادت ايزيس بمعونة ابنها هورس وصديقيها الالاهين توت و نوبيس أشلاء زوجها أوزوريس وجعلت همها أن تعيد اليه الحياة . وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالا من الشمع ووضعت الجزء الذى عثرت به فى مكانه . فلما اجتمعت الاجزاء كلها أقامت ايزيس وأختها نفتيس حول الجثة وقد لبستا ثياب الحداد وحلتا شعورهما ودقتا صدورهما ورؤوسهما بأيديهما كما لاتزال النائحات اليوم تفعل ، وجعلتا تناديانه مستعينتين بزملائهما الالهة لبعثه . فأما ايزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادبة :

« عد إلى بيتك فأعداؤك ليسوا هنا . عد إلى بيتك وانظر إلى فأنا أختك التى تحب . لاتبتعد عنى وعد إلى بيتك حالا فانك كلما غبت عن ناظرى اضطرب قلبى وحارت عيناى تبحثان عنك وجريت فى كل ناحية لكى أراك . عد إلى من تحب. عد الى أختك . عد إلى زوجك . أواه يامن وقف قلبه فلا ينبض، عد إلى بيتك ولا تبتعد عنى أنا أختك ابنة أمك . ان الآلهة والناس يبكونك جميعا ، أما أنا فأدعوك معولة فى صراخ يشق عنان السماء أفلا تسمع صوتى؟!

أنا أختك التي أحببت على الأرض بما لم تحب مثله » . وأما نفتيس وكانت عند رأسه فأعولت نادبة « أيها الأمير الجميل عد الى بيتك لتسرى عن نفسك فليس أحـد من اعدائك هاهنا . انهما أختاك الى جانبك تحرسان سرير موتك وتدعوانك نادبتين. قم من سريرك لترى أختيك ؛ لقـد هزم اعداؤك ، وها أنا حارسة اعضائك . قم أنظر الى ابنك هوروس ملك الآلهة والناس. انه يقيم الطقوس من أجلك ؛ فتوت ينشدك ويدعوك بتراتيله وأبناء هورس يحرسون جثمانك ؛ وروحك تؤدى لها طقوسها كل يوم إذ يجىء الآلهة يحملون الأوعية المقدسة لتعميد صورتك ؛ عد الى أختك ياأميرنا يامليكنا ولا تبتعد عنا »

وأمسك نجى أبيس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثر بحزن ايزيس ؛ فقال الشاب :

— ما أشبه نواح ايزيس ونفتيس بنواح مصريات اليوم ! أو ليس حل الشعور ودق الصدور والصراخ الذى يشق عنان السماء من طقوس حزن نسائنا على اختلاف طبقاتهن ؟! أفترانا رغم تناسخ العصور والأديان والحكام والأجناس التى قطنت الوادى خاضعين لحكم ماانبت الوادى من عقائد وعادات وتقاليد ؟

قال الذى دعانا الى الشاى :

— وما طقوس الحزن الى جانب مالانزال نؤمن به على انه دين القبط أو المسلمين وهو ميراثنا عن أجـدادنا من قدماء المصريين؛ روى هيرودوتس أن الرجال فى غير مصر يقصون شعورهم آية الحزن بينما يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الأسى ، وذلك

ماتصنع اليوم ! وأن المصريين وحدهم يحتملون أن تعيش الحيوانات على مقربة من الناس وفى دورهم . ومايزال ذلك شأن مزارعينا ! وانهم دون غيرهم يختنون أبناءهم ، فعنهم ورث اليهود والمسلمون الختان. وذكر غير هيرودوتس طقوساً كان يقوم بها أجدادنا لبعض آلهتهم يقوم بمثلها اليوم عامتنا لبعض الأولياء. وفى ذلك مصداق ماذكره كثيرون من أن العقائد لاينسخ بعضها بعضاً بل يضاف بعضها الى بعض وأن كثيراً مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم انما هو بقايا متخلفة من أديان قديمة هى فى النفس الانسانية أشبه بآثار الحيوانات البائدة المتحجرة فى الصخور، والتى لايسهل لذلك زوالها .

« وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تتمة لحديث ايزيس وبعثها لاوزوريس مايعيد الى ذهنك كثيراً غير ماذكرت من عادات أهل هذا الجيل وعقائدهم

اتجهت الانظار الى نجى ابيس وكأنما يريد كل أن يعرف مالايزال فى نفسه من آثار الفراعنة العظام . واستطرد هو فى حديثه :

— ولما أدت ايزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبنفتيس وبالآلهة فتلوا من الادعية والاوراد لروح اوزوريس ما كفى لعودها الى جسمه تمهيداً لبعثه. وهنا تختلف رواية البعث. فمن قائل انه كان بعثا زراعيا. ومن قائل انه كان حيوانيا . والذين يذكرون البعث الزراعي يروون أن الجثة حملت بعد الاوراد والادعية الى شجرة جميز ووضعت خلال ورقها ، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام الى حياة خالدة تحياها فى السماء . والذين يذكرون البعث الحيوانى يروون

أن الجثة وضعت بعد الاوراد والادعية فى صورة بقرة صنعت من الخشب ظلت فيها سبعة أيام كذلك ثم تم بعثها الى الخلد :

« ثم عاد اوزوريس من العالم الآخر يوما وسأل ابنه هورس عن أجل الاعمال فى نظره ؛ فكان جواب الاله الشاب : أن يثأر لابيه وأمه ممن أساء اليهما . وأعلن الحرب على آله الشر وكانت بينهما موقعة دامت أياما وانتهت بهزيمة الشر ووقوع تيفون أسيراً فى يد إيزيس . لكنها بدلا من أن تقضى عليه أو تسجنه أطلقت إساره ؛ وقد أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك ؛

هنا تداخل الاشيب معترضاً :

— ياهورس من ساذج ! أحسب أن أمه نسيت يوم خدعها الظلام وألقى بها فى أحضان تيفون فأخصبها ! فهل تراها وهى آلهة الخصب تقسو بتيفون لأنه الشر ؛ منكرة ماللشر فى أحيان كثيرة من فضائل وحسنات ؟!

وعجبنا لضلال الاشيب بعد سحر الفاتنة إياه واتجهنا لسماع قصة إلاهة الوفاء .

— انتزع هورس تاج الملك من رأس أمه فغضب لذلك الآله هرمس وأبدل ايزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الالاهة هاتور رمز ايزيس نفسها . ويذهب القصاص الى أن هورس ازداد لذلك غضبا فقطع راس أمه . لكن هذه الرواية موضع شك عند المؤرخ اليونانى فلوطرخوس . وهو يذهب الى أن الأم والابن تصالحا وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه فى موقعتين نصراً حاسما

وصارت ايزيس بعدذلك إلاهةالخصب وهورس إآله الخير ، ولعلهما ارتقيا بعد ذلك الى السماء راضيين

هذا حديث ايزيس فى مصر . أما حديثها فىاليونان وروما..

هنا أشار الاشيب من جديد معترضا .

— امسك بربك وحق ابيس دنيهة. ألا ترون الىذلك الزورق المرخاة سدوله من حوله ؟ أقصد بنا اليه ياريس . انى لأستحس فيه همساً من نجوى الهوى لا أشك معه فى أنه معبد سيدتنا سميراميس . وهذا هو يتجه صوب دهبية صديقنا الخليل ، فلئن صدق ظنى فما قولكم فى أن نسبق السيدات والسادة اليها حتى لايحسب منهم أحد أنا تأثرناهم لغاية

وبدا على حديث الاشيب من الجد الذى تلهب به الزهرة دماء عبادها ما ردنا عن مخالفته . وردنا كذلك أنا شعرنا بالغبطة لرؤية الفاتنة من جديد فأشرنا الى الريس كى يقترب من الزورق المرخاة سدوله. فأخبرناه وأنه حقا الزورق الذى استقله السيدات والسادة. واستحثه الاشيب كى يسبقهم الى الدهبية .وألفينا الخليل واقفا على ظهرها كأنما ينتظر أحداً. فلما رآنا سابحين نحوه أشار الينا مناديا

— تقدموا فشاركونى فى ليلة ساهرة هى جديرة بمثلكم ظرفاوأدبا.

ولما رآنا السيدات والسادة حين ارتقوا الدهبية بدورهم دهشوا وألقت الفاتنة على الاشيب نظرة معسولة ردت اليه صوابه . وكانت ليلة ساهرة ارخى كثيرون فيها لانفسهم العنان وإن أبى نجى أبيس إلا أن يتم حديث ايزيس فى مصر وروما واليونان

راعية هانور

صعدنا إذن الى دهبية صديقنا الخليل ، ثم أدركنا السيدات والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس اليها. وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت اليه صوابه . وتلقى الخليل الفاتنة وأصحابها باسما قرير النفس وتقدمهم الى أماكن وثيرة أعدت على ظهر السابحة. وأدرت طرفى فيما حولى فألفيت مقصفا بلغ من الكمال أن كان بشيرا بليلة قصف تثير فى النفس أحلى المنى . وأخذنا من السيدات والسادة مجلسا كمجلسنا منهم فى الفندق ، ثم كنا معهم أقل كلفة بعد ماقدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم .وسألت الفاتنة صديقنا الأشيب باسمة ان كان قد نسى من تاريخ آلهة الاشوريين حديثا أو خبرا . وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أبا عن جد حتى لا يتميز الافرنج عنهم فى قليل ولا كثير ، وحتى صارت عربيتهم الى العجمة أو كادت . وبينا نتحدث أقبل علينا آخرون صعدوا من زورق، وآخرون جاؤا من ناحية الشاطىء .ومع هؤلاء جاءت جماعة يحمل أحدهم قيثارة والآخر رقا والثالث عودا والرابع كمنجا . وعرفنا فى العواد مغنيا رقيقا تعرفه مجامع الاصدقاء ولا يعرف المحافل العامة. وفى أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة

ودل ، هن الساقيات الراقصات المحييات فى لجة القمر وفوق لجة الماء خيالات عذارى البحار . ولما تكتمل الساعة حتى كانت الدهبية فى عالم يموج بالرجال والنساء تغمرهم جميعا غلالة رقيقة من ضياء فضي وهواء عذب يحمل معه قراً منعشاً . وفى مثل هذا العالم يتسرب الى النفس احساس الرضى والمسرة وتجرى فى العروق آمال حلوة مبهمة ويستشعر الانسان بما سيكون من أسباب الطرب والنعيم . ويزيد فى هذه الاحساس والآمال والمشاعر مايكون بين الجمع من تبادل ابتسامات وتحيات ونكات . والحق أنك كنت ترى الأشيب ملكه كل شبابه فضحكت عيناه وافتر ثغره ونضح بالبشر محياه ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها الا لترتد الى قرارة نفسه تزيده ذوقا لسعادته ونعيمه . أما صديقنا الشاب فكان لايستقر فى مكان ، بل دائم الانتقال يحيى من عرف ويقدم نفسه لمن لم يعرف ويتبرع بأجمل الثناء لكل ذات دل وسنا . وأما نجبى ابيس فجلس الى أصحابنا السيدات والسادة يسمرون . وفيما هم فى سمرهم دلف اليهم الخليل يكرر مايتوجه به لكل زائريه من شكر ومديح . قال صاحب السيدات والسادة محدثا الخليل ومشيرا الى نجبى ابيس :

— لقد كان صاحبنا واخوانه يتحدثون فى سميراميس بحديث آلهة أشور وآلهة مصر الفراعنة . فليتنا عرفنا من أمر حديثهم قبل اليوم فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية ، أو ليتنا يتاح لنا ذلك فى وقت قريب

قال الخليل :

— ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية . أن لدينا فى هذه الدهبية من العدة مايجعل منها أن شئتم معبد الكرنك أوشئتم قصر الفرعون أو ماتشاؤن من صور حياة آبائنا الاقدمين . وبين هاتيك الفتيات اللاتى حضرن من تمت بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها وبكل مافيها إلى عباد آمون بامتن نسب . رالبها يرجع الفضل فى عدة الدهبية كما يرجع اليها الفضل فى غرام تأصل فى نفسى بكل حياتنا المصرية القديمة . وسترون انا لن نجد نصبا فى إعداد دهبيتنا الا مايجد معد المسارح فى تهيئتها لرواية جديدة

قال الخليل هذا وأجال بصره فى الحاضرين حتى استقر فى ناحية، ثم نادى :

— الى يا راعية هاتور .

— لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين ! هل لنا فى ليلة فرعونية ؟

وكأنما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى إذ أقبلت الينا تشق موج الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل وحور وذات قسامة تعيد الى النفس صورة الفرعونة نفرتيتى ورأسها الساحر . والتقى نداء الخليل وجواب الفتاة وإقبالها صمتا خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية راعية هاتور فى نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب نقاد من النساء . واستقبلت الفتاة القمر فى طريقها الينا ، فكانت أشعة عاشق السماوات هالة زادت ابنة الفراعنة رقة وسحراً . وتلفت الاشيب الى ناحيتها مع من تلفتوا ودارت حدقتاه معها فى بطء دل على ذوقه جمالها . وأدرت ناظرى لمحة فاذا فاتنة سميراميس تحدج

الاشيب والراعية وكأنما دب من الغيرة الى نفسها أن تلفت غيرها من نفس هـذا المفتون بها حتى لتخشى أن تفتنه عنها . والصمت مخيم والفتاة تقبل والاعين مشدودة اليها والخليل يفكر فى الليلة الفرعونية ويكاد ذلك يطول لولاأن بدأت الفتيات والنساء حديثهن وتهانفهن كأشهى ما يستطعن ليصرفن الانظار من جديد اليهن ولكى لايحسب أحدمن الرجال أنهن أقل من تلك الراعيةسلطانا . قالت إحداهن :

— ماأعظم سرور الراعية بدعوة الخليل لليلة الفرعونية !فهى لاتتقن رقصا كالذى تقوم به فى دورها هـذا . وأكبر الحظ فى اتقانها إياه أن ملابسه تخلع عليها شيئا من الجمال .

وأجابت جارة لها :

— يجب أن نحمد للخليل على كل حال . فالضيف أسير الحلى .

واردفت كل واحـدة عبارتها بابتسامة تجلت خلالها ثناياها الحلوة العـذاب فأمتعت النظر كما امتع صوتها السمع ، واستعاد هذا وذاك التفات من حولها كما استعادت غيرها التفات من حولهن

وتداول الخليل والراعية وجيرانهما فيما يصنعون ، ونادى هو بالخدم وسار واياهم خلفها الى الدور الاسفل ، ثم اذا بهم يصعدون من جديد واذا ستور تمد واذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعونى مشيد وترى خلال جدر هذا القصر عمدا تذهب الى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد الكرنك من ناحية كما ظل يطل من الناحية الاخرى على النيـل ورياضه النضرة . ودعانا الخليل لنهبط وراءه وأشار الينا جميعا أن ندخل الى غرف الدهبيـة كى يلبس كل منا

الرداء الفرعونى الذى يصادفه. وعدنا الى القصر المطل على الكرنك فاذا الحاضر الذى عرفنا يختفى واذا عصر سلف يبعث واذا الاحفاد تتقمصهم أرواح الاجداد وإن ظلوا فى ريعان الفتوة واهاب الشباب. وجلسنا الى موائد التى عليها هي الاخرى بنسيج العصور الغابرة ومدت عليها ألوان الشراب فى أباريق من فضة . وبقى صدر المكان خاليا تخطر فيه أوانس زانتهن راعية هاتور وقد اتشحت بثوب أبيض انعقدت أطرافه فى صورة الوردة بين ثدييها وظل باديا من خلاله تخطيط جسمها ، ولبست على رأسها شارة ايزيس قرص الشمس مقتعدا قرنى هاتور ، وأمسكت بيدها مفتاح الحياة واحتذت بحذاء راقصة شد الى رجليها بسيور من فضة . ودار الخدم يصبون الشراب فى أكواب من بللور صنعت على صورة زهرة اللوتس، وسارت وراءهم فتاة أمسكت بيدها صندوقا صغيرا على صورة صندوق مومياء ظهرت تحت غطائه مومياؤه، وجعلت الفتاة تكشف عنها كلما وقفت الى مائدة فرغ الخدم من صب الشراب فى أكوابها للمحتسين

قال الاشيب وقد لبس لباس الراهب :

— ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها الى التفكير . فما بال هذه المومياء تدور بها الغادة الفياضة بالحياة بين جمع مسرة وطرب ؟ وما لهم يذكرون الناس وهم فى ذرى نعمة الحياة بمصير الحياة المخيف المزعج ! بهذا الفناء فاغراً فاه يبتلع فيه الى غير عودة كل من ألقى به يم الحياة الى ناحيته ؟ أو ما كان خيراً لو أنهم تركوا ساعات المتاع القصيرة لا تشوبها صورة مريرة !

وسمع نجبي أبيس تساؤل الاشيب ، فأسرع الى جوابه خيفة أن تظل حكمة الاجداد خافية على الاحفاد ، او أن يحسب أحد أنهم فى كمال حضارتهم كانوا يعرفون الفزع أو يهابونه . قال :

— ان أمر هذه المومياء لايحتاج ممن عرف حياة السلف الى تفكير . فأبسط معانيها فى مجلس شراب أنا صائرون الى مثلها ، فلنغنم كل مافى الحياة من متاع قبل أن تنفد الحياة ومتاعها فنكون كهذه المومياء رغبة عن المتاع وزهداً فيه وطمأنينة الى خلد السكينة الابدية . وهذا معنى تناوله الناس جميعاً فى شعرهم ونثرهم وتناوله الندامى فى أسمارهم . بل لقد أحسب أنه كان لابد سيدور بخلدنا لولم تنبهنا الصورة الفرعونية اليه .

« على انى أرتاب فى أن يكون هذا المعنى هو ماقصد اليه الفراعنة . ذلك بأن عقائدهم تنفر منه وتدلنا على قصدهم بخير من هذا الخاطر الذى يرد الى اذهان أبناء اليوم . فهم كانوا لايرون الموت آخر مراتب الحياة ولا يحسبون الانسان يحرم من متاع الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها . بل انه ليجد فى العالم الآخر مثل متاعه منها أو خيراً منه مابقى جسمه مصوناً من التحلل مستعداً لأن تعود اليه الروح الشقيقة . وهذا سر تشييدهم المقابر كما نشيد نحن القصور ، وهو سر وضعهم أدوات المتاع فى قصور القبور . أما الروح الشقيقة (الكا) أو الضعف على مايسميه المؤرخون فتعود الى المومياء حفظها التحنيط فتسمح لها أن تلذ بمتاع كمتاعها فى الدنيا من غير حاجة لأكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع . وهى تبقى فى خلدها وتبقى أسباب نعمة الحياة الى جانبها مستمتعة

بها مابقيت المومياء خالدة على الزمن . فلينهل الناس فى الحياة كل ورد النعيم فلن يزيدهم ذلك إلا إمعانا فى المتاع بهذا النعيم بعد الحياة.

قال الاشيب :

— حكمة بالغة وحق إيزيس. إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها. ولم لا ؟ ألسنا أبداً نعيش على ميراث الماضى ، وغداً هو ابن اليوم، ومشيبنا ذكرى شبابنا ؟ فليس إذن عجباً يوم نذر الحياة أن نظل نحياها وان على صورة أخرى .

وبينا كان السقاة يصبون الشراب وكان الاشيب ونجى إبيس يتحدثان كانت راعية هاتور فى شغل بتنظيم ليلتها . استعانت بعدد قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كى يؤدوا طقوس عبادة ايزيس ؛ وأوحت الى غيرهم من ضيوف الحفلة أن يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم فى كل عملهم . واختفى الموسيقيون خلف ستار وبدأوا يوقعون أنغاما أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا القصر ومن فيه واختفوا خلال معبد الكرنك يحيون فيه عبادة رع وآمون . فقد كانت بعيدة ، بعيدة ؛ هذه الانغام وكانت تزداد حيناً بعداً ثم تقرب بعض الشيء لتعود فتبتعد من جديد . وكانت كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت فى الصمت الذى مد رواقه على المكان مهابة ورهبة . وظلت فى ابتعادها حتى امتلأت نفوس الحاضرين جميعاً قداسة دينية. هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً مقتربا بذلك منا . وهنالك قام عديد من الحضور فى صفين راهبات ورهبانا ، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة برهبة المكان ؛ وكانت بامتزاج أصوات الجنسين مثيرة فى النفس

قداسة المعانى الانسانية جيداً وفى مقدمتها معانى الخصب والانتاج .

وتقارب الصفان فاذا الاشيب الى جانب فاتنة سميراميس واذا هو لذلك أشد إيمانا بايزيس ورع وآلهة أشور وكل من كان له فى معرفة الفاتنة إياه فضل . وتباعد الصفان وختمت التراتيل وتابعت الموسيقى أنغامها شجية فى استسلام وحنان ، واندفعت راعية هاتور بين رهبانها راقصة رقصاً دينياً مقدساً هو الآخر . بدت قداسته على أتمها حين رفعت ذراعيها فتشابكت أصابعها فى دعاء واستغفار . وخطرت فى لجة لجين الضياء يستشف من خلال شفوف ثوبها قواما لدنا يتثنى فى موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطرة من خطراتها . وكان كافياً أن تقف الراعية لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين فلا يزداد إلا رشاقة وجمالا . لكن خطرها بين صفى الراهبات والرهبان وعلى أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع الى النفوس أقدس معانى العبادة والاذعان . وهاتيك الفتيات اللواتى نفسن على الراعية سحرها فى الرقص الفرعونى كن أكثر الحاضرين نهباً إياها بنظرات الاعجاب والاكبار . أليس لكل امرأة ماتسحر به الرجال ؟ فلم لاتكبر كل امرأة فى غيرها سحرها لتنال هى الأخرى من إكبار مالديها مايزيد الرجال سحراً وافتتانا ! !

وبقينا فى عبادتنا هذه زمناً ولت الراعية وجهها أثناءه صوب المعبد ، فاذا صوت ذلك العواد يرتفع منشداً فى نغمة كنسية بنشيد إيزيس يختتم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الخليل . وعاد الرهبان والراهبات الى موائدهم وعاد السقاة يصبون الشراب تتبعهم غادة المومياء ، واكتملت حلقتنا وحلقة إخواتنا السيدات والسادة عدا

صـديقنا الشاب الذى بلغ من عبادته مبلغ الذهول وأعلن على أثر انتهائها أن لامقيل له من ذهوله إلا أن تباركه الراعيـة وتتلو عليه الأدعيـة والأوراد جميعاً . أما نجى ابيس فقـد وجد فى الخنـل الفرعونى المحيط به مادفعه للعود الى الحديث عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ؛ قال :

— هانحن أولاء نمثل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس فى ساعة متأخرة من الليل ؛ بينا عباد إيزيس كانوا لايعرفون سهراً ولا قصفاً ؛ بل كانوا يذهبون الى معبدها كل يوم لصلاة الفجر قبل أن يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود . وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الامام الاعظم رواق الطلبة حليق الرأس والذقن مرتديا ثوبا من التيل الأبيض بسيطا كل البساطة . وكان هذا الامام الأعظم يقضى حياته ناسكا لاهم له إلا أن تطهر روحه بالعلم وبادمان التفـكير فى المقدسات وبتعليمها . وكانت أولى المراتب بعد الامام مراتب الأنبيـاء المقربين الى الآلهة المحدثين عنهم المتحدثين اليهم . أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يعنوا بتماثيل الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المـكونة من أقمشة أسود نصفها والنصف أبيض لامع للدلالة على أن مانعرفه من أمر الآلهة يختلط فيه الضياء بالظلمات. وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثوبا أكثر بساطة من ثوب الامام الأعظم تبقى بادية من خلاله أذرعهم وصدورهم ورؤوسهم الحليقة. أما الراهبات فكن يلبسن معطفاً تنعقد أطرافه على صدورهن كما صنعت راعية هاتور ؛ ويحملن فى إحدى اليدين وعاء فيه الماء الطهور وفى الأخرى (السستر) آلة القدماء الموسيقية يهزونها ليوقظ صوتها الـكائنات من

سباتها. فاذا جاء عباد إيزيس الى قدسها ووجبت الصلاة صعد الامام الأعظم الدرج الى تمثالها فأزاح عنه ستوره فظهرت باهرة فى وقفتها بما عليها من حلى الجوهر الوضاء تمسك فى إحدى يديها مفتاح الحياة وفى الثانية الماء الطهور . وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويلمسون به على الأتقياء ثم يوقدون النار تحرق مافى المكان من شر . فاذا طهر كل مافى المعبد دعا الامام الأعظم الالاهة فلبت الدعاء فقدم لها عبادها ماشاءوا من قرابين وضحايا .

« فاذا كان العصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة ثالثة هى صلاة ختام اليوم يسدل الامام الأعظم على أثرها الستور على إيزيس لتطمئن فى لباس الليل حتى صلاة الفجر .

« أما أعياد إيزيس فكانت تقام فى أول الربيع وفى أول الخريف ، وكانت غاية فى البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد الخريف من أيام أسى على مصرع أوزوريس . ففى الثالث عشر من نوفبر (السابع عشر من شهر آتور أو هاتور الفرعونى) كان الرهبان يلبسون على رؤسهم صور الطير والحيوان مما يعبد المصريون فيذهبون إلى معبد إيزيس ويمثلون أمام الشعب المأساة الآلهية الفاجعة يقهر فيها الشر الخير وتقوم على أثرها معركة إيزيس وهورس ونفتيس مع سخت لتنتهى الى بعث الخير من جديد من غير أن يقهر الشر أو يقصى عن الارض .

كان الخليل قد جاء الى جمعنا يحيينا مصطحبا صديقنا الشاب معه حين كان نجى أبيس فى ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس . فلما سمع عبارة النجى الاخيرة أراد مشاركتنا الحديث فقال :

— ماأكثر مايفسرون به مدلولات الآلهة القدماء . أحق أن ايزيس وأوزوريس وجماعتهم كانوا الخير والشر والصلاح وما الى ذلك من صفات ؟ أم أن تيفون كان البحر وأوزوريس كان النيل وأيزيس كانت الارض وخصبها وهورس كان النبات الذى تمخض عنه ذلك الخصب ؟ وإن أصحاب هذه الروايه ليؤيدونها بأن مصر كانت فى الماضى يغمرها البحر حتى ما يزال يوجد فى جبالها ومناجمها أصداف وآثار حيوانات بحرية ، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه وبطميه البحر الى الوراء فأخصب الارض وأثمرها . أم أن لهذه الآلهة معان فلكية فتيفون هو الشمس المحرقة ، وأوزوريس هو القمر الرقيق المحسن ؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون الى أن ضوء القمر مخصب يثمر الحيوان والارض فى حين تحرق الشمس الحرث والنسل ، ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين ان البحر هو الذى أوقد للشمس نارها ولظاها بينا تبعث مياه الينابيع والأنهر اغنياتها الى القمر وضيائه . أم أن أوزوريس هو النهار وتيفون الليل وايزيس القمر وهورس الشمس ؟ أم أن هذه كلها صفات الربوبية تجتمع للآلهة متعددين وهى بعض صفات الأعلى ذى الجلال ؟ !

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب:

— والارباب جميعاً ! إنى لعلى حق حين قلت لكم إن الايمان يحل من الانسان محل السليقة من الحيوان . فأرباب من الحيوان لان فى الحيوان للناس خيراً ومتاعا . وأرباب هم علم النصر وغلب الاعداء ؛ لأن فى النصر احتفاظا بكل مافى الحياة من نعمة وحرية ، وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الاول على الحياة

وأطوارها ، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح فى الحياة ، وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن اجدادنا ثم آمن آباؤنا. واليوم وقد سخر الانسان لنعمته غير الحيوان وراض من قوى الطبيعة الكهرباء والجو والاثير ، وراض هذه وغيرها من طريق العلم ، فهو يؤمن بالعلم وبها ، وهو فى مظاهر ايمانه جميعاً انما يبحث عن مكانة له بين كل مافى الوجود تحفظ عليه الحياة فى أنعم صورها المادية والذهنية والروحية. وليست سليقة الحيوان وفطرته فى الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذى يتناوله ايمان الانسان . ذلك أنه هو الآخر يريد الاحتفاظ بالحياة فى خير صورها ، فحق إذن أن الايمان يحل من الانسان محل السليقة من الحيوان

كانت فاتنة سميراميس قد ألقت السمع أول ماحدث نجى أبيس عن ايزيس وعبادتها وأعيادها . فلما رأته بعيداً عن مثل حديث سميراميس وجمالها، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والايمان شاحت عنا بوجهها كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقات لاتغنى . واستحس الاشيب انصرافها عنا فلم يشاركنا الحديث ولا أعارنا سمعه ، بل اندفع يهمس فى أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقة هذا الليل وجماله . فلما أتم الشاب حديثه كانت أكواب الشراب تطلب الساقى ليملأها . فأشار اليه الاشيب وسرعان ماحضر تتبعه غادة المومياء . فلما فاض الرغاء على حافة اكواب اللوتس قال الاشيب :

ـ إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . فلنتبادل النخب من هذا الشراب الشهى ولنذكر إيزيس كجميلة يبهر جمالها أفئدة يطير بها الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الظريف ولا نضيع هذه الفرصة

السعيدة فى قصص الأساطير وفلسفة الايمان . وإذن هات يانجى الآلهة حديث الجمال وسحره .

وحانت من الشاب أثناء حديث الاشيب التفاتة فاذا راعية هاتور مقبلة . فأسرع اليها وارتمى عند قدميها قائلا :

— صدق صاحبنا الاشيب . لاخير فى قصص الأساطير ولا فى فلسفة الايمان ، وإنما الخير كل الخير فى الجمال وحديثه . وطلعتك ومشيتك وحديثك وأدعيتك وكل ماينبعث منك هو حديث الجمال بل هو أنغام موسيقاه القدسية الساحرة . بالله يانجى الآلهة ألاماذكرت لنا من أمر هاتور وجمالها مايطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات الليلة فيزداد ضياء وإشراقا . وحق عليك وأنت نجى العجل المقدس أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة .

قال النجى ملبياً دعوة الصاحبين جميعاً :

— لاتحسب ياصاح إن الرمز بالبقرة لهاتور معناه ان هاتور كانت بقرة بالفعل . وانما ذلك رمز الى أن هاتور كانت ربة الخصب كما كانت كسكل ربات الخصب ربة الجمال . بل هى فى رأى أكثر المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة وصورة الطيبة . هى من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان وأفروديت عند اليونان وسميراميس عند آشور . وحجتهم فى هذا ان اسم هاتور معناه بيت هورس . فهى إذن من هورس ما كانت إيزيس فى أمومتها له . بل إن مؤرخين ليرون هاتور أقرب فى نسبها لآلهة السماء من ايزيس نفسها ان كان الجمال مصدر الخصب والخلق . ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيراها أقدم الآلهة ومنبع الحياة

بل يراها الاهة الطبيعة وكل مافيها من صغير وكبير . لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها وكانوا يقرنونها الى الآلهة جميعاً فى كل المعابد . على انها فى كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرته اللدن قوامه الثابتة أردافه وسيقانه كما كانت الاهة الزينة والتحلي . ولذلك كانت فى كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقا هى أطواق الحب ولابسة من الحلى عقوداً وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براعة وبهراً .

وأمسك النجى برهة فاذا الاشيب تحركت نفسه الى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاى فقال :

— هاتور فى مصر ، وأفروديت فى الاغريق، والزهرة فى روما ، وسميراميس فى آشور ، كل هاتيك كن فى الانسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة . فهل خلق الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزاً . وهل مصدر لالهام الشاعر ووحى المفكر وفن الفنان ولكل مايأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة . وبحسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جمالها كل ماسواه من صفاتها .

وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها الى جانب الخليل وكان صديقنا الشاب قد أخذ مكانه الى جانبها والخليل محنق لذلك يكاد يتفجر من الغيظ لولا حقوق ضيافة يجلها ويرعاها . على انه اذ رأى الشاب يدنو من الراعية يهمس فى أذنها لم يملك إلا أن همس هو فى أذنه :

— لا يملك الشراب ياصاح عليك لبك فيحسبك أصحابك مخموراً .

ونالت هذه الكلمة من أنفة الشاب وأراد أن لايلاحظ أحد على وجهه تغيراً فاندفع معقباً على حديث الاشيب :

— هاتور والزهرة وأفرديت وسميراميس كلها اسماء لمعنى واحد صاغ له خيال الأقدمين بدائع الأساطير . وايزيس فى مصر كانت هى عشتروت فى فينيقيا وقبرص وكانت سيرس فى روما . وتوت المصرى هو المريخ اليونانى . هكذا أذكر أنى سمعت . أوليس هـذا دليلا على اتفاق الناس فى تصوير صلة مابينهم وبين الوجود لاتفاقهم فى طرائق النظر لما فى الوجود . بل لقد أحسب مما سمعت عن انتقال ايزيس الى جبيل بالشام باحثة عن جثـة أوزوريس ان عبادة هذه الالاهة انتقلت معها الى فينقيا وقبرص وانها انتقلت من هناك الى اليونان ثم الى روما ، فكان هذا سبب تشابه الاساطير حول البحيرة الكبيرة التى أسموها بحر الروم ونسميها البحر الابيض المتوسط . وإذ اختلف هـذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر ، فها نحن اليوم لانعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهام خيالية تحلو فى الشعر ولا ظل لها من الحقيقة برغم ما كانت تمثل الحقيقة الثابتة فى تلك العصور . أو لو فرميت من أبناء العصور الفرعونية البالية وحضر مجلسنا هذا أفتراه يشك فى أن هذه الستور التى تمثل الكرنك وعمده وتماثيله انما هى تماثيل وعمد من حجر وأنه فى طيبة وليس بين أحضان القاهرة . وفى مكان هذه الاوهام التى كانت حقائق أهل تلك الاجيال أقمنا نحن حقائقنا لتكون أوهاما عنـد أجيال تخلفنا . وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة ، لان هـذه الصورة هى التى تكفل طمأنينته فى الوجود واحتفاظه بالحيـاة بين عناصر الوجود الدائمـة التفانى والتجدد . واذا صح ان بقى شىء من الايمان القـديم لم يتغير —

وهذا ما أشك أكبر الشك فيه — فلن يكون إلا ماءس حياتنا المادية من طعام وشراب أو يءس آمالنا المبهمة فى خلدهذه الحياة .

استراح الخليل الى عود الشاب الى فلسفته فى الايمان أن صرفته عن الراعية وصرفت عنه الجبلات جميعا . ولم يعبأ الاشيب بهذه الفلسفة أن كان فى شغل بأحاديث حلوة تافهة مع السيدات والسادة وبالمتاع أعمق المتاع بجمال فاتنة سميراميس زادها لباس الراهبة براعة وسحرا . وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب السيدات والسادة الى شرابه فانساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير الشراب . ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف وألفت فى حديث الاشيب الشهى ماملق زينتها وجمالها زادت عليه عطفا بأن زادت عليه دلا . ولم يصغ الى حديث الشاب إلا نجى أبيس . وإذ رأى فيه تجديفا سببه عدم التعمق فى إدراك حكمة الاقدمين قال:

— لاتصدق ياصاحبي بما تسمع عن كل هذا التطور فى تصوير الايمان ، ولا تحسب ان الناس انتقلوا فى بضع ألوف السنوات القليلة التي يعرفها التاريخ بمقدار ماروبت. فلو انك عدت الى فلسفة الاقدمين وقرنتها الى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الايمان والشك والالحاد يعرفها حكماء الفراعنة والاغريق كما يعرفها مفكرو اليوم وفلاسفته . ثم انك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها أكثر مما تسمعه فى أساطير الاقدمين وهماً وخيالا . وبين هذه المذاهب الفلسفية والاوهام المحسنة للسواد فى حياته كانت الحقيقة وما تزال ، وان كانت لاتسلم نفسها إلا لمن أخلص فى البحث عنها

حباً فيها وحرصاً على طمأنينة نفسه اليها . وأنت اذا رجعت الى رأى حكماء الاقدمين من الفراعنة والاشوريين والاغريق والرومانيين رأيتهم جميعاً يقولون ان الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون موضع عناية الباحث . ومعرفة هذه الحقيقة يجب أن تكون غاية حياة الحكيم. وكثيرون من المخلصين دلهم إلهامهم على هذه الحقيقة فأذاعوها فى الناس منذ تلك العصور البعيدة ثم لم تغير مباحث العلم مما أذاعوا كثيرا . وأحسب ان الناس ماداموا أناساً وما دامت أدواتهم فى البحث هى حواسهم فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم وان اتسع ميدانها وان عرفوا من أسرارها ما كان معجزاً لهم

كان اهل القصر الفرعونى بعد نشيد ايزيس قد اطمأنوا الى مجالسهم وعكفوا على شرابهم وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات . وكنت لاتسمع لحديثهم أول المجلس إلا همساً لاتكاد تميزه . فلما دب ماااحتسوا فى كوبات اللوتس الى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكات رقيقة محتشمة وتسمع نكات تتبادل بين مائدة ومائدة . وادى هذا الى زيادة فى التعارف والتفاهم والى تقارب بين بعض الموائد وبعضها الآخر . وخشيت راعية هاتور أن يطول هذا فأومأت الى الخليل فتركنا فتبعناه بنظراتنا فاذا به يهمس فى أذن العواد . وإذا بفرقة الموسيقى تختفى وراء الستور من جديد . ولفتت هذه الحركة الحاضرين فجعل كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للمنظر الثانى من مناظر الليلة الفرعونية . وإن كان لايعلم ماسيكون هذا المنظر ولا مادوره فيه إلا كما يعلم ماتخفى له الحياة من مفاجآت . وإن كان فى مفاجآت الحياة مايفجع ، بينما كان الجمع ينتظر فى مفاجآت هذه الليلة مايلذ البصر والسمع .

أفروديت

اختفت فرقة الموسيقى وراء ستور دهبية الخلايل انقلبت معبداً فرعونياً قديماً . وجعل كل من الحاضرين يصلح من ملابسه للمنظر الثانى من مناظر هذه الليلة الساحرة . وسادت برهة صمت لم تطل أن حل فعل الشراب عقدة الألسن وبعث الى النفوس من معانى الابتهاج ماأعجزها عن السكينة . وأضاف ضياء القمر إزداد نحولا ورقة الى بهجة النفوس هياما بالجو السائغ ، وهياما أكثر منه بدل الراهبات الباسمات بسمات نعيم ورضا . وظللنا على ذلك برهةلم تطل . ثم اذا بنا نحس بادىء الامر ثم نستيقن بعد ذلك ان أصواتا موسيقية بعيدة تجىء الينا مبطئة مبطئة كأنما تهبط من سابعة السماوات . ومبطئة مبطئة هى الاخرى وقفت راعية هاتور تستقبل هذا الصوت السماوى الهابط اليها مع شعاعة من ضوء القمر . فلما كادت تنتصب قامتها تقدمت برجلها اليمنى ورفعت يديها الى ناحية الصوت كأنما تستجدى من الآلهة مزيداً فى سعادة الليلة . وفى ضراعة استجداء الآلهة رقصت الراعية رقصاً قدسياً ،فلم تترك وسيلة لاسترضاء أهل السماء ، ولا تركت وسيلة للتأثيرفيهم بها . إلا لجأت اليها . وما أحسب أن هـذا القوام اللدن المنثنى استعطافا الواهب نفسه للأرباب هبة حلال إلا نال رضاهم وما يطمع فيـه من نعيم .

فلم يكد هذا الرقص ينتهى حتى كانت دقات الموسيقى ترتفع فى أنغام طرب وسرور وبهجة لم يستطع الجمع معها إلا أن يقوموا هم الآخرون مبتهجين يشكرون للآلهة أنعمهم . وما دامت الآلهة قد بعثت من سماواتها رقص الطرب فإنما يكون شكرها بالاذعان لمشيئتها وبالامعان فى الطرب . على أن القوم لم ينتظروا طويلا ليعرفوا هذه المشيئة . فقد ارتفع من خلف الستور صوت العواد منشداً :

شكراً للارباب ، أرباب السما . قد منحونا غبطة وهنا . فانعموا بالعيش فى لج القمر . عاشق القبة الزرقاء وهاب الثمر ، ثمر العشق لمن جن غراما . شكراً للارباب ...

وعلى أنغام هذه الانشودة انتقلت الراعية من رقص الاستجداء الى رقص الشكر ، ومن التثنى فى ضراعة الى القفز فى مرح ؛ كأنما تريد أن تطير الى آلهة أجدادها الفراعنة تقبلهم تقبيلا . أما الجمع فاندفع يغنى : شكراً للارباب أرباب السما . وفى نشيده اختلطت أصوات الرجال القوية بالانغام النسوية المشجية وان تميزت هـذه الأنغام كما يتميز الماس ركب على الذهب الابيض . وفى أنشودتهم وفى رقصهم ظل القوم زمنـاً حتى انقلبت الموسيقى مرة ثالثة الى أنغام ردت النفوس الى الشعور الدينى وعادت بالمنشدين لاحترام معنى لباس الرهبان . ودعا القوم شبهها بموسيقى المنظر الاول الى أن يقفوا صفين رهبانا وراهبات لتخطر بينهما راعيـة هاتور راقصة رقصاً دينيا هو رقص التوبة والاستغفار خرت فى ختامه ساجدة وقد علا بالنحيب صوتها . وما كان أشد دهشتنا حين ألفيناها بعد ما فرغت الموسيقى من عزفها وبعد أن اتجه كل الى مقعده يريد أن

يعود اليه وما تزال دمعتها تنهل على وجناتها الخمرية اللون . فلما سكن روعها قال الذى دعانا الى الشاى :

— كذلك الحياة : ضراعة الى النعيم فنهل منه فزهد فيه وتوبة عنه . صبا يتوثب وشباب يستمتع ، وشيخوخة تخشى وتستغفر . رجاء ما نكاد نحسبه تحقق حتى اذا به حلم تطاير . هذا معنى نراه كل يوم بأعيننا ، لكنه لا يترك من الاثر فى نفوسنا ما كان لدموع الراعية التى أذابت من قلوبنا وفتحت على هـذا المعنى نظراتنا التى لا ترى كثيراً مما تقع عليه .

وعاد كل جماعة الى مكانهم ، وعاد الاشيب مع السيدات والسادة فجلس الى جانب فاتنة سميراميس كما كان . أما الشاب فقـد ظل على مقربة من راعية هاتور يسألها عما بها وان كره الخليل هذا التحكك الذى أثار منه غيرته . على انه فى رعايته حقوق الضيافة لم ينس أن ينادى السقاة ليدوروا على الجمع بالشراب . وسرعان ما امتلأت الاكواب أترعها السقاة تتبعهم غادة المومياء . فلما عاد القوم الى شرابهم استصحب الخليل الراعية الى مجلسنا مع السيدات والسادة آملا أن ينصرف الشاب الى حديث غير حديث الهوى ، ولم يخطىء الظن ، فما كاد يستقر به المقام حتى اتجه الى ناحية الذى دعانا الى الشاى قائلا :

— حق ماذكره صديقنا نجى العجل المقدس : ان الناس اليوم هم الناس منذ بضعة آلاف السنين التى يعرفها التاريخ من تفكيرهم . لكنى بازاء ما رأيت منذ لحظة أسائل نفسى : أصحيح ان الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون موضع عناية الباحث وغاية حياة الحكيم؟

وهل صحيح أن فى الوجود حقيقة مجردة غيرهاته الحياة التى نحيى بما فيها من شهوات وأوهام وامال وبما تنتهى اليه من تفان وتجدد يهبط بجيل الى غيابات الفناء ليطفو بجيل آخر الى عالم الشهوات والأوهام والآمال ؟ وخير مافى هذه الأوهام من حقيقة هو مانحن الآن بسببه من نعيم كنا نهل منه وما يزال لنا أكبر الرجاء فيه بان تعود الراعية الساحرة الى الرضا عن الحياة لترضى الحياة عنا جميعاً .

فأسرع الخليل من خشية أن يعود الشاب الى مايثير غيرته فقال :

— لقد ذكرتم أن هاتور فى مصر هى سميراميس فى آشور وهى أفروديت عند الاغريق . وقد أسمعنا نجى أبيس من أمر هاتور حديثاً شهياً . أفهل لنا أن نسمع عن افروديت مثل هذا الحديث ؟

وكأنما أراد الخليل بذكر أفروديت وبرواية قصصها أن ينسي الشاب وغير الشاب راعية هاتور لتبقى خالصة له من دون الرجال الحاضرين جميعاً فلا يضطر أن ينبه أضيافه الى فضل الراعية وحبه إياها فى إعداد هذه الليلة لمتاعهم . وأن يذكر الشاب بان لايخرج به الشراب عن صوابه .

وكان الاشيب قد نال من رعاية فاتنة سميراميس التى صدفت عن صاحبها الأول لنسيانه إياها فى شرابه ماجعله يتملق جمالها بنظراته من غير أن يستطيع قولا إلا همساً لايرى من اللياقة أن يسمعه أحد غيرها . لكنه إذ سمع دعوة الخليل الى قصص حديث افروديت ، واذ كانت أفروديت إلهة الجمال والحب والرغبة والخصب وكل معانى

الحياة محققة على الحياة . لقد رأى فى توليه قصص حديثها الوسيلة لمخاطبة صاحبته فى شخص الاهة الرغبة. لذلك سارع الى هذا القصص فى لهجة مطمئنة تنطوى طمأنينتها على شىء من الايمان بأفروديت يشبه إيمانه بسميراميس وفاتنتها ؛ قال :

— ليست الاهة الجمال والرغبة أفروديت إغريقية الحسب . بل هى فينيقية من قبرص . ولعلها تتصل صلة لم يحدثنا عنها التاريخ بزيارة إيزيس جبيل باحثة عن أوزوريس . على ان ازيود يذهب الى أنها نشأت نشأة أخرى ؛ ففى معركة بين الالهين القديمين أورانوس وكرونوس قط الأخير رجولة الأول فسقطت هذه البقايا المقدسة على لج الموج فحمل منها رغاؤه الذى ظل يجتمع حولها حتى كملت منه ساعة بلوغها قبرص الالاهة الساحرة ذات التاج الذهبى. ويذهب هوميروس الى أن الالاهات أعجبن بأفروديت ساعة رأينها فأنشدن فى حضرتها أغنيات المرح وزين آذانها بأقراط الذهب وخلعن ما كن يلبسن فى أعناقهن وعلى صدورهن من أطواق ولبات . فلما تمت زينتها خرجن بها الى الآلهة حافات من حولها فما كادوا يرونها حتى هام كل بسحرها وتحركت فيه لواذع الرغبة وتقدم يريد منها زوجا له زينة لمضجعه الالهى وكمالا لربوبيته . وكيف كان لأى منهم بالنجاة من سحرها وقد كان الحب والرغبة بعض تبعها وكان يتضوع مع عذب شذاها سحر الحديث وسحر الابتسام وسحر الكذب وسحر المرأة جميعاً .

« على أن الاهة الجمال والرغبة كانت من الذكاء بما طوع لها أن تسخر لها من رغبة كل آله ؛ وكانت من الكرم والفطنة بما

دعاها لتصل بين الالهة والناس بأوثق صلة . وعلى الرغم مما كانت تعرفه وتشعر به هي الاخرى من كبرياء الآلهة وحرصهم على أن لاتختلط أنسابهم بأنساب عبادهم فقد سخرت من هذا الحرص وتلك الكبرياء وجعلت تخدع الآلهة فى الناس والناس فى الآلهة فتدس فى مضجع الآله جميلة من بنات حواء وفى مضجع الالاهة جبارا من بنى آدم . وكأنما دفعتها الرغبة آخر الامر لتذوق ما أتاحت لغيرها أمر ذوقه . أوكأنما حنق عليها أبو الآلهة زوس فأراد أن يخضعها لما أخضعت هى له الآلهة غيرها .لذلك مالبثت أن رأت انشيز يرعى أبقاره على سفوح الايدا حتى امتلأ جسمها بجماله الساحر سحر جمال الآلهة غراما ورغبة . فأسرعت الى معبدها وأحاطت بها الشاريت حتى أستحمت ثم عطرتها بالعطور الآلهية وأزينت ولبست ثيابها النامة ، وخرجت قاصدة سفح الايدا حتى اذا رآها أنشيز جن بها مايجن كل من رآها من الناس والآلهة طرا. على أن الخوف ملكه أن تكون الاهة فيصيبه من الاقتراب منها أذى . لكنها خدعته بقولها إنها ابنة ملك فريجيا وأنها جاءت اليه بأمر أبيها لتصبح له زوجا.ولم يطق أنشيز أمام جمالها صبرا . وكان له مخدع وثير كساه من جلود السباع والضباع التى صادها فذهب بها اليه وهى كاسرة الطرف تزعم الحياء . ولماأفاق من غشيته وبصر بهاوقد ارتدت ملابسها لم تبق لديه ريبة فى ألوهيتها فتضرع اليها ألايصيبه مايصيب من تخالط الالاهات الخالدات من ذهوب الشباب. فطمأنته وإن لم تخف عليه أنه مصيبه الهرم الذى لايرحم حين يهدم الناس هدما . ثم انه سيعتاض من هرمه ومن مشيبه ابناء من الآلهة تخلد

فيه قوته . أما هى : أما افروديت ، فسيصيبها من فعلتها معه سخرية الآلهة إن هم علموا بشىء من أمرها . لذلك حذرت انشيز أن يقول شيئا أو يفخر بما صنع والا أصابته الصاعقة باذاعته سرا يجب كتمانه .

« وإنما كانت صلة افروديت بأنشيز عمانه ساعة . لكنها أولعت حبا بادونيس . وأولعت به حبا حتى لقد ذهب يوما للصيد فاقتحمه حيوان مفترس وجرحه جرحا مميتا ؛ وكان هذا المنظر بمرأى من افروديت فطارت اليه ناسية أن تحتذى فوطئت قدمها شجرة ورد جرحتها شوكتها فأسالت منها نقطة من الدم . وكان الورد الى يومئذ أبيض اللون فاحمر لونه من دم افروديت ، وأقامت تبكى محبها زمنا أدهش الذين عرفوها صديقة الهوى والعابثة بكل معانى الوفاء .

« ولا فروديت غير هذا من قصص العبث بالآلهة والناس استيفاء لرغباتها ما يطول حديثه . على أن حكومتها هى وحيرا وهيلانة الى الشاب البارع باريس لا يجهلها عالم بتاريخها . فقد تنافس النسوة الالاهات الثلاث فى الجمال فاحتكمن الى باريس . وكيف كان له أن يتردد فى حكومته بعد الذى تضوع به جمال أفروديت جمالا فاتنا ذكيا . ولما حكم لها أرادت العبث بمنافستها هيلانة زوج أغا ممنون ، فبعثت الى نفسها عشق باريس حتى تبعته تاركة مضجع زوجها مرتضية الشاب الذى حكم ضدها خليلا لها . وكانت هذه الفعلة سبب حرب طروادة . وفى هذه الحرب برز كل من هذين الخصمين لصاحبه فجر الزوج باريس من خوذته . لكن أفروديت أسرعت

الى معونة من قضى لها بحكومة الجمال فانقذته وفرت به . وأرادت هيلانة أن تكفر عن خطيئتها بعد الذى رأت من ضعف خليلها . لكن الالهة الرعد هددتها ان هى فعلت أفسدت عليها وعلى زوجها الحياة وأرغمتها بذلك على أن تظل فى أحضان باريس برغم احتقارها إياه لضعفه وحنقها على نفسها .

وكذلك يملك الجمال أفئدة الآلهة والناس جميعا اناثا وذكرانا . وكذلك حكمت افروديت آلهة الاولمب كما حكمت الناس بذكاء جمالها الساحر . وحق لكل من وهبت ما وهبت افروديت أن تجلس على عرش الجمال حاكمة على القلوب والأرواح والأفئدة مسخرة لرغباتها الآلهة والرجال تسخيراً يستريحون له ويرضون عنه . بل يرغبون فيه أعظم الرغبة .

فى هذا الموضع من حديث الاشيب التفت الشاب اليه وعلى شفته بسمة الساخر فقال :

— تحدث أخى تحدث . هات لنا من مثل ماذكرت عن الآلهة والجميلات . حدثنا عن افروديت الاهة البغى والفجور وقل لنا بعد ذلك انها الاهة تستحق العبادة وأن تقام لها الصلوات وأن يحرق لها البخور . ولك أن تذكر أكثر من هذا ان الاغريقيين القدماء الذين امتازوا بالفطنة والذكاء والذين ألف مؤلفوهم خير ما كتب فى الأخلاق قد شادوا لبغيها ولفجورها من المعابد مالا أدرى أى دافع يدفعك للتحدث عنه بكل هذا الاطراء والاعجاب .

أتم الشاب حديثه فأدار الاشيب اليه وجهه لحظة ارتسمت أثناءها

على شفاهه ابتسامة ازدراء وإشفاق . ثم أشاح بوجهه وتوجه به الى ناحية صاحبته الفاتنة وقال :

— يخطىء الذين يحسبون افروديت الاهة البغى والفجور . انما هى الاهة الخصب تريد أن تهدى العالم أجمل ثمرات الحب وابهاها. ولذلك كان الاغريق يباركون باسمها الزوجين أول زواجهما ليكون لهما من الابناء فى مثل جمال افروديت وذكائها . وكيف تريد بالاهة الجمال والرغبة ألا تهب من هذه الفضائل لكل مختاريها ؟ أو لو ضن آله الحكمة بحكمته على الناس يبقى مع ذلك جديرا بالربوبية ! ولو ضن آله الحصاد أو آله الخصب بالخصب وبالحصاد وتركا الارض جرداء قاحلة ليموت الناس جوعا أو ليطعموا الزقوم أفيكون أيهما قمينا بقليل أو بكثير من حب الناس واحترامهم حبا واحتراما هم مطالبون بهما لكل آله ؟ ! فاذا يستطيع إذن أن ينقم ناقم من افروديت أومن سميراميس أو من كل إلاهة من آلهة الجمال والخصب اذا هى اتصفت بالكرم أول صفات الآلهة وخلعت من جمالها ومن رغبتها على العالم لتزيد العالم جمالا ولتزيد الناس فى العالم رغبة. ولسميراميس ولأفروديت فى العالم رسل من بنات حواء لهن مثل جمال هاتيك الآلهة ويملكن من وحى الرغبة ما كانت الآلهة تملك. وهاتيك الرسل يباركن العالم و يبعثن الى جوه شعرا ونعمة .

وفى هذا الموضع من حديثه زاد توجه الاشيب للفاتنة ولمعت حدقتاه بندى بللهما وجعل منهما مرآة تسترد الفاتنة اليها لتردها الى حنايا فؤاده. وشعرت هى منه بهذا فتندت نظراتها هى الأخرى ونسيت صاحبها العاكف على شرابه فما يسمع مما يدور حوله من

الحديث شيئا ولا يتعفف عن أن يجيل عينيه فى الراهبات حوله لا يفضل منهن واحدة على أخرى . وبدت من الفاتنة حركة دلت على حرصها على أن تبدى جمال ذراعيها ، كأنما تريد أن تبين عنهما للاشيب المسحور بجمالها لتقول له : هما لك يطوقان كل جيدك فلا يعرف بعد دارتهما شيئا . وتابع الاشيب حديثه وقد تندى صوته كما تندت حدقتاه فقال :

— تبارك هاتيك الرسل العالم ويبعثن الى جوه شعراً ونعمة . واذا هن لم يعنين بأن يكن أوعية خصب خصبهن فضلا أن يوحين لغيرهن من هاتيك الأوعية حرصاً على أن يثمرن ثمراً جميلا . ألستم ترون الى كل امرأة لم تؤت من الجمال الحظ الذى ترضى عنه تجاهد لتبدو جميلة وتجاهد أكثر من ذلك لتنسل نسلا يخفض من نسبة القبح فى العالم .ولو اقتصرت رسالة هاتيك الرسل من ذوات وحى افروديت . وعددهن على مالا يزال عليه من قلة ، على أن ينفحن العالم بثمرات جميلة ولم يكن المثل الذى تجاهد غير الجميلات ليكون ثمرهن مثله لكانت تلك الرسالة أقصر من أن تدفع بالعالم الى نواحى الكمال كما تدفع رسالتهن الافروديتية القدسية اليوم به .

ومع أن الاشيب كان متجهاً بكل حديثه هذا الى فاتنته فقد افترت ثغور الراعية وحاسداتها عن بسمات الرضى لسماع قول هذا المفتون بالجمال ، ومالت كل منهن عند ختام الحديث الى ناحية الصاحب الذى يملقها . وكان الخليل قد نسى الشاب ونسى انه صاحب الليلة وترك نفسه لعواطفها وجعل يحدث الراعية حديث هوى ورغبة . أليس قد أخذ هو الآخر من الشراب الحظ الذى ينسى

الحكيم فيود الحكمة ! ثم انه لم يكن يخشى غضب أحد أن كان كل فى شغل بنفسه وبمن يستلين فؤادها . وكان ذلك كله يحدث فى رهبة المعبد الفرعونى الذى ازداد رهبة أن اطفئت رويداً رويداً بعد انتهاء المنظر الثانى كل الانوار الساطعة فلم تبق الى جانب شعاعات القمر التى تخترق الستور سوى اضواء مستورة بحجب مختلفة الألوان تزيد جمال كل جميلة وضوحا وتخفى من عبث الزمن بالوجوه مايلبس الكل حلة الشباب .

ونسيت فاتنة سميراميس نفسها لحظة فى عذب حديث الاشيب وحلو هجسه ، ثم أدارت النظر فيما حولها فاذا صاحبها الاول قد غادر المجلس كأنما لم تبق له برؤية منافسه طاقة، أوكأنما وصلت النشوة من غور نفسه حتى نسى كل ماحوله فهبط الى احدى غرف الدهبية تمطى فيها . وأحس الاشيب تغيراً فى بسمات الفاتنة لم يرتب فى أن الأسف على ماحل بهذا الصاحب كان سببه . لكن هذا التغير لم يدم إلا قليلا ، وما لبث أن انقلب الى زيادة فى اقبالها عليه وزيادة فى صراحة إعجابها بحديثه ورضاها عنه . وزاد هذا الرضا فى إشراق وجهها وضحك عينيها وفتنة ابتسامتها وضياء كل جمالها ضياء زادته الرغبة ذكاء فضاعفت جماله . وعقد لسان الاشيب ازاء مارأى . لكن عقدة لسانه جعلت صمته أكثر ايضاحا عن كل مايدور بنفسه من المعانى من كل كلام يمكن أن يعبر به عنها . وأى كلام ولو أوقعت أنغامه على أوتار قدسية يمكن أن يعبر عن التفانى فى عبادة الجمال والاخلاص الصادق فى العبودية لفتنته . وذلك الاخلاص وهذا التفانى يتضاعفان اذا حلا نفسا كنفس الأشيب أولعت طوال

حياتها بتقوى الله وتورعت عما عند عباده ، ولو كان ماعند عباده هو الجمال . وطال بهما الصمت وان نطقت منهما النظرات أعذب منطق بكل ماتهتز به أعصابهما وأرواحهما وقلوبهما ونفوسهما من عواطف ورغبات ومعان .

وبعد زمن رفرف فيه إله الحب بجناحيه المضيئين على رهبان المعبد وراهباته ، بعد زمن لم يدر هؤلاء الرهبان أطال أم قصر ، عاود الخليل رجع من واجب المضيف فاذا به يهيب من جديد بالسقاة . وبغادة المومياء ، ثم اذا به ينادي العواد وأصحابه .

— هلموا يارفاق فأوقعوا لنا دوراً . ولعل الصحب جميعا يغتبطون اكثر الغبطة إن أنتم أنشدتم : غننا في الشوق أو غن بنا .

وأصلح الموسيقيون آلاتهم وغنى العواد أنشودة كليوباطرة وعاودت الجمع يقظة للوجود بعد أن كانوا قد نسوا الوجود في أحلام آلهة الجمال والهوى . وردد الليل الصامت على نسائمه الرقيقة وعلى أشعة عاشق السماوات أصوات الاوتار وألحان المغني الذي استثار من طرب الحضور واستحسانهم مازادهم عرفانا للخليل بفضله . فلما انتهى الدور ووضع الموسيقيون آلاتهم جانباً قال الذي دعانا الى الشاي :

— ألا يشهد هـذا اللحن من ألحان كليوباترا بان ملوك مصر القديمة وآلهتها كانوا يعيشون في حياة شعرية لاتقل عن حياة أفروديت كما وصفها لنا صاحبنا ؟

قال نجي أبيس :

— كلا : لم يخلع قدماء المصريين على آلهتهم كل هذا الشعر الذي

خلعه الاغريق على آلهتهم . واذا كانت ابنة البطالسة ذات الحديث الساحر قد جعلت من حياتها قصة خيالية فلعلها من بين ربات عرش مصر وأربابه الوحيدة التي خرجت على حكمة الأقدمين . ولعل لها من العذر أن آباءها لم يكن دمهم مصريا خالصاً ولم يكونوا عباداً مخلصين لآلهة الفراعنة الأقدمين . أما التاريخ فلم يحفظ لنا في قصص إيزيس ولا هاتور ولا أية إلاهة أخرى مثل مايقص تاريخ اليونان عن آلهته وإلاهاته . ولعل ذلك يرجع الى الفرق الكبير بين طبيعة مصر وطبيعة اليونان . فبينا مافي هذه من جبال ووديان يجعل سماءها عرضة لتغيرات كثيرة تبعث الى النفوس ألوانا مختلفة من الشعور والحس وتطبع التفكير نفسه بطابع التلون اذا مصر ساكنة الى حياة واحدة هي الحياة على ضفتي النيل في نضرة الوادي الدائمة تنفرج عنها الصحراوات الى آفاق الآفاق تظلها سماء دائمة الصفو . هذا النوع من العيش أدعى للتفكير في القدسيات وأولها الموت ثم مابعد الموت من تلك الحياة الاغريقية التي ينسى حاضرها مستقبلها ويجعل أهلها يكبون على المتاع بهذا الحاضر أشد إكباب . وليست قصة أفروديت وشهواتها وسحرها إلا صورة من نسيان المستقبل في الحاضر . وليست حياة باكوس آله الخمر ولادمتر آلهة الحصاد إلا بعض هذه الصور . فأما آلهة مصر الفرعونية ، فكانت تزين جباههم جميعاً سكينة هي سكينة خلد الوادي المطمئن الى حاضره طمأنينة تبعث بخياله وبتفكيره الى المستقبل الرهيب الذي ينتظرنا في الأبدية . هاته السكينة ترونها على جبهة أبيس كما ترونها على جبهة أوزوريس وايزيس وهاتور من آلهة الخير ، وترونها كذلك على جبهة

اله الشر نفسه. جباههم جميعا مطمئنة كجباه المصريين جميعا ، بينما تشتعل فى حناياهم نار دائمة السعر هى نار المستقبل والتفكير فيه. وهذا هو مادعا الفراعنة الاقدمين لينقروا فى الصخر قبورهم وليعدوا فيها كل معدات الحياة الاخرى كى يكفلوا من طمأنينتهما ما كفلوا من طمأنينة الدنيا .وهذا هو ماجعل صحارى مصر مأهولة فى عصور كثيرة بمعتزلة الصحراء ممن يقضون حياتهم صوما وصلاة لينالوا الرضى فى الحياة الآخره.وهذا كذلك هو ماجعل مصر مهبط وحى الحكمة أكثر منها مهبط آلهة الشعر وشياطينه

كان الشراب قد أخذ بلب صديقنا الشاب . لكنه كان من قوة الارادة بما يجعله يغلب فكره على نوازع غريزته كلما خشى أن يجد الناس فى هذه النوازع موضعا لنقد.لذلك ترك المحبين يعودون لتبادل الاسرار ، واندفع معقبا على قول النجى:

— لست اعتقد أن الفراعنة من اجدادنا قد قصروا انفسهم على الحكمة وحدها ، وبخاصة على هذه الحكمة العبوس التى لاتعنى الا بالموت وبما بعد الموت . فلقد كان لديهم الى جانب الهة الخير والشر آلهة الزينة كهاتور وآلهة الشر وما يزين الشر للناس من الوان الحياة . ثم أن فى القليل من القصص الذى قرأنا عنهم شيئا كثيرا عن هذه الدنيا ونعمتها والمتاع بها. ولعلهم كانوا ككل العالم الوثنى فى حرصه على المتاع بالحاضر وفى تعلقه به تعلقا اجتمع له من الحكمة حظ كبير . فنحن إذ نذكر المتاع على أنه اس من أسس الحياة ترانا ننتقل به الى النظام الفكرى الذى الفناه والذى يتوهم أن فى العالم حقيقة واحدة يجب التوفر عليها . فاذا كان المتاع هو هذه الحقيقه

وجب التوفر على الحاضر الى حد الافراط فيه افراطا يخرجه عن معنى الخير الصحيح الذى له الى النقيض منه ويجعله شراً بحتا. أما هؤلاء الاقدمون الذين كانوا يحرصون على المتاع بالحاضر فكان لهم من سبل القصدفى المتاع ماتمليه غريزة الاحتفاظ بالنفس والاحتفاظ بالمتاع نفسه . هذه الغريزة التى تدلك فى غير منطق ولا تفكير على ان دوام المتاع لايكون بالتوفر عليه توفر إمعان وادمان ولكن بالنهل منه الفينة بعد الفينة لتدوم غبطتك به، كما أنك انما تدوم غبطتك باليقظة إذا قطعتها كل يوم بالنوم الى الحد الذى يريح النوم جسمك فيه الى يقظة جديدة . وكما أن اليقظة حقيقة والنوم حقيقة على أنهما ضدان متناقضان فالمتاع حقيقة والامتناع حقيقة وهما ضدان. وأنت بحاجة للامتناع وللمتاع حاجتك للنوم ولليقظة. وهذا شأن كل حقيقة انسانية .يجب أن تجتمع من الضدين اللذين يكونان الحياة . أى أنها يجب أن تكون الحياة فى كمالها . فاماهذه الحقائق التى نسميها حقائق لانها ترضى منطق العقل وحده فحظها من الحق ضئيل ، أو قل انها ليست من الحق فى شيء .

ومضت على حديث الشاب برهة صمت أعقبتها ضحكة حلوة جاءت من إحدى نواحي المعبد لعلها كانت سخرية الحياة من العقل وتفكيره . ثم عاد التهامس الى مثل ما كان تكلؤه افروديت برعايتها . وكان الليل تولى مدبرة اعجازه . وكلما ولى بعضه ولى معه بعض الحاضرين ينحدرون الى حيث يخلعون لباس الرهبان ثم يستقلون السيارات الى حيث ينتظرون مطلع ضياء الفجر . ولم يكن أحد

يدوى فى أى سيارة جاء ، وانما كان يعود الى حيث يريد فى السيارة التى يدعى الى العودة فيها .

واعتذرت فاتنة سميراميس لاصحابها عن العودة معهم بأن صاحبها متمط فى الدهبية ولا بد لها من انتظاره . لكنها لم تكد ترى المكان خالياً إلا من الخليل والراعية ، وترى رجال الخليل ينزلون ستور المعبد الفرعونى لتعود الدهبية كما كانت حتى أشارت الى الاشيب قائلة فى ابتسام :

— هل لك فى أن ترى مطلع الشمس على وجه أبى الهول عند سفح الاهرام ؟

ولما أجابها فى طرب واغتباط الى ما أرادت استأذنا الخليل والراعية وخلعا لباس العبادة ثم استقلا سيارة صاح الاشيب بسائقها

— هيا بنا الى الاهرام

وصاحت الفاتنة :

— هيا بنا ، الى بيت منا

حلم الهوى

كان لنا فى قرية ... من قرى مديرية الغربية صديق ذو كرم وشهامة تكتظ داره ابدا بمشايخ الفلاحين ومن عداهم من اصحابه وغير اصحابه ومن العظماء وذوى الحاجات . وكنت وجماعة من اصحابى نمضى عنده كل عام اسابيع نطمئن فيها إلى نفوسنا وننسى فيها متاعب الحياة . فاذا ذهبنا اليه استقبلنا بالبشر والترحاب ونزلنا منه فى رحب وسعة وقضينا وقتا بين التنزه فى رياض حدائقه ومشاهدة ملاعب الخيل التى تقام لمسرتنا وبين المزارع الواسعة نقطع شاسع مسافاتها سعيا على الاقدام أو ممتطين متون الجياد . ولقد غرس صاحبنا فى مزارعه كثيرا من الشجر أعان خصب الارض على نموها وكثرتها فكانت للسائرين تحتها ظلا رطيبا يبعث الى النفس أنساً ومسرة ويقيها حر الشمس أيام القيظ

وكان لصديقنا ثلاثة ابناء لا يزالون ، على تقدم سنى أبيهم ، يتمتعون بلذائذ الطفولة ويرتعون فى نعمة حريتها . وكان أبوهم يحبهم حب العبادة . فاذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها الحنان والعطف ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعيم . واذا اقترب أحدهم منه اخذه اليه فى تلطف وقبل جبينه النقى وحدق

به طويلا ثم اجلسه على ركبته وملس على شعره وشمله من حنانه بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد. وكذلك كان غلوه فى محبة أولاده موضع دهشة الكثيرين ممن يحلون فناءه

وقد انتقلنا يوما ونحن عنده من غرف دار الضيافة الى فناء رحب لنشهد ملعب خيل اجتمع اليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم من فرح كانوا يتسابقون فيه . وجاء أوسط ابناء صديقنا ووقف الى جوار ابيه فرفعه اليه وقبله وأجلسه الى جانبه . وسرعان ما انتظمت الحلقة حتى دق الطبل وتقدم الى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر البطن والساق طويل شعر الذنب مشوال . وراض الفارس جواده حتى اذا تمكن من تتبع ايقاع الطبل رأيته كانه الراقصة على المسرح يترنح ويميل ويدل ويعجب . يرفع رأسه طورا فتمسح اصداغه « كراريت » رأس لجامه . ويتقدم الى الامام مسرعا تارة فيضيف الى نغمة المزمار نغمة صريف الاهلة الفضية التى تزين واسع صدره، ثم اذا به كأنه ثمل انتشى فتثنت سيقانه حتى كاد يمسح الارض بطنه الضامر . وما هى الا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظر يمنة ويسرة فى كبر وخيلاء . وانا لكذلك مأخوذون برقص الجواد اذ أقبل أحد وجوه أهل البلد فوقف القوم يحيونه وأجلسه رب الدار الى جانبه وقام الابن فوقف مع الاطفال الواقفين . وعاد الجواد يدهش الناس بميله وتثنيه وبدله وكبره وبلعب أبدى فيه من جمال قوامه ما تحرص كل راقصة على ابدائه حين تفتن فى لين الحركات وتثني القد وحديث الجسم كله بما يستكن فيه من انغام الجمال . فلما أتم دوره خرج يتبعه الاعجاب والعطف . ودخل الحلقة جواد

اشهب ليس به شامة إلا ما سال من محاجره . وما كان اكبر الفرق بينه وبين سلفه . احتاج فارسه الى ان يعمل فيه السوط والركاب لينال منه بعض حركات تعجبه . وساد وسط الجمع هرج بدل صمتهم الاول . وليت هذا الاشهب ما خرج . فانه لما امضه السوط ومزق جنبيه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا ونال ابن صديقنا المحبوب من الذعر ما وقع معه مغشيا عليه فقام أبوه كالمجنون يجرى اليه ليرى ما حل به . وجعل يحدق به فاذا عيون مغمضة وخدود مصفرة ولون ذاهب . فصاح « يابنى » صيحة سمعها الناس ومازالوا يتدافعون مولين لايفكر أحد منهم فى كلمة عزاء لهذا الاب الذاهل يشاركه بها فى ألمه بعد اذ دعا هو الناس ليشاركوه فى غبطته ومسرته. واحطنا نحن بصديقنا ،ومن بيننا طبيب أرادأن يستخلص الطفل من يد ابيه فاذا الاب ممسك بابنه حريص عليه تختلج قلبه الزفرات وتجول فى عينه العبرات حتى كانما بدا له اليأس منه فهو يريد أن يعانقه عناقا أخيراً طويلا . ثم ذهبنا الى دار الضيافة واقتدناه معنا اليها . فلما احتوتنا أمسك الطبيب يد الطفل ونظر الى وجهه وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه فاذا الطفل يفتح عينيه يجيلها فى الغرفة وما يزال به أثر الذهول . فلما رآه أبوه رجع الى الحياة أخذ يده وقبلها وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زايل الولد ذهوله وعاد الى الحياة وعاوده تورده الجميل

بعد أيام وقد انصرف اصدقائى لبعض رياضتهم ولزمت البيت لبعض شأنى وبقى صديقنا معى يحادثنى جاء هذا الابن الينا وجلس معنا . فقلت لابيه فى ابتسامة :

— لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه ، ولا أنكرك ان أبا يحب ابناءه حبك ابناءك لجدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك .

فتنهد طويلا وقال :

— أى هم وأى شجن رأيت . لقد قضيت طوال السنين وحياتى فى شجن وهم حتى ابيض شعرى وشاب مفرق . ثم انقضى الهم والشجن بعد أن بلغت ما أردت . وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الابناء الذين ترى . افتراني بعد ذلك مغاليا اذا بلغ عندى حبهم الجنون .

لم أفهم كل ما اراد أن يقول . لكننى ادركت ان له فى الحب حديثا طويلا وانه قاسى فى سبيله اكثر ما يقاسى الرجل ثم حصل على من أحب وبنى بها فانجبت له هؤلاء الابناء فشاقنى أن أقف على همه الاول وشجنه الماضى فقلت : أى هم تريد ! لعل لك حديثا لا تضن على بذكره ؟ قال :

— انه يا صاح حديث حياتى . وما ذكرته مرة وذكرت كيف توج القدر جهادى بالظفر الا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد فيها . وانك لصديق وفى لا يضن عليه بشىء فاستمع الى :

***

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبى . وكان لهذا الجار ابنة أصغر منى بنحو ست سنوات جمعت الطفولة بينى وبينها برابطة المودة . فلما كساها الشباب بديع حلته أخذت بقلبى محاسنها وفتننى جمالها وجعلت اختلس اللحظات لاخلو بها احدثها متعارف القول ومافوق

الحديث وأشعر بكل ما فى ذلك من نعمة ومتاع وحياة. ثم أحسست أن لى فى نفسها مثل ما لها فى نفسى ففاتحتها حديث الحب وتعاهدنا على الوفاء .

ومضت سنون وهذا الحب ينمو فى نفسينا ، ونزداد نحن احساساً بعظيم ما له من سلطان علينا حتى بلغنا من ذلك أن كنا لا نفارق الا على موعد للقاء ، وان كنا نقضى ما بين اللقيين فى شوق ولهف ما أشدهما . فلما عرف أهلنا ما بيننا كان أول ما صنع جارنا أن حجز ابنته عن الخروج من الدار. فهالنى الأمر وأزعجنى وأدخل الهم على نفسى وكدت أجن من فرط ما بى . ثم عولت على أن أستعيد وإياها عهدنا الجميل الطاهر . ففتقت لى الحيلة أن أستعين بعجوز تتردد على بيتنا لاستطلع رأى محبوبتى فيما اعتزمت وجعلت احابى العجوز بالاحسان وأسبغ عليها نعماً ضئيلة القيمة لكنها ذات شأن فى نفوس هاتيك الريفيات . فلما استوثقت منها سألتها أن تكلم صاحبتى فى أمرى لترى أهى ما تزال مقيمة على عهدى . فلما اطمأننت الى حرصها على لقياى فكرت مع العجوز فى وسائل هذه اللقيا وطرق الخفية فيها . ولم يكن ذلك عسيراً على امرأة قضت السنين بريد المحبين ومستودع سر المشوقين. وكانت لقيانا كل ليلة فى فترة ما بين المغرب والعشاء حين يكون أبوانا فى الجامع يصليان الفرضين ويقومان لله بواجب الحمد على عظيم نعمته. فى هاته الساعة كنا نلتقى فنجدد عهدنا ونتذاكر حبنا ونتمتع باللحظات التى تمر بنا ونزيد عليها المتاع بذكر الماضى . فاذا أذن المؤذن بالعشاء جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب .وما

كان أمر ساعة الفراق على نفسينا لولا الأمل فى اللقاء

ثم تحدثنا فى أمر الزواج كيما ينتهى مايوجب الفراق . لكن الشعور بأن الحياة الزوجية ؛ وإن أسعدها الاخلاص تخمد سعير نار الحب الزاكية الحارة ؛ جعلنا لانتعجل هذا الزواج ولانفاتح أحدا من أهلنا أمره . وبقينا قانعين بتلك السويعة بين الفرضين كل يوم مستمتعين منها بكل ماتحويه من سعادة

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس النعيم . وانا ذات يوم لجلوس نتناجى اذأقبلت العجوز قبل موعدها مذعورة تنادى بصوت مختنق ؛ مخافة أن يسمع ؛ منذرة بالويل والثبور قائلة إن أبا محبوبتى عاد قبل عادته وكأنما كان على علم بما بيننا . فإنه مالبث أن تخطى عتبة الدار حتى سأل عن ابنته وألح فى المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها انها تستحم ولا منتظر مجيئها من حيث تكون

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولانى الجمود . أترانا سنفتضح ؟ وهل يمكن أن يطعن شرف محبوبتى بسببى ؟ لا . لا . انى لن احتمل هذا . ولا بد من درء الخطر بأية وسيلة . ولم تمر لحظة حتى ملكتنى فكرة اللحاق بابى وصحبته طوعاً أو كرهاً إلى أبيها وخطبتها اليه زوجاً لى وملازمته حتى يذعن لماأريد. وأخبرت صاحبتى بعزمى وطلبت اليها أن تبقى حيث هى حتى تجيئها العجوز بخبر دخولنا إلى أبيها فتدخل هى الى الدار خفية بينا يكون أبوها مشغولا بنا عما هو فيه من الهياج

وهرولت مسرعا الى أبى وناديت به وكان لايزال فى المسجد

نخرج الى وتبعنى من غير تفكير ومن غير أن يسألنى عن سبب مناداته مكتفية عواطفه بما رآنى عليه من الاضطراب لتسوقه كى يتبعنى ويقضى طلبتى وغرضى . ولم أجد كبير عناء فى إقناعه بالذهاب من فورنا الى جارنا نخطب اليه ابنته . ودخلنا منظرة الرجل وبعثنا له الخبر بقدوم أبى اليه فما لبث أن جاء متكلفاً البشاشة مطرحاما استطاع مظهر الهياج والغضب . وطلب القهوة ورحب بأبى وإن لم تخف على نظرات منه كانت تتجه أحيانا الى وبها شىء من الحنق بل من حب الانتقام .

وحضرت القهوة فقمت من حضرتهما تأدبا وتلفت ساعة خروجى من المنظرة فرأيت العجوز تومئ الى كى أطمئن . وأزالت حركة العجوز مخاوفى فجعلت أفكر فى أمر ماسيتم هذه الليلة وأنا مضطرب بين السرور به والوجل منه . ثم رجعت الى المنظرة فوجدت أبى وحده فسألته عن جلية الامر فأخبرنى ان صديقنا دهش لهذه الخطبة الغير المنتظرة وطلب اليه أن يمهله حتى يدخل الى أهله فيشاورهم فى الامر لعل لهم فيه رأياً . وقد علمت من بعد انه أول مادخل سأل زوجه ؟

— هل جاءت البنت ؟

— نعم انها فرغت من استحمامها وخرجت . أفأنادى بها اليك ؟

— ان جارنا يخطبها لابنه . فارأيك وهل لك علم برأيها فى ذلك؟

— ومن لى بأن أعلم وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة. دعنى أسألها .

فصاح الرجل بغتة :

— يافاجرة . من لك بان تعلمى ؟ أو ماعرفت مابينهما وكيف يلتقيان ؟

— كيف يلتقيان ! هدىء روعك ياصاح . إن ابنتك من يوم احتجبت لاتعرف ماوراء بابنا . فانى لك بتصيد أخبار كالتى ترميها بها ؟

— كفى كذبا ياخبيثة . وادخلى البنت على لتوها وإلا فانى قاتلها . لن أرضى الخنا تحت سقف يظله اشرف . أين هى ؟

فظهرت على الأم سيماء الجد وقالت بلهجة الحازم القدير :

— الا هدأت من حدتك فان تراها . اقتلنى إذشئت . لكنى لن أدعها تدخل على أب طائش الحلم يرمى فتاة طاهرة باقبح سبة من غير سبب . . فاما أن راجعك صوابك وأعطيت على نفسك موثقاً أن تقابلها ببشر الأب الوزين فستراها بين يديك قبل أن يرتد اليك طرفك

فاطرق الرجل ثم خرجت الأم ولم تك الا برهة حتى عادت تصحبها البنت وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعيناها براقتان وخدها محمر . فلما رآها أبوها كذلك وجم هنيهة احتقن أثناءها الدم فى رأسه ثم سألها :

— إن جارنا يخطبك لابنه . فماذا تقولين ؟

خفضت الفتاة طرفها حياء وتولت الأم الجواب :

— الأمر لك . وماكان لبنت أن تراجع أباها أو ترد عليه قولا . .

ثم أشارت لأبنتها أن تخرج . فلما قاربت الباب نادى بها أبوها مغضباً :

— لعلك مرتاحة لهذا الخبر . ألا فاعلمي أن الطلاق يلزمني ثلاثاً ان أتممت هذا الزواج ! وأنت أيتها الفاجرة . قومي من وجهي . اخرجا . اخرجا . واعلما أني رقيب عتيد

ورجع الرجل من حرمه الينا وهو في هياجه . وسكت زمناً تمالك فيه غضبه ثم قال لابي :

— إسمع ياأخي . ما كنت لاعز عليك شيئا وان جل ، ولا كنت لامنع عنك ماطلبت. لكنك تعلم اني حجزت ابنتي بسبب ابنك الذي لا أسميه كيلا أغضبك . ولقد حلفتها اليوم بالطلاق ثلاثا أن لاا زوجها منه ولن أحنث في يميني . وما لك عندي من الحب والاحترام لن يؤثر فيهما امر تافه كهذا . لكن بحق هذا الحب الذي بيننا الا عقلت ابنك عما قد يمس بيتي وما يقيم بيننا ثاراً لا تمحوه يد الزمان . وفتيات بلدنا كثيرات وبينهن من يفضلن ابنتي . فما عليك الا تزويجه من احداهن وفي ذلك . ....

لم أعرف ماقاله بعد ذلك فقد أصابتني حمى صحت معها :

— الا لعنني الله إن لم اتزوجها! وتعسا لك ايها الشيخ وللزمان!

وخرجت هائما على وجهي قد تولاني اليأس فاضل صوابي وضيق العيش أمامي وجعلني أرى كل مافي الحياة عدوا لي وخيل الي لحظتئذ أن لابد لي من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتي وانتزاعها من بين أهلها والفرار وإياها لنقيم معا دائما والى الابد .

وكانت ليلة قر ؛ لكن السماء كانت صفوا وكان البدر المتألق

يبعث فى لجة الليل خيوطا من فضة تنير دجاه بضياء رقيق مطمئن . لذلك خشيت بعد ماسكن هواء تلك الساعة روعى إذ أنا هممت بتنفيذ عزمى أول الليل أحس الناس بى وكان الفشل نصيبى . فعرجت الى المسجد ومكثت فيه ردحا من الزمن أفكر فيما أنا فيه شارع . وانى لكذلك إذ مر بخاطرى ان مباغتة الفتاة على غرة ومن دون علمها بالذى أنوى ربما أدخل الجزع الى نفسها وجعلها تعترض ما أريد . لذلك رأيت أن ألجأ الى العجوز المدبرة أستعين بها وأتدبر الامر معها . وألفيتها عند مجاز الدار مكتئبه بائسة. فسألتها عما أصابها وفاتحتها مااعتزمته ومنيتها كبار الأمانى . فما زادت جوابا على ذلك كله أن قالت :

— قضى الأمر يامولاى. فقد أقفل بابهم فى وجهى فلا أستطيع أن أدخله بعد اليوم

قلت : — واليوم . الآن . هل فى طاقتك الوصول اليها ولو عن طريق الشياطين

فأطرقت طويلا ثم رفعت رأسها وقالت : لا سبيل . فلعنتها وخرجت قاصداً بيت محبوبتى لأتم فعلتى ولو كلفنى ذلك من الثمن ما كلفنى . فلما كنت ازاء بيتنا بصر بى أبى فنادانى اليه فأفقت حين سمعت صوته وذهبت نحوه فجعل يطمئننى بكلمات رقاق وصحبنى حتى أمسى الليل وغلقت دونى الابواب. لكن ذلك لم يزدنى إلا عزما . فخرجت بعد هجعة الناس وتسلقت جدار جارنا ووقفت ألى جانب الغرف أتسمع . فلما أيقنت أن لا حسيس دلفت الى غرفة نومها ونوم أمها وطرقت الباب فانتبهت الأم وفتحت. وإذ تبينت وجهي فى ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة ، ثم أقبلت إلى

ثانية وأدخلتنى الى الغرفة وأوصدتها وقالت بصوت تخنقه العبرات:

— بربك يابنى ارحم عائلة إن أنت أتممت ما قدمت له قذفت بها الى حضيض العار . بربك يابنى . بحق هاته النائمة المهدودة أنهكها التعب . بحق أنا وبحق الجوار ! لاتجن عليها ! لا تقتل أباها المسكين . ابنتى تحبك ، ولكن نفذ القضاء . ارجع وأنت واجد من النسيان خير تعلة وفى غيرها من تبدلها مرات ارجع يابنى .

أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتاً صلداً منتظراً أن تفرغ من خرافتها كى أحتمل فريستى وأذهب بها . وفيما أنا فى انتظارها استيقظت الفتاة وحدقت بى . فلما تبينتنى على ضوء المصباح الضئيل انتقلت من مرقدها وأقبلت إلى وتعلقت بعنقى وجعلت تبكى ثم قالت:

— الوداع . . .

— كلا بل فلتذهبي معى الآن الى حيث أريد

فارتجفت الفتاة ثم تمتمت :

— رحماك حبيبي بأمى وأبى ورحمة بى أنا الاخرى . الوداع الآن ولكنا سنلتقى فى المستقبل. بالله إلا مارجعت أدراجك وبحق هذه الزيارة لن يكون لغيرك فى قلبي مكان ماحييت .

وأغلظت فى الايمان وألحت وبكت فأخمدت عبراتها عزيمتى وقبلتها قبلة الوداع ورجعت أدراجى

***

بعد هذا الحادث باشهر زوجها ابوها من احد اعيان القرى المجاورة.وكانت ليلة عرسها ليلة مأتم عندى .لزمت البيت وانفردت فى غرفة من الغرف وذرفت الدمع وترلانى القنوط . وفى اصباح

رأيتها خارجة من القرية فى هودج وقد أحاط بها رجالها ورجال العروس وساروا جميعاً وفى يدكل منهم نبوته ومع البعض طبنجات سمعت طلقات منها تذهب فى الهواء . فلما ابتعدوا رجعت الى نفسى أفكر والحزن يفيض عنى . وانى لكذلك اذ جاء أبى وصديق له . فلما رأيا ماأنافيه من الهم أخذا يرفهان عنى وأكد لى أبى انه سيزوجنى من فتاة متى عرفتها نسيت صاحبتى ونسيت ما كان بيننا من ماض طويل سعيد .

وصدق أبى وعده . فعقدلى بعدأسابيع على ابنة عمدة أكبر البلاد المحيطة بقريتنا . وأقيم لى ولها عرس نادر المثال . فلما حضرت زوجى عندى رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن ، فرأيت أن أنسى فيها نفسى وأجعل منها موضع حبى وأسدل على ماقبل يومها عندى حجابا كثيفاً يحول بيننا وبين ماض كان لذيذاً وكان لى فيه سعادة وهناء . فما مضى انقضى وليس الى إحيائه أو استعادته سبيل . وعملت لذلك باخلاص وجد ووجدت من زوجى نعم المعين. وكان أكبر ماوجهت اليه عنايتى أن أخلق بيننا فى وقت قصير ماضياً طويلا . فأكثرنا من التريض والأسفار وواصلنا ليلنا بنهارنا لنخلق أكبر قسط من السعادة يجب أن نناله . وكانت الفتاة نادرة الذكاء واسعة الحيلة . سرعان مافهمت مواضع الضعف منى فاستفادت من فهمها هذا ونالت بذلك كثيراً من عطفى وميلى وجعلتنى أعتقد انى سأجد فيها ماينسينى كل هم وشجن . وبقينا كذلك شهوراً اطمأنت هى فيها واطمأن كثير من أهلى الى اندثار كل أثر لمحبوبتى الاولى من نفسى وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبي . والحق انه اشتمل

نفسى هدوء صادق وذهب عنى ذلك اليأس القاتل الذى كان آخذاً بتلابيبى الى مابعد زواجى وسكنت كلوم طالما استثارت منى صيحات الحزن والأسى .

وإنا لكذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبى وجارنا الخروج معا الى الحجاز . فلما انتهينا من التجهيز وآن موعد السفر أقبل جمع غفير من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين . وكان فيمن أتى محبوبتى وزوجها . وبقى النــاس فى هرج الوداع ومرجه أياما . فلما جاءت ليلة البرزة خرج المسافران ومعهما جمع غير قليـل فنصبوا الخيام خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم . . ألا سقيا لك ياليـلة بروز أبى للحج . لقد جررت على مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها عاتقى لـكنك توجتها جميعاً بالفوز وختمتها بالسعادة .

كان فيمن خرج الى خيمة النســاء محبوبتى . وفيما أنا اطوف والناس فى زحمة العشاء لمحتها خارج الخيمة فوقفت مبهوتا أحدق بها .ورأتنى هى الأخرى فبهتت . ثم اذا قوة قاهرة دفعت كلا منا نحو صاحبه فتقاربنا حتى وضعت يدها فى يدى من غير أن ينبس أينا ببنت شفة . فى هاته اللحظة الرهيبة الرغيبة ، لحظة اللقيا بعد طول الفراق ، فى هاته اللحظة الجميـلة المهوبة خيم علينا الصمت وتولانا الذهول . . . وبعد زمن خيل الى فيه أن وجودى تلاشى فلم يبق لى من الحياة إلا هذه اليد الممسكة بيدى سمعت ملاكى تتمتم وكأنما خنقتها العبرة .

— هكذا تنسانا

لو ان الارض انشقت والسماء هدت والجبال دكت لـكان ذلك

أهون على وقعاً من هذة الكلمة . نعم نسيتها أنا الشقى . فمعساى أن أكفر عن ذنبي وأى جواب أرد به عليها ؟ وبعد لأى قلت:

— غفرانك صاحبتي . لقد أحييت من نفسى لوعة لابد لى بعدها من الظفر بك أو الموت فى سبيلك . وموعدنا غداً بعد عودتى من السفر حيث كنا نلتقى فى رقابة العجوز

وتتاركنا ...

تتاركنا وقد نفر من كلومى ما كان سكن وجشأت نفسى وجاشت وثار وجودى كله وصرت لا أعى شيئا مما يدور حولى ولا ابصر الا موعد الغد . وقضيت ليلة نابغية ملؤها الهم وقابلت زوجى لبعض شانى ، فما وقع نظرى عليها حتى رأيت الثعبان الذى نفث سمه فى حياتى ودفعنى لارتكاب جريمتى !

ولم يتسع الوقت لأصب عيها جام غضبي فاختطفت من يدها ما قدمت وأسرعت إلى الباب فتبعتنى تريد أن تعرف مابى فزجرتها بكلمة شديدة قابلتها بصبروردت عليها بكلمة رقيقة كان جوابهامنى :

— ارجعي يالعينة أو أنت طالق !

رجعت.وسافرت أناالى السويس وانزلت أبى الباخرة وعدت قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معى فى العودة ، ومن غير أن يعلم أحد بعودتى . وقطعت الطريق بين المحطة وقريتنا راجلاسالكا اقرب الطرق رغم دعورتها ويممت موعدى فاذا حبيبتى تنتظرنى فلما رأتنى بادرت بالسؤال

— كيف وجدت عودتك ؟ ولعلك كما احب وتحب

— نعم ياصديقتى. ولعل مقدمى يسرك . وكيف أنت الآن ؟

كيف أنا ؟ . . آواه ياصاحبي لو تعلم . لقد قضيت أيامي منذ تزوجت وانا أقطع نفسي حسرات من أجلك ... ولكن!... مالك أنت وهذا... متعك الله بزوجك ومد في أيام سعادتك ... ولله أيام تقضت في هذا المكان حين كان البدر يغمرنا في سابغ لجته وحين حدا بنا الميل والعطف الى أسباب الهناء والنعيم . أتذكر ياصاح تلك الايام؟ أتذكر عهودنا ومواثيقنا ؟ أتذكر مجيء العجوز تنبهنا الى الوقت وقد نسينا الوقت ونسينا الوجود ؟ أتذكر مجيئك الى أبي تخطبني ؟ وهل تذكر تسنمك دارنا وتعريضك نفسك واياى للخطر ؟ ثم هل تذكر آخر وعدى إياك أن لن يكون لغيرك في قلبي مكان ماحييت ؟ أقسم بهذه اللقيا على غير انتظار ! أقسم بحب مازاده البعد إلا استعارا! أقسم بحياتك أنت ماحنثت في الوعد ولن أستطيع أن أحنث فيه.. لكن.. كل شيء ياصاح مضى وانقضى . رحم الله ذلك العهد ويرحمني أنا الأخرى غفور رحيم

..وأنهدت يهزها البكاء. أما أنا فقد صغرت أمام نفسي، وتضاءل في عيني قدري ، ورأيتني مجرما بائساً شقياً . هذه السيدة أمامي تبلغ من علو النفس هذا المبلغ ويكون جهادي أنا أن أسدل على ماتذكره الساعة حجابا كثيفاً!..وأنسى مواثيقي وعهودي وأنسى قلبي وروحي وأنسى كل مافي الحياة من جميل وعظيم وأرضى ذلك العيش السخيف الذي ألبسوني : كلا كلا: لابد من استعادة هذا الماضي ولو ضحيت بالحياة في هذا السبيل

وصح ذلك العزم عندى فهدأت جأش صاحبتى وقلت لها :

— ما نسيانا لعهد سلف ولا فتورا فى حب ملأ وجودى حصل ماتقولين . لكنى خشيت ان انغص عليك عيشا ربما وجدت فيه الطمانينة . والآن افتعدينني إن انا طلقتك من زوجك أن تكونى لى زوجا ؟

قالت وما تزال العبرة تخنقها وعيناها مغرورقتان بالدمع :

— وهل رأيتنى ياصديقى رجوت فى الحياة غير هذا ؟

وقضينا مابقى من الليل فى حديث طويل تخللته الذكرى والعتاب والاستغفار . فلما أذن مؤذن القرية انسحبت هى الى المخدع الذى اعد لها وقمت أنا الى المسجد نلت فيه اغفاءة ما كان أحوجنى اليها بعد ليلتين مملوءتين بأقوى الاحساسات واقساها . وبعد سفر يوم طويل . فلما خلوت الى نفسى ساعة الضحى أخذت افكر فى الوسيلة لتنفيذ ما اعتزمت

عملت جهدى . وافنيت كل وسائل السلم لاقناع زوجها بتسريحها . فكنت كلما ازددت أصرارا ازداد هو ضنا بها وامسا كا عليها . ثم أصبح الامر بيننا عنادا وصار هو يرى عملى هذا جريمة انغص بها عيشه وأفسد عليه حياته واجنى بها على الفضيلة والمروءة . وشاركه رأيه كثيرون بلغ من حنق بعضهم على ان خاطبنى مواجهة بان ما أجترحه أكبر الكبائر

لم يكن ذلك ليغير من رأيى ولا ليرجعنى عن عزمى . بل جاءت محبوبتى الى بيت أهلها باشارة منى وتبدلت وسائل السلم مع زوجها وسائل وعيد وتهديد . ولقد ساورتنى يوما نفسى ان أدس عليه من

يجيء على أيامه، وكنت مقدما على هذا لولا ان وقفت هي دونه مخافة ما فيه من خطر ربما جر علينا فراق الأبد

وأنا لفي شغل بتدبير أمرنا اذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التي تقل أبوينا عائدة من الحجاز فانقلب الفرح مأتما وارتدت النساء ثياب الحداد وأصابت الفاجعة موضع الألم من نفسي ونفس صاحبتي وصارت تجمعني وإياها مع رابطة الحب رابطة الأسى المتبادل

وانتهى المأتم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدي لزوج صاحبتي وذهبت افكر في وسيلة أخرى لبلوغ غرضي ، وانتهيت الى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بانه طلقها . وكم تهللت هي حين عرضت عليها هذا الرأى من غير أن تفكر فيما تحتاج اليه مثل هذه الدعوى من المجهودات لتكون نتيجتها على مانريد

على ان هـذه المجهودات لم تكن شيئاً أمامي . ودعي الزوج للمحكمة الشرعية كي يسمع حكمها بأنه طلق زوجته . واستمرت هـذه الدعوى أكثر من سنة استنفدت مني من العناية واليقظة والجهد مالا يحيط به خيال انسان . فلم أترك شاهد زور إلا أتيت به ولا كاتبا في المحكمة إلا رشوته ولا قاضياً إلا وصلت اليه . ولقد كاد الملال من هذه الجهود يصل بي إلى اليأس مرات . فلكم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن الكاتب رأى ماوصله غير كاف وأراد المزيد . ولكم طلب مني باسم حضرة القاضي فلم أجد حيلة الى رد طلبه . وكم مرة رأينا تحوير المحضر وتغيير ماثبت على لسان بعض الشهود . . . ولو لا دافع من الحب والكرامة كان يدفعني للوصول منتصراً لهان على أن أترك كل شيء

ثم صدر حكم المحكمة بالتفريق فطرت فرحا وحملت الخبر الى صاحبتى وعانقتها عناقا طويلا . ولبثنا يومين ثملين بلذة النصر فى هذه المعركة الطويلة متهللين للمستقبل الذى يتم فيه زواجنا . لكن تعاقب الايام دس الى نفوسنا ماشغل بالنا . ذلك ان المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلا عند الله ؟!

هنالك ذهبت الى زوجها وعرضت عليه جلية الامر : وقلت له:

— ياشيخ! لقد أرهقناك من أمرك عسرا . لكنك رجل خير لاترضى أن تحملنا وزرا . وأنت تعلم أنا لم يدفعنا الى ماعملنا الوقيعة بك أو المساس بشرفك . وانما دفعنا اليه مالا قبل لنا بدفعه . فهل لك فى مثوبة من الله فتنطق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضميرنا ؟

فاطرق الرجل طويلا يفكر ثم قال :

— لقد والله حملتمانى هما طويلا . أماوقد رجعتما تريدان الله فليرض الله عنكما . وهى طالق . طالق . طالق ...

فشكرت له منته ورجعت الى أهلى وبلغت صاحبتى الخبر ثم ناديت زوجي وذكرت لها ماتعلم مما كان وما سيكون وقلت

— وإنى لاخشى بعد زواجى الا أعدل بينكما ، فان شئت راضية سراحتك سراحا جميلا

وانقضت أشهر وتزوجنا .وكان يوم زواجنا حافلا جاء فيه الذين كانوا يعيبون عملي يهنئوننى وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق

ورزقت من زوجتى ابناء ثلاثة .بنتا وولدين .وهؤلاء الابناء هم عندى زينة الحياة بل الحياة . هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذى

أنققه أبوهم السعيد بهم . افتعجب بعد ذلك لما رأيت من ذهولى حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد ؟

***

الى هنا انتهت قصة صاحبي . وهى قصة القت للهوى بزمام الحكم حتى فى دور القضاء . وقد غادرت صاحبي بعدها فغادرت رجلا من السعداء القليلين الذين رأيت فى حياتى . غادرته وأنا أغبطه على مامتعه الله به من نعمة سابغة وهناء مقيم ...

الشيخ حسن

انقطع الشيخ حسن عن معاشرة أهل بلده . وبعد أن كان لا يفوته أداء الفرض جماعة فى مسجد القرية الساكنة المطمئنة كان الناس لا يرونه بينهم ساعات الصلاة إلا نادراً . وارتسمت على جبينه الذى كان نقيا إلا من آثار الورع والتقى تجاعيد الهم والألم . أما نظراته التى كانت مملوءة بالايمان وتنم عن راحة الضمير وسكينة القلب فقد انقلبت نظرات مضطربة تنعكس من خلالها هواجس تعاسةقلقة لا تدرى أين تستقر ، وغارت عيناه وغاض لونه وبدا عليه نحول عصبى نكره لنفسه ولكل من عرفه . مع ذلك كانت حركاته أكثر بطأ وكأنما أمسك الهم الذى أثقله بكل عصب من أعصابه ، أو كأنما شل القلق الذى تولاه سلطان إرادته حتى قعدبه عن أن يريد أو أن يعمل

طرأ هذا الانقلاب على نفس الشيخ حسن فى أوليات الشتاء . وطرأ عليه بعد أن كان مثال التقى والحكمةوبعدأن كان الناس ينظرون اليه نظرهم إلى ولى من أولياء الله الصالحين . ذلك أنه قضى حياته بين أهل القرية مضرب المثل فى كمال الخلق وصدق الايمان وسمو النفس . وكان من أهل العلم الذين يعملون بالعلم ولا يتخذونه متجراً . فكان يعظهم بعد كل صلاة

ويعلمهم ويفقههم فى دينهم . وكان سمح النفس سريعاً إلى المواساة يشارك الناس سراءهم وضراءهم ويفيض عليهم من ايمانه بلسما لجراحات آلامهم وأحزانهم . وكان نساء القرية يجدن فى سلطانه على أزواجهن ما يحميهن من عسف هؤلاء الأزواج وما يقف حائلا دون التلاعب بأيمان الطلاق . وكان خاصة أهل القرية وعامتهم فى احترامه وتبجيله سواء . بل لقد كان كثيرون من أكابر القرى وأعيان البلاد المجاورة يرون زيارته فرضا عليهم كلما زاروا واحداً من أعيان أهل بلده . وكذلك كانت حياته وكان عيشه مرضيين عنده راضيين عند الله والناس .

وقد ظل متمتعا بطمأنينة الايمان منذ نشأته فلم يثقله من الهم إلا ما كان منذ سنوات ست حين ماتت زوجته تاركة وحيدتها فاطمة فى العاشرة من عمرها . فقد كان يوم موت هذه الشابة الجميلة المحبة المحبوبة أشد الناس لجيعة وأهولهم جزعاً . جمدت الدموع فى عينه ودب المشيب الى فوديه وتجاوبت فى قلبه كل أصداء الحزن والألم . ويومئذ سارع الناس من أهل بلده ومن كل البلاد المجاورة الى تعزيته . ويسير على قلب يملؤه الايمان ان يتعزى . فهو على شدة جزعه لوقع المصاب لم يلبث أن ذكر ان لله فى كل أمر حكمة، وأن تلا قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . عند ذلك قشعت حرارة الايمان سحب الهم وحمد الشيخ ربه اذ أسبغ عليه نعمة التقى واستبقى له فاطمة كى يسبغ على هذه الطفلة الجميلة كل ما فى نفسه من حنان وعطف وحب أبوى

وبعد انقضاء المأتم بقيت فى الدار وإياه أخت له تحبه وتبجله. فلما انقضى الاسبوع الأول فاتحته فى أمر زواجه من جديد وكانت على ثقة من أنها لن تحتاج إلى أى مجهود لاقناعه بضرورة الاسراع الى القيام بواجب يفرضه عليه مركزه ومقامه بين الناس ويدعوه اليه قلبه المشوق لاشك الى ابن له يخلفه ويخلده . ثم ان النساء جميعا مؤمنات بأن ليس بين الرجال من يطيق عليهن صبرا او يستطيع عنهن بعداً . لذلك كانت دهشة أخت الشيخ عظيمة حين بدا منه التردد والاحجام . وكانت بعد ذلك أشد دهشة حين رأته التزم عيش العزوبة قانعاً بهذه البنت التى ابقاها الله له . لكن حبها اخاها وتبجيلها إياه منع عليها الامعان فى الالحاح بعد أن أمرها بالكف عن الكلام فى أمر زواجه وجعلها تدرك ضرورة بقائها للقيام معه بشؤون داره وعلى تربية فتاته .

وكانت فاطمة طفلة اجتمع لها تيه الوحيدة ودل الجميلة . وبرغم صغر سنها حين ماتت أمها بدت عليها رقة الأنوثة ودماثتها مع شىء من الانفة فى غير كبرياء . ولم يبعث بها أبوها للمدرسة ولا للكتاب أن كان يعتقد أن المرأة إنما خلقت ربة للدار ، وان حكم الدار حكما صالحا فى غير حاجة الى درس شىء غير ما تتوارثه أجيال النساء خلفاً عن سلف ، كما أن القراءة والكتابة وما يتبعهما من معارف كثيراً ما تجنى على الخلق وعلى الفضيلة التى يجب أن تكون زينة المرأة وحليتها . على أن كثرة معاشرة البنت لأبيها وسماعها ما يفيض من علمه فى حديثه العادى فتقا ذكاءها لكثير مما لا يجود به الحظ على غيرها من بنات أعيان الأرياف والناس الطيبين

فيها ، فكانت تعرف شيئاً عن المدن وعن المشايخ من أهل العلم الذين يقيمون بها ومن الذوات الذين يزورون هؤلاء المشايخ ويؤدون لهم فرائض الاجلال والاحترام بسبب علمهم وورعهم مما لا يفتأ الشيخ حسن يقصه عليها ليشعرها بماله ولها من سمو المكانة ورفيع القدر ، وليدخل بذلك الى نفسها معانى الاباء والكرامة فتشرف اخلاقها وتعظم نفسها .

وتتابعت الاشهر والسنون وكل سنة تمر تزيد فاطمة جمالا وتزيد أباها تعلقاً بها .وكانت الفتاة محبة لجمالها شغوفة بهأى شغف. لذلك جعلت من مرآة خلفتها امها خير صديق لها . فكانت لا تمل التحديق فيها بصفحة هذا الجبين النقى المصقول فوق حواجب نونية واسعة قوست على عيون دعجاء مملوء بريقهما الندى حياة واحلاما،وبأنف رقيق يستوى والجبين حين انحداره منه ثم يرتفع قليلا ليرتد عن وجارى منخرين اتسعا لشميم كل ما فى الحياة مما يحملهما اليه الحسن والهوى ، وليفصل بين خدين ممتلئين فى استدارة جميلة تعلوهما حمرة تنطق بما فى الشباب من صحة ورغبة ، ثم تذوب فى سمرة قمحية جذابة . وكان أشد إعجاب فاطمة بهذا الفم الذى تراه فى المرآة كأنه وردة لم تبرز من أكمامها الخضر إلا بمقدار ما تنبعث القبلة من بين هذه الشفاه فتبتسم له مسرورة به راضية عنه فتنم ابتسامتها عن أسنان فلج ناصعة البياض وعن ثغر تجرى مع سلافة ريقه كل ما توحى به سنى فاطمة من أحلام وآمال ورغبات.

على هذه الصورة كانت فاطمة ترى وجهصاحبتها المطل من خلال المرآة المحبوبة فتزداد به شغفاً وإعجابا . أما قوامها فكان

لدنا غضاً كأنه قوام ناعمة نؤوم الضحى . ارتفع ثوبها فوق صدر ناهد فى غير اغراق وأخذ بتلابيب خصر ريان فى غير بطنة. وكانت ساقاها وقدماها كمال هذا الجمال الشاب المتطلع للحياة بنظرات لأمل الجاهل كل ما فى الحياة من غدر ومن ألم .

وكان أبوها ضنينا بها على الحياة ورغائبها والشباب وأحلامه. فقل أن كان يسمح لها بمغادرة الدار الا تحت جنح الظلام وفى ستر الليل. لكنه كان يعلم من أخلاق أخته وجدتها ماجعله يتسامح فى ذهاب فاطمة من طريق سطوح الدار إلى منزل أعمام لها واخوال هم اكابر أهل البلد والقائمون فيها بالعمدية والمأذونية . وكان يسره أحيانا أن يعرف منها أسرار أقاربه ودخائلهم مما قد لايتاح له الوقوف عليه وهو فى عزوبته وفى تقاه

وكان لها ببعض أقاربها فى البيت الكبير صداقة نشأت منذ الصغر . وخشى أبوها عواقب هذه الصداقة فأسر إلى اخته أن تحرم عليها ملاقاة أحد من الشبان. وكأن ما كان من فرط حذر عمة فاطمة قد نبه فيها لأول ما كملت لها حياة المرأة معانى نسوية ما كانت لتتنبه بهذه السرعة . وثار وجود الفتاة ثورة لم يفكر عقلها فى كبحها إذ كانت ثورة الجمال المهان . فكانت لاتابى تحيات أكابر أقاربها ممن سمح لها بالجلوس اليهم والتحدث معهم كما كانت لا تضن بابتسامة عذبة على ذوى الود منهم . وسحر بجمالها غير واحد كان يجد فيه قدس إعجاب وعبادة. وكانت ثورة الفتاة تزداد كلما ازداد أولئك المسحورن تمليقا لها وتدليلا . ولكل ثورة نفسية لاتجد من سلطان العقل ما يكبح جماحها انفجار لاوسيلة لمقاومته الا اذا استطعت مقاومة

انفجار المرجل الثائر جوفه ببخار ماتفتأ النار تزيدة ثورانا . لذلك لم تطل مقاومتها ابن عم لا بيها له مالابن عمه من مظاهر التقى وللناس به من الثقة ان كانوا يأمنونه على أموالهم واعراضهم

ومرت أسابيع بدا على صحة الفتاة فيها من التغير ما أدخل الريبة إلى نفس الشيخ حسن فحاول بادىء الامر انيقنع نفسه بأزما بابنته من علة لاصلة له بعفافها . لكن للنساء فى القرى السناً طوالا . وما هى إلا أيام حتى كان هذا الحديث موضع همس أهل القرية رجالا ونساء . والهمس اذا عم صار حسيساً ، وصار له صوت وكيان . وأحس الأب البائس هذا الصوت بل رآه رأى العين فى نظرات كانت توجه له وفى بعضها من الاشفاق عليه وعلى ورعه وتقاه ماهو أشد قسوة من نظرات الحقد والكراهية . لذلك انقطع عن معاشرة الناس وعن الذهاب الى المسجد وارتسمت على جبينه تجاعيد الهم والألم واضطربت نظراته وغارت عيناه وغاض لونه وضعفت حركته فكأنما شل الهم أعصابه وأخمد سلطان حركته حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل

وكان أول ماقام بنفس الشيخ حسن ، حين هزم اليقين منها كل هواجس الشك فرسم أمامه صورة ابنته عارية وأراه رأى العين كل عرق منها وكل نسيج من أنسجة بشرتها القمحية المتوردة تجرى فيه لذائذ الأثم والعار ، أن يذهب اليها ويقتحم الباب عليها ويقتلها ويدفن معها عارها وأثمها . ولم يك ذلك منه عن روية أوعن تفكير . بل أن سلطان الوسط وفطرة الجماعة التى يعيش بينها فطرة تكونت على الزمان من عقائد وعادات توارثتها أجيال بعد أجيال هما

اللذان دفعاه إلى ما أراد القيام به . لذلك لم يكن بحاجة إلى وقت يتدبر فيه أمره أو يقدر فيه نتائج فعلته . بل غلا الدم فى عروقه وثار ثائر نفسه وملكته فطرة القضاء على هذه الأثيمة المجرمة وتم ذلك كله فى أقل من لمح البصر. وهم يريد التنفيذ. لكنه لم يلبث أن بلغ باب غرفته حتى أمسكت به قوة عاقت حركته. تلك عاطفة الأبوة التى جاش بها قلبه وهزت أعماق وجوده. أتراه يقتل ابنته الوحيدة التى كرس لها حياته ووقف على سعادتها وجوده؟ ابنته الوحيدة الباقية ذكرا لزوجته المحبوبة ولأيام سعادته وهنائه ؟ ولو قتلها فهل تراه يطهر من إثمها ومن عارها ؟ وهل ترى الناس ينقطعون عن أن يوجهوا اليه نظرات الاشفاق القاتل والحقد البغيض ؟

وقف عند الباب برهة لجلجت فيها عاطفة الأبوة فطرة الجماعة ثم عاد الى مخدعه وارتمى إلى جانب وسادة كان يتخذها متكأ بعد عوده من الصلاة وحين تسبيحه وانحط مهدود القوى عاجزاً عن التفكير وعن الارادة لا يرى شيئاً مما أمامه ولا يدرك الوقت ومره ولا الاشباح التى تبدو من خلال نافذته . وظل فى ذهوله حتى بدأت الشمس تتدرك إلى غيب الغروب . ثم دخلت نفيسه أخته تسأله إن كان لا يريد أن يذهب إلى المسجد لصلاة فرضى المغرب والعشاء ،وكأنما أزعجه صوتها من حلمه الأليم فما يدرى أيهما أشد لنفسه وخزا : أهذا الحلم المبهم الذى أنهكه والذى نسى فيه الحياة ونسى الألم ، أم هذا الصوت الذى نبهه الى الحياة وآلامها وأعاد الى نفسه ذكرا ختة وذكر ابنته وذكر عاره الذى لا يمحى ؟!

وارتدى الشيخ جبته ولبس عباءته وعمامته ومركوبه وخرج

قاصداً المسجد . لكنه مالبث أن اقترب منه حتى شعر كأن شيئاً يصده عنه . فقد خيل اليه انه إذا تخطى بابه فسيحدجه من فيه جميعاً بنظرات الاشفاق او الازدراء أو الحقد، وستبدو هذه المعانى فى حدق تلك العيون المتجهه نحوه واضحة ناطقة تخترم نياط قلبه وتنفذ الى أعماق نفسه. فكر راجعاً كانما يريد العود لداره. لكنه عرج بدافع من وجدانه لا شعور له به ولا حكم له عليه عند أول منعطف يسير به بين المزارع . وهل فى الدار الا الأثم والعار ؟ وهل الدار أقل إيلاماً له من نظرات المصلين ؟ وساقته قدماه إلى شاطىء غدير قامت حوله أشجار كسا المغيب أوراقها الخضر ثوباً قتاما لا يخلو من بهجة ، فانعطف والشاطىء حتى بلغ مصلى بعيداً عن السكة العامرة بالناس والدواب . وهنالك ألقي بنفسه فوق الحلفاء المفروشة بها أرض المصلى وعاد إلى مثل ما كان فيه فى الدار من ذهول

وظل فى ذهوله حتى إذا اقترب موعد صلاة العشاء تنبه إلى فرض ربه. ومثله ليس فى ملك نفسه بل هو فى ملك دينه وإيمانه . وهل أصابه إلا ما كتب الله له . وهل كان ما حل به الا من عند الله ولله الشكر والحمد على السراء والضراء ؟ فقام فتوضأ وصلى المغرب ثم صلى العشاء ، ثم رفع أكف الضراعة الى الله أن يهديه سواء السبيل .

عاد الرجل الى داره بعد ذلك يحميه ستار الظلام من أعين الناس ونظراتهم وان لم يحمه من هجمات جيوش الهموم والآلام. وذهب الى غرفته وحاول أن ينام . لكن الهم والنوم لا يلتقيان فى نفس قبل أن يذيبها الهم ويضنيها الألم . فبات يتقلب فى مضجعه الى ما قبيل

الفجر إذ أسعدته سنة ساورته أثناءها فظائع الأحلام . لكنها كانت مع ذلك مسعدة ان جددت له بعض قواه ومكنته من القيام بعدها مبكراً ليؤدى لله فرض الصبح ويستغفر من عظيم ذنبه

وتعاقبت الأيام بعد ذلك والرجل يزداد كل يوم نحولا وأعصابه تزداد ضعفاً . وقل أن كان يفكر بل كانت نفسه ميدانا لحرب مرعبة قائمة بين فطرة الجماعة وعاطفة الأبوة . فطرة الجماعة تناديه ألا سبيل للخلاص من العار الا بالخلاص من ابنته ، وعاطفة الأبوة تحول دون ارتفاعه ليطهر بالدم المراق دنس العار ورجسه

وفى الأوقات القليلة التى كان يفكر فيها كانت عاطفة الأبوة تتغلب عنده على فطرة الجماعة ؛ وكانت تعاوده هزات حنان واشفاق على نفسه : وكان لا يرى جرماً فى التحدث الى بارئه يسأله ماذا جنى لتحل به نقمة الله ، لتفجعه فيما هو أعز من السعادة ومن الحياة ومن الشرف ؟ فى عرض ابنته الوحيدة التى كان يرجوها ملاك طهر وعفاف فأبى القدر القاسى الا أن تكون شيطان رجس وفسوق

وجعل المسكين يفتش فى ماضى حياته عما اجترح من أثم ومعصية . فحال أن يقضى عليه أعدل الحاكمين بغيا بتلك النكبة النكراء . ولم يزعزع من ايمانه أن كان يرى ماضيه طاهراً نقياً ، بل كان أكبر ظنه أن نفسه الأمارة بالسوء دفعته يوماً الى كبيرة لم يفطن لها أن زين له الشيطان سوء عمله وجعله يراه خيرا . ولم يدر بخلده لحظة أن رحى القدر الطحون تدور فتختطف الأطفال الأبرياء من أحضان أمهاتهم وما جنوا إثماً ، وترمل نساء من أزواج كانوا ملائك حب ورحمة ، وتيتم أبناء من آباء وأمهات كانوا مصدر بر وعطف وحنان

لا يفنى . وهى فى دورتها وفى طحنها هذه الذرات الانسانية التافهة فى حياة الوجود العظيم ليست أكثر بها عناية منها بحجر أو بنبات أو بحشرة كالنملة أو كالدودة شأنا . وكيف يدور ذلك بخلده وهو يقيس عدالة السماء التى يؤمن بها بعدالة الأرض التى يعيش عليها ويتوهم أن عدالة السماء تخضع لما تخضع له عدالة الارض من عقائد وعادات ومن أوهام وترهات ومن أباطيل وخرافات

على أن هذه الأوقات القليلة التى كان يفكر فيها والتى كانت تغلب عاطفة الأبوة على فطرة الجماعة فى نفسه لم توجه فكرته لحظة نحو ابنته وما قد يكون لها من عذر فى اتيان ماأتت . بل صارت أبوته وصار اشفاقه سببا فى عطفه على نفسه ورثائه لحاله . فاذا تخيل فاطمة ارتسمت أمامه صورتها ساعة ثورة معانى الخصب والتخليد فى جسمها الشاب البديع . هنالك يغيض تفكيره وتتوارى عاطفته وتلبسه عقائد الجماعة فتملأ وجوده وتتحكم فيه وتجعل منه شخصاً مفترساً يريد أن ينقض على هذا الاثم الذى خرجت به ابنته على شرائع الجماعة ونظمها والذى يوشك أن يثمر نغلا لاتعرف الجمعية له أباً ولا تطبق عليه قوانين الحضانة والنفقة والميراث ، ثم يزيد فى حيوانيته وفى افتراسه هذه المئات بل الألوف من الاعين التى امتلأ بها الفضاء حوله والتى تنظر اليه نظرها إلى أب فاجرة لطمت وجه الطهر والكرامة واحلت الشهوات الدنيئة منها محل العفاف والشرف

مرت الأيام والأسابيع والشيخ يزداد نحولا وأعصابه ضعفاً وفكره ذهولا وقد جالت بنفسه مرات فكرة الانتحار فراراً من هذا العار الذى لحقه، ولكى لايقتل ابنته فيأثم فى حق بارئه بان

يقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق . لكن هذه الفكرة انهزمت كما انهزم غيرها من الافكار. وكان الرجل كلما زاده الهم نحولا صار أضعف تفكيراً واكثر خضوعا لفطرة الجماعة وتمثلا إياها فى خلايا ذهنه وفى شعاب قلبه وفى ثنايا نفسه ودخائل فؤاده. عندذلك بدأت هذه الارادة التى شلها التردد بين الفطرة والعاطفة تتحرك بدافع الانفعال وحده كما تتحرك ارادة السبع والنمر وكل حيوان مفترس، وبدأت شهوات الرجل تتنبه للطعام وللشراب تقوى فيها هذه الحيوانيةالتى أخضعت كل قوى الانسانوحسه وشعوره، وتحكمت فيه فكرة ثابتة كان يؤمن بهاولها يخضع ،تلك أن لاسبيل لمحو العار الا بمحو مصدره. وخلقت هذه الفكرة الثابتة لنفسها منطقا وسلحت الرجل بكل وسائل تنفيذها . فهذه البنت الفاجرة لا يمكن أن تكون ابنته وهو التقى الورع القوى الايمان بالله البعيد عن مواتاةالرذيلة والنقص . ومن يدرى فلعل أمها خانته فى غفلة منه فكانت الاثيمة الفاجرة ثمرة الخيانة والاثم . بل لا شك عنده فى هذه الخيانة التى أورثتها الأم لابنتها ، فما كان الله ليقتص منها فتموت شابة فى قوتها وفى نضرتها لولا أن ارتكبت معه معصية فى حق الله . لكن البنت تنسب اليه وقد أسبغ عليها من نعمة العيش ما كفرت به حين اسلمت نفسها لهذا الاثم فكان من كفرها ماجعل الناس ينظرون اليه هذه النظرات القاتلة

وهب البنت ابنته وأمها كانت طاهرة نقية فذلك يزيد فى جريمة فاطمة ولا يخفف منها . هى زانية فنصيبها القتل جزاء وفاقا . واذا كانت القوانين التى سنها الناس غير شرع الله تبيح لهم التمرغ فى حمأة

الشهوات وهم من القصاص بمنجاة فما كان لمؤمن بالله وشريعته أن يدع الآثام التى حرم الله ترتكب وهو عنها لاه ولها مطمئن .
أو لم يقل الرسول عليه السلام : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الايمان !
وهذه البنت قد أصبحت منكرا يراه الشيخ تحت سقفه ويحسه فى أعماق نفسه فوجب أن يزيله بيده ويومئذ يكون قد أدى لله وللفضيلة وللأبوة حقاً مقدساً ؛ ويومئذ ينظر إلى هؤلاء الناس الذين يزدرونه اليوم فيرد اليهم ازدراءهم ثم هم يكونون بورعه وتقواه اشد ايماناً

وشحذت فكرته الثابتة عزمه فلم يبق الا أن ينفذه فيزيل هذا المنكر ويرضى بذلك ايمانه الثابت ويرضى فطرة الجماعة التى تحكمت فيه ؛ وسيان لديه بعد ذلك ما يكون حكم شرائع الناس عليه . ولم يرض خياله المفترس الا أن يذبح ابنته ذبحاً ويشوه وجه البغى تشويها ويقطع أوصالها اربا اربا فلا يبقى بعد ذلك عالقا بنفسه من إثمها ولا من عارها باقية . وانتظر الشيخ حتى اذا كان يوم السوق ذهب بنفسه إلى أحد باعة السكاكين فابتاع سكينا مرهف الحد لامع النصل متين القبضة وحمله إلى داره وجلس بقية يومه ينظر اليه ويصور لنفسه الدم يقطر منه فيبسم لهذه الصورة وتبرق عيناه بريقا شديداً ثم يعتريه شىء كانه المس أو الذهول ؛ فاذا عاد إلى نفسه استعاد منظر الجريمة التى قدر عليه أن يرتكب، كما قدر على ابنته من قبيل أن تخضع لسلطان الهوى ؛ فاغتبط باثمه اغتباطها يوم سقطتها بأثمها وشعر بلذة

تملأ حواسه حتى لكأن منظر الدم ورائحته وطعمه وصوت تفجر القلب به كان يملأ عينه وأنفه وفمه وأذنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

وأرخى الليل سدوله وسكن كل من فى القرية الى أهله وذهبت فاطمة الى مضجعها وبها من علة الحمل وسقم الهم لما كانت تسمع من عمتها من تقريع وتأنيب ماذهب بحمرة خدها وإن لم يذهب بجمالها ولا بابتسامة خالدة بديعة كانت تطوق ثغرها العذب الساحر. وفيما هي تحتمي بالنوم من علتها وهمها قام أبوها من غرفته وبيده ذلك النصل المرهف وسار الى مضجعها بخطوة ثابتة حتى اذا كان عندها ونظر الى وجهها شعر كأن قلبه يريد أن يضطرب بنبأة من حنان فرفع يداً لم تخل رغم ثبات جنانه من بعض الرعشة ثم أغمد النصل بكل قوته فى قلب الفتاة التى فتحت عينها تحت أثر الطعنة فرأت أباها تلمع عيناه بالشرر ويرتجف جسمه وتتمتم شفاهه فى صوت خفى ولكن بحرارة وقوة : الحمد لله على قضائه !

وأرادت أن تتنصل أو تدافع عن نفسها . لكنه وضع يده اليسرى على فمها واستل النصل من القلب فانفجر الدم حارا قويا كله الشباب والحياة وأحس الرجل رشاشاً منه يصيب وجهه ويده فزاده اقداما وافتراساً . وبيد ثابتة ذهبت عنها كل رعشة وزايلها كل خوف حز الرجل عنق المسكينة التى حاولت أن تتخلص بكل مافيها من قوة اليأس . لكن أباها كان أشد منها يأساً . وبعد ماانفصل الرأس عن الجسم لذ لهذا المخلوق المفترس أن يشوه ذلك الرأس وذلك الجسم وما يزال دمها حاراً تتفجر به شرايين تلك الضحية التى

أرداها الجمال والهوى . .

وخرج الرجل بعد جريمته مؤمنا بأنه ادى فرضاً واجباً عليه أداؤه، لذلك ظل هادىء النفس مطمئناً . فلما سئل امام القضاء لم يتردد فى الاعتراف بانه قتل . ونال من اشفاق القضاء عليه بعد الوقوف على أمره أن اعفاه وبرأه

ولم يطل به المقام بعد ذلك فى قريته . فقد بدأ بعد أشهر من عودته تنتابه أطوار غريبة . كان ينقطع الى خلوة فى بعض المزارع البعيدة أحيانا، ثم يعود الى معاشرة الناس أخرى، فيراه الناس ذاهلا طوراً، هاذياً تارة، وقد ازداد أكثرهم أيماناً بورعه وبتقواه بعد الذى رأوا عليه من هذه الاعراض وآمنوا به وليا صالحا . لكن مدة ولايته لم تطل بعدما اقترن هياجه بالاعتداء على الناس. فقد نقل الى مستشفى المجاذيب وهو مايزال الى اليوم فيه . وانك لترثى لحاله حين تراه فى ساعة سكونه يذرف الدمع سخينا على ابنته التى قتل وزوجته التى اتهم ويضرع الى الله أن يبعث الى قلب رجل من الحنان عليه والبر به فيورده حتفه ويضع حدا لآلامه . .

خاتمة فى الادب والحضارة

كنت شغوفا بقراءة الأدب العربى القديم وما أزال . ويرجع هذا الشغف الى أيام كنت طالبا بالقسم الثانوى وحين كنت اتلقى الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية . وقد طالعت يومئذ الكثيرمن أمهات كتب هذاالأدبوحفظت عنظهر قلب ما حبب الى نفسى مدخله . فلما كنت فى السنة الاخيرة من دراسة الحقوق بدأت متأثراً بظروف ليس ها هنا موضع ذكرها اقرأ كتبا فى الادب الانكليزى وفى الفلسفة الانكليزية ككتاب الابطال لكارليل والحرية لجون ستوارت مل والعدل أحد أجزاء الفلسفة الاجتماعية من كتب سبنسر . اذ ذاك انفسح أمامى منعوامل التفكير ما لم تهد اليه مطالعاتى العربية . وسافرت من بعد ذلك الىباريس وجعلت أدرس اللغة الفرنسية واتصل بأدبها فأخذ اليه من هواى كأشد ما تأخذ حسناء اليها هوى مغرم بها . فأمعنت فى قراءةهذا الأدب وجعلت أحضر من دروسه مثلما كنت أحضر من دروس الحقوق التى كانت مقصدى من سفرى لنيل اجازة الدكتوراه فيها . ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناى من جمال البيئة المحيطة بى الى الاعجاب غاية الاعجاب بالحضارة الغربية التى

تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية . ولعل أشد ما أعجبنى من هذا
الادب روح الثورة الذى يبدو فيه دائم الضرام وحيوية متوقدة
لا تخبو قط نارها . وأنت تشعر بهذه الثورة الأدبية فى كل صور
الأدب سواء . فالقصة والاقصوصة والرواية المسرحية وكتب
الأدب والفلسفة تنم كلها عما تضطرم بها أرواح كتابها من نشاط
دائم لا يستقر ولا يهدأ . وهو كذلك فى الكاتب الواحد وهو
أشد من ذلك فى الجيل يعقب الجيل . فالشعر الكلاسيك لراسين
غيره لكورنى وكلاهما من الذين بعثوا أدب اليونان ، وشعر
معاصرهما موليير فى مهازله ومآسيه ثورة عليهما لانه ثورة على القديم ،
بل طليعة الثورة على القديم . وأدب القرن الثامن عشر ثورة على أدب
القرن السابع عشر . والقرن التاسع عشر ينسج فى أدبه كما ينسج
فى علمه وفلسفته على طرائق هى الثورة على القرنين اللذين سبقاه
جميعاً . وفى كل قرن تتطاحن فى الادب مذاهب وتقتتل آراء وتقوم
بين الادب والعلم وبين الادب والفن وبين الادب والفلسفة ثورات
لا يهدأ أوارها . وهذا النشاط المتصل وهذه الثورة لدائمة الضرام
هى خير مايقنعك بأن الحياة فكرة قبل أن تكون عملا . فكرة
تسبق العمل وتوجهه سبيله . والحياة فى هذه الصورة هى الحضارة الحية
القوية التى استلهمت الفن والعلم والادب وألهمتها فكانت حضارة
العلم والفن والادب . وكان الادب من العلم والفن هو الصدى الناطق
للحالات النفسية التى يعبر عنها الفن . وهو الفن البديع الاتساق الذى
يكسو بآياته قواعد العلم روعة وجمالا

ومن أشد مايلفت النظر فى هذا الادب الفرنسى ومايشترك

وإياه فيه أدب الغرب كله دوام الصلة بينه وبين الدين من ناحية ، وبينه وبين العلم من الناحية الاخرى. فقل أن نجد كاتباً من كبار الكتاب لم يعرض في واحد أو أكثر من كتبه الى مسألة العقيدة أو الى المسيحية، سواء عرض الى هذه أو تلك بما يملأ قلبه من جلال الايمان أو من الثورة على العقيدة أو الدين. فالفردوس المفقود لملتن فى الادب الانكليزى، والجحيم لدانت فى الادب الايطالى، وكتب روسو وفلتير فى الادب الفرنسى ، هذه وغيرها كلها آثار خالدة فى الأدب الدينى وفى الأدب المناهض للعقيدة وللدين. وهذه الكتب كلها ، سواء منها الدينى أو المناهض للدين ، تطبعها روح الثورة التى أشرنا اليها. وليس فى ذلك من عجب . فقد كان البعث الاوربى فى القرن السادس عشر ثورة من طائفة من رجال الدين على رجال الكنيسة الكاثوليكية . ولوثر وكالفن وكوسوث هم أقطاب هذه الثورة . ثم كانت من بعد ذلك ثورة على هؤلاء ومحاولات عنيفة لتقويض عمد الكنيسة كلها . وإنما كان ذلك لان الحضارة الغربية كانت إلى ما قبل البعث وإلى ما بعده بزمن غير قليل خاضعة أسوأ الخضوع لسلطان الكنيسة الدينى والزمنى. فلما بدأت حركة البعث بدأت متمردة من جانب رجال الدين على زملائهم لأن العقل والعلم والحكم وكل المظاهر الانسانية، كانت محصورة أو تكاد فى رجال الدين، وكان واجباً على من عداهم أن يخضع اليهم أو يطرد من الكنيسة ويكون جزاؤه التعذيب والنكال أشد النكال . فلما بدأت حرية الفكر تأخذ حظها من الحياة بنشر ديكارت كتابه (عن الطريقة) وأصبح للناس جميعاً أن يناقشوا الكنيسة وخطا العلم خطواته القوية كان النزاع على أشده حتى كان

انكار سلطان الكنيسة بعض ما نادت به الثورة الفرنسية ، وحتى تم الفصل بين الكنيسة والدولة فى فرنسا فى أوائل هذا القرن العشرين. فلا جرم إذن أن يتأثر الادب وهو مرآة الحضارة بهذا النضال كله وأن يكون تصوير حرية الفكر على أنها خصومة الكنيسة بعض ما يعبر عن حقيقة واقعة فى هذا النضال العنيف الذى قام فى الغرب، والذى عاد اليوم يضطرب فى مختلف الدول من خيفة أن يتم الصلح بين الكنيسة والدولة .

كان هذا الخوف بعيداً عن الاذهان فى عهد الادب الكبير الذى أشرنا فى تقديم هذا الكتاب له . لذلك لم يفطن كثيرون من المصريين ومن الشرقيين الذين أتموا دراساتهم فى أوربا الى الاسباب التى أدت بالادب الغربى ليطبعه هذا النضال بين الكنيسة والدولة، وبين الحضارة الدينية والحضارة المدنية، مما أدى بأوجست كومت ليقرر قانونه عن الحالات الانسانية الثلاث — التيولوجية (اللاهوتية) والمتافيزيقية (التجريدية) والوضعية أو الواقعية — على انها الحالات التى يمر بها عقل الجماعات البشرية وكانها لا يمكن أن تتجاور أو تتصل. وأدى عدم نجاح دين الطبيعة ودين الانسانية وما اليهما من مثلهما، مما وضع روسو وكمت، ببرحسن ومدرسته الى وضع فلسفة (البرجماتيزم) أو الالهام. وبهذه المذاهب تأثر الادب الغربى تأثراً له علته لان الادب فى اتصاله بالحياة يتصل بالحياة الروحية والعقلية كما يتصل بالطبيعة وبالحياة المادية. والمصريون والشرقيون الذين لم يفطنوا بما يجب من الدقة الى هذا الاتصال التاريخى بين الدين والعلم والفلسفة والأدب فى الغرب ، والذين فتنوا بأدب الغرب ، هؤلاء وأولئك خيل

اليهم أنهم قديرون على نقل صور الادب الغربى الى الشرق كما هى.
فخيل اليهم أن فى الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ماانتهى اليه
النضال بين الدولة والكنيسة فى الغرب يجب أن يبدأوا عنده حملتهم
على هذه الكنيسة الموهومة فى الشرق. وخيل اليهم ضرورة الفصل
بين الكنيسة والدولة على نحو ماحدث فى فرنسا . وأعترف أن
خواطر كهذه جالت بنفسى فى أوقات متفاوتة . لكنى إذ فكرت
وفكرت رأيت تاريخ الحضارة فى الشرق غير تاريخها فى الغرب ،
ورأيت الحضارة الاسلامية لاتعرف شيئا اسمه الكنيسة لأن
الاسلام لايقر الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين وإنما
يقرر : ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ولست أدرى إن كان الغرب
قد فطن الى ما لمركزه السياسى فى الشرق من مصلحة فى قيام هذه
الحركة الجديدة التى سماها بعض كبار أساتذة الجامعات الأوربية
« تغريب الشرق » ، أم انه هو الآخر قد خيل اليه أن حياة الشرق
كحياة الغرب ، وأن رسالة الغرب التى ألقتها الحضارة على عاتقه انما
تكون بهذا «التغريب» للشرق حتى ينسى تاريخه وينكر ماضيه

ولا أحسبنى أمل القارىء اذا أنا كررت فى هذه الخاتمة ما
قدمت فى فصول الادب القومى وفى أكثر فصول هذا الكتاب
من أن بعث حضارة الشرق يجب أن يكون باحيائها من سبيل بحثها على
الطرائق الحديثة لا بالتكديس على اكفانها من صفائح الغرب المستعارة
مايزيد فى جمودها وتكلسها تكلساً يحاول ابناؤها ازالته عنها . وهذا
الاحياء انما يكون بتعاون العلم والادب . العلم الذى ينقب ويمحص
ويجلو الغامض . والادب الذى يلقى الضياء الشفاف على مايكشف العلم

عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ العــذب والاسلوب الممتلىء بذاتية صاحبه وبحياته . سنكون مدينين فى هذا الاحياء لطرائق العــلم الغربيه الحديثة، ويجب علينا لذلك أن نقر لهــذه الطرائق بالفضل. لــكننى أحسبنى لاأغلو اذا أنا ذكرت أنا اذا اقتحمنا هذه السبيل فسنجد فى علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق الغرب العلميــة الحديثة وقد تتفق على الأقل معهــا . وقد اتفق لى أن كنت أطالع فى كتاب بالانكليزية عن تاريخ الــكيمياء فكانت دهشتى عظيمة وأنا أقرأ فى تاريخ الــكيمياءعند العرب حين عثرت على نصوص عربية منقولة ترجمتها تتحدث بنفس اللغــة التى يتحدث بها العلم الحديثعن طرائقه . فالملاحظةوالتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين من ذلك كله كان مما آمن به العرب فى علمهمإيمانالغرب به فىعلمه . واذكر أن هذه النصوصالعربيةترجع الى القرن الرابع أو الخامس الهجرى بينما هى لم تصبح موضع إيمان الغرب إلا فى القرون الأخيرة . لــكنى يجب على أن اعترف بأن ما وقفت عليه من قراءاتى العربية لم يهدنى الى هــذا الفصل الدقيق بين العلم والدين على ماأراد مؤلفو الغرب من أنصارالمذهب الواقعى (البوزتفزم) . ومع ما يجد الانسان فى مذاهب الفلسفة العربيــة من التشكك واللا أردية والالحاد فانه ، فى حدود ما قرأت ، لايجد هذا التفريق الصريح بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن معرفته (The Knowable and theUnknowable)مماقدمبههربرتسبنسر لفلسفته التوفيقية . أفيرجع ذلك الى ما فرق تاريخ المسيحية بين الــكنيسة والعلم تفريقاً أوقف العلم موقف الخصومة من الدين بينما

لم يكن من ذلك شيء فى تاريخ الحضاوة الاسلامية !! قد يكون هذا . فقد رأينا من خلفاء محمد عليه السلام من يجعل المناقشة فى القرآن أمخلوق هو أم قديم موضع رعايته وعطفه ، وقد رأينا المذاهب الاسلامية يقوم بعضها فى أثر بعض بأئمتها وكبار الفقهاء فيها ويختلف بعضها مع بعض بل يختلف التلاميذ مع الأئمة اختلاف ابى يوسف ومحمد مع ابى حنيفة ، ومع ذلك لم يقل أحد بسلطان مطلق للخليفة فى شلح المسلمين وطردهم من الكنيسة . صحيح أن صوراً مختلفة من النضال الدينى كانت تقوم ، وعنها كانت تنشأ انقلابات سياسية جليلة الخطر ، وبسببها تطورت الحضارة الاسلامية مما كانت أول خروجها من بلاد العرب الى ما صارت اليه بعد اتصالها بالفرس والمصريين والاندلس وغيرهم ، لكنها ونظمها وحركاتها سلكت سبيلا تختلف اختلافا جوهريا عما سلكت المسيحية وكنائسها .

اذا أردنا احياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والادب فلا مفر لنا من احياء هذه التطورات وتاريخها ومن شق الطريق فى غيابات هذا الماضى الخفى اليوم على أكثرنا ، بل علينا جميعا ، لنعيد بذلك بعث هذا الماضى والروح الذى كان يحركه ، فنعيد كذلك بعث روحنا نحن ، روحنا القوى فى مصر ، وروحنا المصرى فى اتصاله بفلسطين وسوريا والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التى اتصلنا بها وخضعت وإيانا فى أية حقبة من حقب التاريخ لمصير مشترك . لتكن الحضارة التى تقوم على أساس هذا الاحياء حضارة اسلامية كما أعتقد ، أو حضارة عربية كما يريد

البعض ، أو حضارة شرقيه متصلة بحضارة فارس والهند ، كل ذلك قليل الأثر عند من يريد احياء هـذه الحضارة العظيمة ولا يريد التلاعب بالالفاظ لغايات سياسية أو غير سياسية .

ولا مفر للأدب العربى من أن يساهم بنصيب عظيم فى هذا الاحياء ، ولا مفر له من ان يتوجه . وان الأدب لـكثيراً مايسبق العلم فى بعث الحضارات ، وقد لايخطيء كثيراً من يقول إن الادب كان دائما أسبق من العلم فى هذه السبيل . فالحضارة لم تكن يوما ما مذهباً منطقيا يقيمه العقل وحده ، وانما هى مجموع مطامح الحياة الى المثل الأعلى الذى ترجو الجماعة بلوغه ؛ وهى الى جانب ذلك تصور الجماعة الانسانية لصلتها بالوجود فى مجموعه صلة تنتسب للماضى وتنفذ الى أعماق المستقبل . والمثل الأعلى ومطامح الحياة نحوه وصلة الجماعة بالوجود ، هذه كلها تمتزج بها ولا تنفصل عن وحدتها عناصر من الايمان والعقيدة ومن الحياة النفسية المتأثرة بوراثة الماضى وبمختلف عناصر الوجود مما يدخل بعضـه فيما سماه سبنسر (مالا يمكن معرفته) ، وما يدخل بعضه الآخر فى دائرة الالهام العريق النسب بالأدب والمحتـاج الى زمن لايعرف انسان مداه ليكون أوثق بالعـلم نسبا. وأنت فارجع فى تحقيق ذلك الى مختلف الحضارات التى تعرف . ارجع الى الحضارة اليونانية والى الحضارة الاسلامية والى الحضارة الغربيـة الحديثة ، تجد الأدب كان أبداً سباقا الى اقتحام الميادين التى هيأت لهذه الحضارات بروزها والى شق السبل التى طوعت بلوغ الحضارات هذه الميادين . وقد ظل ذلك شأن الادب فى صلته بتلك الحضارات أجيالا متعاقبة حتى

جاء العلم بخطاه البطيئة الاكيدة يستصفى من هذه السبل ومن هذه الميادين خلاصة القوانين العامة التى توجه الانسانية وتوجه الحياة .
واذا كان العلم قد نفى فى كثير من الاحايين ماأثبت الادب فقد ظل مانفى العلم من آثار الادب متوقداً ملتهباً يصهر بوتقة العلم حتى أطفأ العلم شعلته . فاذا قيل بعد ذلك ان هذا الادب قد قضى العلم عليه فهو انما قضى عليه بعد أن أدى للعلم وللحضارة مدى أجيال متعاقبة رسالة الادب . وهو من بعد انما يخضع فى ذلك من قوانين الحياة لما يخضع له العلم نفسه . فكثيراً ما أثبت العلم فى عصر من العصور قواعد وقوانين ثم جاء العلم فى عصر آخر لحطم هذه القواعد وزيف هذه القوانين .
ليقتحم ادبنا إذن ماضينا . وليقتحم هذا الماضى بادوات البحث الادبى وباساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حراً طليقاً غير هياب ولا متردد . وليقتحمها بروح الثورة التى اقتحم بها الأدب الغربى تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدها ، وروح الثورة التى اقتحم بها الأدب العربى تراث فارس ومصر واليونان ، وليقلب ، وليقلب فى هذا الماضى ما شاء له التقليب والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده . الحق فى أسمى صوره التى تلتمس الانسانية على الأجيال فتكاد تلمسه أحيانا حين يكشف عنه أنبياء الانسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم لايلبث أن يفلت من يدها لأول ماتغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح . والحق الصحيح : الحق الذى تقوم الحضارات على أساسه والذى يدعمه الادب على أسنة أقلام كبار الموهوبين

من الكتاب ، هو الحق فى صلة الانسان بالوجود كله ، بهذه الافلاك التى نرى وبهذه السماوات التى تغمرها وبالروح الفياض بالضياء والذى يحيط بذلك كله ويبعث اليه الحياة والنور . هذا الروح الذى لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه ؛ وصلة الانسان بالوجود وبهذا الروح الذى ينتظم الوجود جميعاً ، هى الحقيقة العليا التى يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب ؛ وأن تكون رسالة كل أدب يطمع فى أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للانسانية المجد والسعادة .

الأدب الذى يسمو بالنفس الى هذه المعانى العليا ، والذى يرتفع بها لتتصل بالوجود كله ، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة ، حقيقة هذا الروح العظيم الذى تعنو له الجباه والذى تستمد منه كل حقيقة وجودها . هذا الأدب هو الذى يقيم الحضارات السليمة الصحيحة . وأحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه فى ماضينا . فى هذا الامس العظيم الذى يفاخر به الشرق القديم تاريخ الانسانية جميعاً ؛ والذى يدعونا لنقيم عليه حضارة الشرق الجديد

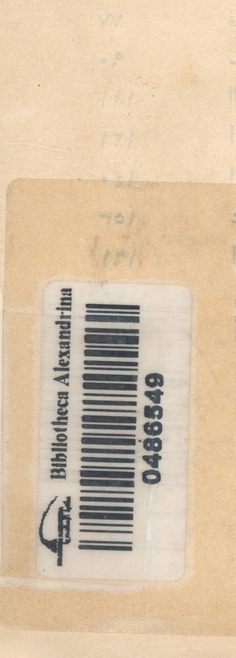
أترى آن الوقت الذى يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد؟ بذلك أناديه ، فهل بلغت النداء ؟! . .

« انتهى »

— ٢٥٤ —

كان الفراغ من طبع «ثورة الأدب» فى ٨ مايو سنة ١٩٣٣

فهرس


Bibliotheca Alexandrina
0486549